أول الكلام

سعيد الأفغاني
من
أعلام العربيّة

رئيس التحرير

***عندما** قررتْ هيئة تحرير مجلّة "التراث العربي" أن تختار الكتابة في هذا العام عن شخصيّة علميّة أكاديميّة بارزة تركت أثراً علمياً ملموساً ليس في القطر العربي السوري وحده، وإنما انداح أثرها في أقطار عربيّة كثيرة، وقع الاختيار على شخصيّة الأستاذ سعيد الأفغاني، ذلك الرجل الذي نذر نفسه بصمت ووقف جهده بإصرار على خدمة اللغة العربيّة، وتحديداً على نحوها وصرفها وجوانب متعددة من امتداداتها خلال الثقافة العربيّة، وساعدته ثقافته الواسعة على أن تطال يده زوايا مخبوءة ومهمة في الفكر العربي والإسلامي، تناولها بروح العالم الواثق من علمه، الرصين في تفكيره، المؤمن بقيمه، الذي لا تأخذه في قولة الحق لومة لائم.*

ذلك الرجل متعدّد جوانب النشاط الفكري، فهو أستاذ جامعي مهاب يسيطر على المحاضرة التي يلقيها، ويلمّ بها من كل جوانبها، يغوص إلى أعمق الأفكار فيها، ثم يعرضها بأسلوب يتناسب مع عقلية الجيل الذي يخاطبه؛ مع أنه تعامل مع عقليات أجيال مختلفة، تختلف باختلاف الزمان الذي عاشه، والمكان الذي تنقل فيه ورحل إليه، ولكنه، ـــ على الرغم من كل المتغيّرات التي حوله ـــ ظل يحافظ على الأصيل من الثوابت التي آمن بها وثقّفتها شخصيته.

إذا قُدِّر لك أن تحضر له محاضرة في مدرجات الجامعة حكمتَ عليه بأنه خُلق مدرساً للنحو لا يعرف علماً غيره، ولكنك إذا قرأت مؤلفاته عن عائشة والسياسة وأسواق العرب في الجاهلية

والإسلام تبدّت لك شخصية المؤلِّف التي تظنّ أنه رجل خُلق للتأليف ليس غير، وإذا قرأت مقالاته التي كتبها في بواكير المجلات العربية، ألفيتَ رجلاً بارعاً في كتابة المقالة، تتأكد من ذلك عندما تقرأ مقالات عن العُقدة الأساسية في شخصية المتنبي وعقدة فنه التي حار في تفسيرها كتّاب المقالة، وهي (نبوءة المتنبي ودينه)

وتستشف عمق تحليله الأدبي إذا قرأت السجال الذي كان بينه وبين كبار الدارسين لفن المتنبي حول هذه القضية فإذا تابعت مقالاته في مجلات الرسالة والثقافة ومجلة مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وغيرها تراءى لك الأفغاني الأديب بجانب الأفغاني النحوي.

وإذا قرأت مقالاته عن أحداث عصره التي عاشها فكان شاهداً عليها أدركت عمق تفكيره لتَمَثُّل أحداث العصر، وصحة تفسيره لمجريات تلك الأحداث التي تركت شرخاً كبيراً في انحراف السياسة في الشرق الأوسط، ما زلنا نعاني من آثارها السلبية إلى يومنا هذا.

كان العلماء في العصر العباسي يتماحكون، ويتبادلون المقولة (كن أديباً ولا تكن نحوياً) لأن الأديب أوسع أفقاً، وأرحب معرفة، ولأن النحو يتعلمه الأديب من خلال ممارسته للأدب، يتعلم النحو مطبقاً على النصوص الأدبية التي يمارسها، وهكذا كان أستاذنا أديباً في إهاب نحوي وهو الوجه الذي لا يعرفه في الأفغاني إلا القليل.

كنتُ أتوقع أن يكون ما يرفدنا به الكتّاب عن شخصية الأستاذ الأفغاني محصوراً في حقل اللغة والنحو، ولكنّ ما تهاطل على المجلة من الأبحاث والمقالات من زملائه وتلاميذه وأصدقائه ومحبيه تجاوز ذلك إلى الجوانب الظاهرة والخفية من شخصية الرجل، ويسعدنا أن نتلقى هذا القدر الوافر من الكتابات التي أغنت العدد، بمقالات متنوعة رشحت من أقلام رصينة متمكنة، وها نحن أولاء نقدمها للقارئ، بعضها مما يعرفه، وبعضها الآخر مما يضيف إلى حصيلته معرفة جديدة، ويضيف إلى المكتبة العربية أفكاراً لم تكن قد دخلتها من قبل.

آمل أن تسعفنا قادمات الأيام على حسن اختيار شخصيات رصينة من أعلام ثقافتنا وفكرنا ممن لهم اليد الطولى في ترسيخ الثقافة العربية، وصياغة الأجيال المؤمنة بهذه الثقافة، والجاهدة في تقديمها للعالم نقيّة بريئة من كل (شوفونية) وتعصب.

علّمنا الجاحظ في رسائله مقولة حصيفة قال فيها: "ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر، لبطل أول العلم، وضاع آخره، ولذلك قيل: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم منه الآخر".

□□□

عائشة و السياسة

أ.د.وهبة الزحيلي*

***إن** أشد ما يؤلم الإنسان، ويجرح الفؤاد، وينكأ مشاعر المسلمين تلك الأحداث التاريخية الخطيرة التي تعرضت لها الأمة الإسلامية في عهد مبكر بعد العهد النبوي، والتي أحدثت شرخاً عميقاً في بنيان الأمة على الدوام، وبدأت إبان الخلافة الراشدية حيث قتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلاً مشيناً ومهيناً، فكانوا في قمة شهداء الإسلام.*

وكأن قرب عهد هؤلاء الصفوة الذين تربوا في مدرسة النبوة وتأثرهم بأخلاق الجاهلية وثاراتها وصراعاتها القبلية، وشدة مراس العرب وصلابتهم في علاج الأحداث الكبرى، دون وعي عميق لأصابع الفتنة والدسائس، هو السبب البعيد أو غير المباشر في تتابع المشكلات وتأزم الأزمات الفكرية والسياسية بالذات، وتفريق الأمة وتمزيق وحدتها.

إن استشهاد الثلاثة من الخلفاء الراشدين عمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم كان له وقع السهم المسموم في قلب الأمة الكبير على مدى التاريخ، ولم ينشأ ذلك من فراغ، وإنما الذي أدى إليه هو ثلاثة أسباب متشابكة وهي:

- التآمر اليهودي الماكر على المسلمين، مما أوقعهم بسرعة في الفتنة العمياء.
- انعدام التجربة العربية في وسط شبه الجزيرة العربية في صياغة وحدة الأمة القوية، والتخطيط لمستقبل حصين وعتيد، وافتقاد رؤية واضحة المعالم للمصير المشؤوم.
- سيطرة المشاعر الجامحة ذات النظرة الجانبية الخاصة دون إمعان أو تقدير لوجهة الرأي الآخر أو تأمل في مصير الأمة.

ومن المؤسف حقاً أن أدوات تنفيذ خيوط هذه الأحداث الجسام وضحاياها معاً هم عِلْية الأمة أو كبارها، ورعاعها، على السواء.

* جامعة دمشق.

ومن أبرز أحداث الخلافتين المتلازمة: خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما: حروب الصحابة الكرام فيما بينهم، وفي طليعتها وقعة الجمل ووقعة صفّين.

والذي زاد في إرباك الأمور هو: توريط أو استجرار السيدة عائشة رضي الله عنها إحدى أمهات المؤمنين لقيادة حرب ضروس بين الطرفين تحت مظلة الثأر من قتلة عثمان، وهما عائشة وطلحة والزبير في جبهة، والإمام علي في جبهة أخرى مواجهة للأولى، بين أهل البصرة وأهل الكوفة، وفي منتصف جمادى الآخرة عام (36 هـ)، في وقعة الجمل.

والحقيقة الصعبة في وقعة الجمل أنها إحدى مظاهر الصراع على الخلافة، وسدنتها هم الأمويون الهاربون من المدينة المنورة، والحاقدون على الإمام علي في قبوله الخلافة من أيدي قتلة عثمان، ولما كانت مكة المكرمة بلداً حراماً لا يقاتل فيها، اتخذ أعداء علي طريق العراق، وكان فيه أنصار لطلحة والزبير يرشحونهما للخلافة، وادَّعيا أنهما بايعا علياً بالإكراه، وأنه ليس أهلاً للخلافة بعد عثمان، ولا أولى بها منهما[1].

قامت موقعة الجمل بين جند علي من ناحية، وبين بني أمية وعائشة وطلحة والزبير من ناحية أخرى.

ومن المعلوم أنه كان لعائشة رضي الله عنها مقام كبير بين الصحابة، حيث كانت حجة ومرجعاً علمياً كبيراً للرجال والنساء في الدين، إلا أنها تعرضت لحدثين كبيرين خطيرين هما: قصة الإفك في عهد النبوة، ومشاركتها في وقعة الجمل بصفة القيادة في عهد الإمام علي، ووراءها التآمر السياسي للأمويين، أما الحدث الأول: فتولى الله تعالى في قرآنه المجيد تبرئتها بآيات عشر تتلى إلى يوم القيامة في سورة النور [11 ــ 21]. وأما الحدث الثاني: فكان رأي كبار الصحابة فيه ضرورة ترفع عائشة عنه، وألا تخرج من المدينة إلى البصرة، وإن خرجت بنية حسنة دفاعاً عن الحق ومطالبة بالثأر من قتلة عثمان، لولا طوفان الفتنة الكبرى الذي وجه الطرفين واستُدرجا للقتال بتحريض رأس الشرّ عبد الله بن سبأ اليهودي[2].

ومنزلة كل من علي وعائشة كبيرة، مما زاد في شدة الصراع وحدة القتال، وقد تميزت عائشة بمزايا تسع هي كما قالت عن نفسها:

"لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران: لقد نزل جبريل بصورتي في راحته، حتى أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري، ولقد قبض ورأسه في حجري، ولقد قبرته في بيتي، ولقد حفّت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وإني لمعه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصدِّيقه، ولقد نزل عذري من السماء،

(1) التاريخ السياسي للدولة العربية، الدكتور عبد المنعم ماجد: 1/ 262 ــ 263.
(2) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم حسن 1/ 268.

ولقد خلقت طيبة عند طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً"[1].

أما علي كرم الله وجهه فهو الإمام بحق لأن أكثر الأمة بايعوه بالخلافة، وهو باب مدينة العلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عم النبي وصهره، وأحد الشجعان الأبطال، وقد تبرأ مراراً من قتلة عثمان ولعنهم، وحينما قام بعض كبار الصحابة (عائشة وطلحة والزبير وغيرهم) يطلبون القبض على قتلة عثمان وقتلهم، توقى عليّ الفتنة وتريث، وظفر في وقعة الجمل سنة (36) بعد خلافته بسنة، بعد أن بلغت قتلى الفريقين عشرة آلاف[2].

لقد كتب العلامة الأستاذ سعيد الأفغاني رحمه الله كتابه المتميز: "عائشة والسياسة"، معتمداً في الأكثر على أغنى وأوثق المصادر التاريخية: "تاريخ الأمم والملوك" للطبري، قائلاً: وليس "الكامل" لابن الأثير إلا تاريخ الطبري منسقاً منه الأسانيد واختلاف الروايات، واعتمد عليه ابن خلدون فيلسوف المؤرخين في نقل حوادث الجمل.

واشتمل كتاب الأفغاني على ستة أبواب، الباب الأول ــ في عهد عثمان في أربعة فصول، والباب الثاني ــ مواقف عائشة في عهد علي حتى يوم الجمل في ستة فصول، والباب الثالث ــ يوم الجمل الأكبر في خمسة فصول، والباب الرابع ــ وقفة عند حرب الجمل في فصلين، والباب الخامس ــ في حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل في فصلين، والباب السادس ــ عائشة في الفرق الإسلامية في ثلاثة فصول، ثم خاتمة طيبة.

تميز الأفغاني في هذا الكتاب القيم بالموضوعية والحياد والتجرد وسرد أحداث التاريخ الصائبة، والدقة في بيان أحداث صراع عائشة مع علي، مع التعقيبات المفيدة في كل موطن، ونقد الأمة الإسلامية التي لا تتنبه للفتنة إلا بعد مرورها، وإنصاف الإمام علي وتنزيه السيدة عائشة، وبيان مصداقية الصحابة في اعتقاداتهم بدفاع كل فريق عن عائشة والجمل، وعن علي وإقدامه، والعبرة من الحوادث التي تجلت في الخاتمة وضرورة الحرص على وحدة الأمة وبعدها عن الفرقة والاختلاف، قائلاً في آخر الخاتمة[3]: "إن الأمم من حولنا كالجياع على القصاع، كما أخبر بذلك الرسول الأعظم ﷺ، فلن يجدينا من موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق... فلنقابلها صفاً واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله، فلنعد أمة واحدة كما أراد الله لنا، ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وتفرقة، إنا محاطون بالأعداء داخلاً وخارجاً، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا، فلا نعينهم على أنفسنا، ولا نضعن في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة ــ وهذا ينطبق على أزمتنا الحاضرة ــ ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا، لم يجعل للفرقة إلينا سبيلاً، ولا جعل بأسنا بيننا، وليت هذه

---

(1) جزء خاص بترجمة السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق من سير النبلاء للذهبي، تحقيق المرحوم الأستاذ سعيد الأفغاني: ص (21، 88، 98).

(2) الأعلام للزركلي 5/107.

(3) عائشة والسياسة: ص (351 ــ 352).

السابقة التي هوَّنت على المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً لم تكن قط.

ثم ليتنا بعد ذلك كله نعتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وصغيره، فنجنب أنفسنا وبلادنا وذرارينا شروره".

إنني مع الأفغاني في كل ما كتب في هذا الكتاب، ولاسيما ما وجّه إليه هذه الأمة منذ أكثر من نصف قرن، حيث طبع الكتاب أولاً عام 1365هـ/ 1946م من ضرورة اليقظة والوعي والالتفاف على الفتنة، والقضاء عليها في مهدها، وترك استفحال أمرها حتى لا تقضي على الأخضر واليابس، وتُعقب الندم والويلات، وذلك بالتخلي عن حظوظ النفس والأهواء، والتنازل عن المطامع والغايات، والحرص على بناء صرح الأمة ومستقبلها.

وأختار نموذجاً من هذا الكتاب لتبيان منهج الأفغاني فيه وهو ما يتعلق بوقعة الجمل في الأبواب الثلاثة: الثاني والثالث والرابع، وإبراز الخصائص التي تميز بها الكتاب، من ص (75 ــ 340).

ففي الباب الثاني أبان الأفغاني مواقف السيدة عائشة في عهد علي حتى يوم الجمل، يتبين منها وجود رواسب في هذه العلاقة:

1 ــ تتمثل في محاولة علي وفاطمة رضي الله عنهما حمل الرسول ﷺ على التخفيف من حبه لعائشة، وهو مما يرضي بقية أزواج النبي في اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة، لما خصها به النبي من محبة ومنزلة خاصة. وتقابل عائشة هذا الموقف فتظهر عجبها الشديد من مباسطة النبي لأولاد فاطمة وشغفه وفرحه بهم، وكثير رعايته لهم وحدبه عليهم ومداعبتهم، فتغار من الحسن والحسين ومن أبويهما علي وفاطمة، وهذا وإن كان مبعثه الفطرة، فله آثاره البعيدة في الخصومة بين عائشة وعلي.

2 ــ وأشد من هذا الموقف الذي لا يقبل الاعتذار له هو: موقف علي من عائشة في حادث الإفك، حيث وقف منها موقفاً في غاية القسوة، وانضم ــ من غير قصد سيِّئ ــ إلى عصبة المنافقين والموتورين من اليهود في المدينة الذين امتلأت قلوبهم بالغيظ على انتصار الإسلام ودخول المدينة المنورة في حكمه، فصبر النبي على أذيتهم صبراً بالغاً وبحكمة واسعة، مع تيقنه بطهارة عائشة وبراءتها وخبث نوايا المرجفين.

قال الأفغاني مدافعاً عن علي ﷺ: ومع أني لست أشك في أن علياً صدر في هذا الرأي عن غيرة بالغة على النبي وبيته، مع ذلك أقرر أن المأمول من عليٍّ غير هذا، وهو المعروف بسموه عن كل هوى، وهو القاهر لنفسه، الضابط لنزواتها وتمويهها، ولكن الله الذي استأثر بالكمال، سلَّط الضعف على خلقه من حيث لا يشعرون[1].

3 ــ ولما بويع أبوها أبو بكر الصديق، تلكأ علي في داره وامتنع هو وبنو هاشم، حتى إذا

[1] "عائشة والسياسة" ص (79).

انقضت على البيعة ستة أشهر، وماتت السيدة فاطمة زوجه، أقبل يبايع[1].

بيعة علي ﷺ:

حزنت السيدة عائشة حزناً صادقاً على قتل عثمان، وكانت قد تركت المدينة المنورة إلى مكة لأداء العمرة أثناء محاصرة عثمان، وبويع علي لخمس بقين من ذي الحجة عام (35 هـ)، ولما قضت عمرتها، اتجهت إلى المدينة، فأخبرت بقتل عثمان فقالت: "ردوني ردوني، قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه" ورجعت إلى مكة، حتى نزلت على باب المسجد، وقصدت حجْر اسماعيل، فسترت فيه، واجتمع الناس إليها، فخطبتهم خطبة اعتبرت إعلاناً واضحاً للثورة على خلافة علي، وعدم الاعتداد ببيعته.

وطمحت نفس طلحة بن عبيد الله للخلافة، فتلكأ عن بيعة علي، ثم جاء نفر من أهل البصرة بقيادة الأشتر النخعي إليه ليبايع علياً، فبايع مكرهاً، ومثله الزبير بن العوام، واختفى الأمويون وهربوا إلى مكة استعداداً لإحباط أمر علي أو للحاق بمعاوية في الشام، ومعهم الرجال والأموال، إذ كان أغلبهم ولاة لعثمان، وانضمت عائشة إلى معسكر المعارضين، وخرجت بجماهير الثائرين من الحجاز إلى العراق على الرغم من تحذير المحذرين ونصح أمهات المؤمنين ألا يشاركن في هذا، وبادر علي إلى عزل عمال عثمان والاستبدال بهم، وكان رأي ابن عمه عبد الله بن عباس والمغيرة وغيرهما إقرارهم حتى تستقر الحال، وتأتي بيعة الأمصار كافة، وأرسل علي ﷺ عماله إلى الأمصار في الشام واليمن والبصرة والكوفة، وكان سهل بن حنيف البديل عن معاوية، فردته خيل الشام، فأرسل علي رسولاً إلى معاوية ليبايع، فلم يرد وماطل حتى شهر صفر، ثم أعلن عدم مبايعته، وصار خلافه مع علي معلناً، فعزم علي على غزو الشام، وطلب طلحة والزبير الإذن من علي ﷺ ليما لأداء العمرة في مكة، فقال لهما: "نعم، والله ما العمرة تريدان، امضيا إلى شأنكما".[2]

عائشة في طريقها إلى البصرة:

وبدأ الأمويون يعلنون ثورتهم في مظلة عائشة لتحقيق أهدافهم، ولكنهم عجزوا عن الذهاب إلى المدينة للثأر من قتلة عثمان الذين بايعوا علياً، ثم أقنعوا عائشة بالذهاب إلى البصرة، فشخصت مع طلحة إلى البصرة للطلب بثأر عثمان.

نصحتها أم سلمة أم المؤمنين الميّالة إلى علي ﷺ بعدم الخروج إلى البصرة، وكانت النصيحة مخلصة في محلها، ولكن عائشة لم تستجب لهذه النصيحة، وخرجت بعد خروج طلحة والزبير من مكة إلى البصرة، وتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق (ميقات العراقيين للإحرام بين نجد وتهامة) وكن باكيات على الإسلام أوله من ذلك اليوم، فسمي "يوم النحيب"، ثم رجعن إلى مكة وكانت

---

(1) المرجع السابق: ص (80).
(2) المرجع السابق: ص (83 ـ 93).

الجمـوع المسـتجيبة لأمر عائشة وطلحة والزبير في نحو ثلاثة آلاف، ومعهم أكثر الأمويين، وفي الطـريق أذَّن مـروان بن الحكم للصلاة، وجعل الإمامة في الصلاة متعاقبة بين طلحة والزبير، فلم ترض عائشة بذلك، وجعلت أمر الإمامة لابن أختها عبد الله بن الزبير[1].

وحُملت عائشة في هودج على جمل شديد قوي اسمه ((عسكر)) فسميت هذه الفتنة بيوم الجمل، نسـبة إلـيه، فمـروا فـي الطريق على الحوءب[2]، فلما عرفته، صرخت بأعلى صوتها، وأناخت بعـيرها، وقالت: "أنا والله صاحبة كلاب الحوءب طروقاً، ردوني، ردوني، ردوني" وكان النبي ﷺ حذر عائشة من ذلك.

لكن الأستاذ الأفغاني شكك في هذا الخبر، لتهافت ظاهر فيه يستبعد معه التصديق، ورواية ابن أبـي الحديد والمسعودي له رواية من حاقدَيْن متعصبين صاحبَيْ هوى ضد عائشة. والحديث مذكور فـي كتـب أخـرى كالاستيعاب لابن عبد البر وسير النبلاء للذهبي، ومسند الإمام أ حمد ولفظه في مخاطـبة أمهـات المؤمنيـن: "كـيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوءب" أو "أيتكن صاحبة الجمل الأدبـب[3] يقتل حولها قتلى كثيرون، وتنجو بعد ما كادت". قال الأفغاني: "في النفس من صحة هذا الحديـث شيء، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح". ولو كان هذا الخبر صحيحاً لرجعت عائشة من فورهـا، فليست بالتي تلقي بنفسها في التهلكة على بصيرة، وسند الذهبي في هذا الحديث ينتهي ـــ فـي إحـدى رواياته ـــ إلى ابن عباس، وابن عباس ـــ أي إن صح النقل عنه، على عدالته ـــ ممن خبَّ وأوضع في الحزبية السياسية، فهو أكبر أنصار علي وألد خصوم عائشة في خلافها عليه[4].

وهذا نقد علمي للمتن والسند بحسب قواعد التحديث، يدل على عقلية نيرة عند الأفغاني.

لحاق علي بأصحاب الجمل:

عـدل الإمـام علي عن غزو الشام، حينما هاج أهل مكة للمطالبة بثأر عثمان بتحريض عائشة وطلحـة والزبـير، واتجه لملاقاة أصحاب الجمل القادمين إلى البصرة، قائلاً بمقالة عثمان: "لا أخلع لباساً ألبسنيه الله ﷻ" وعقب عليه الشيخ عبد الوهاب النجار بقوله[5]: "وهو اعتذار لا يقبله من يريد لـه وللمسلمين السلامة، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار، بأنه لا مناص لهم من التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التي يحتلون بلادها، ويهيمنون عليها، وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهليها" نقد ردَّ المرحوم الأفغاني على هذا قائلاً: ليس حكم هذا بسديد من وجوه وهي بإيجاز:

---

[1] المرجع السابق: ص (83 ـــ 93).
[2] ماء للعرب في طريق الذاهب من المدينة إلى البصرة.
[3] وهو الأدبّ كالأزبّ وهو الكثير وَبَر الوجه.
[4] المرجع نفسه: ص (106 ـــ 110).
[5] المرجع نفسه: ص (116) نقلاً عن "تاريخ الإسلام: الخلفاء الراشدون" للشيخ عبد الوهاب النجار: ص (414).

أولهـا ــ أن هــناك فارقاً كبيراً بين موقف علي وموقف عثمان، فعثمان عظمت منه الشكوى، فلو اعتزل استقامت الأمور، أما علي فلم يحتجّ عليه أحد بخطيئة أو ميل حكم أو جور أو أثَـرة، حــتى الذيــن كــرهوا بيعته، استتروا بالمطالبة بدم عثمان، أي أعلنوا: أن خصومهم قتلة عثمان، لا علي، فلو اعتزل علي لكان الشر أعم.

ثانيها ــ لو طالبنا كل إمام أن يعتزل الحكم كلما كره إمامته كاره، ما انقضت ساعة إلا نصب فيها حاكم جديد.

ثالــثها ــ تشبيه حجة الإمام علي هنا بدعوى دول الاستعمار أبعد عن الحق وأنأى عن الواقع، فهــذه الــدول مــبطلة تدعي باطلاً لتبرر ظلماً، والإمام علي صاحب حق حتى يقوم بالواجــب علــيه، فهــو يحتج ببيعة واقعة وأمر لزمه، يقتضيه النهوض والحماية ليعم الأمن والعدل، وشتان مابين الحالتين!!..

وحتى عزله عمال عثمان كان على حق في عزلهم لما عرف عنهم من أخطاء، ولا يجوز له ــ فــي دينه وأمانته ــ إبقاؤهم ولو ساعة إلا من قبيل ارتكاب أخف الضررين، وهذا هو الذي لم يأخذ به علي، فمؤاخذته سياسية لا قضائية وجدانية[1].

مساعي الصلح بين الفريقين:

حدثــت مراســلات وسفارات وحوارات وكتب بين معسكر عائشة زعيمة الجموع المعارضة الثائرة قريباً من البصرة، وبين أهل البصرة التي كان عثمان بن حنيف أميرها لعلي، ولكنها لم تسفر عــن شــيء عملــي، وحــدث اقتــتال شديد بين أصحاب الجمل وأهل البصرة، ثم أبرم صلح بين الفريقين[2]، وما أجدر ما قال جارية بن قدامة السعدي من البصرة الذي أقبل على السيدة عائشة كما ذكر الطبري:

"يا أم المؤمنين، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضــة للســلاح، إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة، فهتكتِ ستراً، وأبحتِ حرمتك، إنه من رأى قــتالك فإنه يرى قتلك، إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس".

وانقضت المناوشة بالمِربَد[3] وهي المسماة بيوم الجمل الأصغر[4].

ثم حدث اقتتال مع أهل البصرة، ودخل أصحاب الجمل البصرة، وصارت السيادة والسلطة لهم فــي كل شيء، وأقام طلحة والزبير، وبايعهما أهل البصرة، واستخفهما هذا الظفر في تعجل النتائج،

---

(1) المرجع نفسه : ص (116 ــ 117).

(2) المرجع نفسه: ص (120 ــ 136).

(3) مربد البصرة: من أشهر محالها، وكان به سوق للإبل قديماً، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس.

(4) شرح نهج البلاغة 2/ 501 وهذا كان مع عثمان بن حنيف، ويوم الجمل الأكبر يومهم مع الإمام علي.

ومقاتلة علي وصحبه، وذلك في خمس ليال من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين (36). وظل القوم في نشــوة مــن استيلائهم على البصرة وإخراجهم منها أميرها (عثمان بن حنيف) مدحوراً، وقتلهم قتلة عثمان[1].

يوم الجمل الأكبر:

علي في طريقه إلى الكوفة وسفاراته:

خــرج الإمــام علي من المدينة لمعارضة أصحاب الجمل في الطريق، وأقام في الرَّبذة، وأتته وفــود القبائل من طيء وبكر بن وائل وأسد، تعلن له الطاعة والخروج معه، فشكرهم وأثنى عليهم خــيراً، ثــم عــبَّأ علي الجيش، وخرج من الرَّبذَة في سبعمائة وستين، واتجه إلى ذي قار يحكم فيها أمــره، ويحــاول أن يصــل إلــى توحــيد الكلمــة عــن طريق الإقناع والنصح، بالكتب والرسل والسفارات[2].

أرســل رســولين إلــى أهــل الكوفة، يستنفرهم لنصرته، فلم يجيبوا بشيء، بقيادة أبي موسى الأشــعري الــذي كان مذهبه مذهب طلحة والزبير في البعد عن المنطق، فكرر علي إرسال رسول ورسالة إلى أبي موسى، فأصر على موقفه الأول، ثم حاول معه عبد الله بن عباس والأشتر النخعي، فلــم يغير موقفه، ثم أرسل علي سفارة رابعة من ابنه الحسن وعمار بن ياسر، وعزل أبا موسى عن ولايــة الكوفــة، فألان موقفه قليلاً، ونجحت هذه السفارة، واستجابت لها الجماهير والرؤوس ومنها قبيلة طيء بقيادة عدي بن حاتم، وأجابوا علياً أمير المؤمنين[3].

سفارات علي إلى أصحاب الجمل:

وافــى جموع أهل الكوفة علياً ﷺ بذي قار، فرحب بهم وأثنى عليهم وخطب فيهم، معلناً نفرته مــن القتال، ورغبته في الإصلاح والعافية، وأرسل إلى أهل البصرة القعقاع بن عمر أحد الصحابة ســفيراً بيــنه وبيــنهم، فقابل السيدة عائشة، مظهراً رغبة علي في الإصلاح بين الناس، ونجح في النصح المخلص والتهديد برفق، وأقبلت وفود أهل البصرة من تميم وبكر نحو علي بذي قار، لمعرفة رأي إخوانهم أهل الكوفة، وتبادل الفريقان وجهات النظر، وسار علي حتى نزل إلى جانب البصرة، وقــد خــندق طلحــة والزبير، ورجع القعقاع إلى علي بجواب عائشة وطلحة والزبير، فسرّي عنه وأيقن بالعافية وجمع الكلمة، وارتحل بمجموعه التي بلغت عشرين ألفاً نحو البصرة، حتى نزل علي ((الــزاوية)) ونزل طلحة والزبير في ((الزابوقة)) وتأمل الكل باجتماع الكلمة، ورغب الطرفان في الصــلح، وســار علــي من الزاوية يريد طلحة والزبير وعائشة، وتراءى الجمعان في النصف من

---

[1] عائشة والسياسة: ص(137 ــ 150).
[2] المرجع نفسه: ص (151 ــ 155).
[3] المرجع نفسه: ص (151 ــ 165).

جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقال علي لطلحة: "يا طلحة تطلب بدم عثمان!! فلعن الله قتلة عثمان" وقال للزبير مذكراً له بقول النبي ﷺ في موقفه من علي: {ولتقاتلنه وأنت له ظالم} فقال الزبير: "اللهم نعم".

قرّب هذا الاجتماع بين الفريقين، وتبادلا الرسل، عبد الله بن عباس رسول علي، ومحمد بن طلحة رسول طلحة والزبير، وأشرف الفريقان على الصلح والاجتماع، مما سرَّ الناس ما عدا فريق السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة في دمه، وجمع ابن السوداء: عبد الله بن سبأ وخالد بن ملجم نفراً من الفريقين، فحرَّضهما على بعضهما، وكأنه شيطان، بصير بطرق الفتنة وبث العقارب، مع أنه هو الذي ألّب الأمصار على عثمان، وأريقت دماء المهاجرين والأنصار من الصحابة الكرام بكيده ومكره بالإسلام وأهله، قال الأفغاني:

وما يزال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن في شرور، آخذ بعضها برقاب بعض، يزجيها إليهم أبناء السوداوات[1] في مختلف الأمصار والأعصار، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إليهم إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[2].

الدسيسة والمعركة الكبرى:

حرض ابن السوداء: عبد الله بن سبأ الفريقين على الاقتتال، واحتكم أهل البصرة وأهل الكوفة إلى السلاح، وتمكن أهل البصرة من صد المعتدين حتى ردّوهم إلى عسكرهم، والسبئية تهيج الناس، وتدفع إلى القتال وأضرموا النار في الطريقين، فألجأتهم المعركة إلى الخندق، وعلي ينادي: "أيها الناس كفوا، فلا شيء". وطاف على أصحابه بيده مصحف، قائلاً: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف ومافيه، فأخذه فتى من أهل الكوفة، بعد تأكيده على ذلك ثلاث مرات، فحمله الفتى ودعاهم، فحملوا عليه، فقطعوا يديه ثم قتلوه، فقال علي: "الآن حل قتالهم، وطاب لكم الضراب".

انهزم أصحاب الجمل بعد مقتل الفتى، وحملة أصحاب علي عليهم صدر النهار، واقتتل الناس ـ وقد غاب طلحة والزبير ـ وأقبلوا إلى البصرة، فلما رأوا ((الجمل)) وأطافت به مضر، عادوا للقتال، وأرادت عائشة وقد أصبحت في قلب المعركة القيام بمحاولة جديدة لوقف القتال، فأمرت قائد جملها كعب بن سور بالتخلي عن البعير، والدعوة إلى إعمال كتاب الله ﷻ بينهم، ودفعت إليه مصحفاً، وأقبل القوم، فاستقبلهم كعب بالمصحف بين الصفين، يناشدهم الله في دمائهم.

لكن كانت السبئية أمام القوم يجتهدون في إنشاب القتال، ويتولون إضرامه كلما فتر خوفاً من أن يجري الصلح، ثم قتلوا كعباً، ورموا عائشة في هودجها.

كاد القتال ينتهي صدر النهار إثر غياب طلحة والزبير، لولا أن عائشة شهدت وسطه وآخره،

[1] تعبير يشمل أصحاب الفتنة في كل عصر في المجتمع الإسلامي، كالطابور الخامس، تسمية لهم باسم رأس الفتنة عبد الله بن سبأ، ابن السوداء.

[2] المرجع نفسه: ص (166 ـ 186).

واستمر القتل، وثبت البصريون بما كانت تحضهم وتخطبهم، واستمات الناس في القتال.

فانتزع علي الراية من يد ابنه محمد بن الحنفية صاحب راية علي، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً، وما زال القتلى يسقطون.

ثـم حمـي القتال وزاد شدة، وجعلت عائشة تشجع الناس، وتثني على حميتهم، فاقتتلوا أشد من قتالهم السابق.

وانـتدب علـي للجمل من يعقره، وهو هند بن عمرو المرادي، فقتله حارس الجمل عمرو بن يثربـي قاضي البصرة قبل كعب بن سور، ثم قتل ثلاثة آخرين، ثم طعنه عمار بن ياسر وهو يومئذ ابن تسعين سنة، فحمل إلى علي، فأمر بالإجهاز عليه.

وكان ابن يثربي قد انتدب رجلاً من بني عدي لإمساك زمام الجمل، فلما قتل ابن يثربي، طلب العدوي المبارزة، فخرج إليه ربيعة العقلي من أصحاب علي، ثم اضطرب الرجلان، وقتل كل واحد منهما صاحبه، فقام مقام ابن يثربي رجل من بني ضبة، ما رئي أشد منه قط.

حمـي بـنو ضبة حول الجمل واستماتوا، وأتوا بضروب من البلاء عجيبة، وتتابع الناس على خطـام الجمـل وهم يُقتلون، وكان آخرهم محمد بن طلحة الذي اجتمع عليه نفر من أصحاب علي، فـأنفذه أحدهـم بالـرمح. ثم تقدم من الزمام عبد الله بن الزبير، فوجد فيه سبع وثلاثون جراحة بين ضربة وطعنة من شدة ما لاقى من الهول، ثم تعارك مع الأشتر النخعي، واعتنق كلّ واحد صاحبه، وخرّا إلى الأرض، فصرخ عبد الله بأصحابه: "اقتلوني ومالكاً" ومالك: اسم الأشتر، ليخلو جيش علي منه، لما له من البلاء العظيم.

عقر الجمل وانتهاء المعركة:

اخـتلط العسكران، وحمي الوطيس، وتضرم القتال، ولاذ الجميع بالصبر حفاظاً وأنفة، ولم يعد للـرماح مجـال، فـنادى علي: "السيوف يا أبناء المهاجرين"، وكان علي يحمل الحملات الصادقة، فتصدع لحملاته الصفوف، ويضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يرجع فيقول: "لا تلوموني ولوموا هذا" ثم يقوّمه أو يأخذ غيره ويعود.

واسـتمات الـناس أمام الجمل حتى كثرت القتلى حوله، لقد كانت نصرة بني الأزد وبني ضبة لعائشـة بالغة المدى قوة وشدة واستماتة، على قدر ما يكنّون لها من إجلال وتوقير ومحبة واحترام، وقتل حوله سبعون من قريش خاصة.

وعلـم علي ﷺ والناس أن القتل يستمر، ورأى أن الواجب إنقاذ الأرواح الباقية، فنادى "اعقروا الجمل"، وكان آخر من قاتل ذلك اليوم أمام الجمل زفر بن الحارث، زحف إليه القعقاع، وقال لبجير بن دلجة الضبي، وكان من بني ضبة في عسكر علي، وأخوه في عسكر عائشة: "يا بجير بن دلجة، صح بقومك فليعقروا الجمل، قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين" فنادى هذا قومه وأخاه من عسكر عائشـة قائلاً: "يا آل ضبة، يا عمرو بن دلجة، ادع بي إليك" فدعا به، فقال: "أنا آمن حتى أرجع؟"

قال: "نعم" فمشى إلى البعير فاجتث ساقه، فرمى بنفسه على شقه.

وقال القعقاع لمن يليه: "أنتم آمنون" واجتمع هو وزفر بن الحارث على قطع بطان البعير، وإنزال الهودج عن ظهره، ونادى منادي علي: "أنتم آمنون" فكف بعض الناس عن بعض.

وأمر علي محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر، فقطعا غَرْضة (حزام) الرحل، ونحيا الهودج في نفر من أصحابهما، فأدخل محمد بن أبي بكر يده فيه، وأنزل أخته عائشة منه.

كانت الموقعة من أول النهار حتى العصر، إذ تمت الهزيمة على أصحاب الجمل، وذلك يوم الخميس (أو الجمعة) في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة، وقتل طلحة والزبير في هذه الموقعة، ويكون عدة من قتل في المعركة الأولى (يوم الجمل الأصغر) وفي المعركة الثانية (يوم الجمل الأكبر) خمسة عشر ألفاً على أقل تقدير[1].

وآن لي أن أقول: إن الإمام علي محق، وإن أصحاب الجمل لمخلصون صادقون، وإنها لفتنة عمياء حرّض عليها الأمويون، وتابع تنفيذ المؤامرة السبئيون اليهود، الذين ولغوا في دم عثمان، وأنّى لأهل الإخلاص والصفاء ولرهينة الهودج أن يدركوا كيد المخططين وخبث المتآمرين، وحقد المعادين؟! وكان الأولى بعائشة ــ لولا إرادة الله ــ أن تلزم المدينة مع بقية أمهات المؤمنين، فإن السياسة، وطوفان الفتنة، والتآمر على الجماهير صنعة وخبث وخسة وفسق، لا تكاد أي امرأة مهما عظمت أن تدرك أفانين المؤامرة أو تستوعب سيل الفتنة الجارف، أو تلم بمخططات المتآمرين.

قال الأفغاني رحمه الله:

رحم الله أم المؤمنين، فقد كانت المرأة الفذّة في التاريخ: تزعمت (معارضة سياسية عنيفة) وزحزحت خليفة، وحاولت نصب خليفة، وزعزعت أركان خليفة، وقادت جموعاً، وخاضت حرباً، ثم أرادت تجنب القتال، فخرج الأمر من يدها إلى أيدي غوغائها، شأنها في ذلك شأن علي... وكان ماكان مما ترتعد له فرائض كل مسلم، كلما ذكر فتنة الجمل وما استتبعت من ويلات.

عبرة الحوادث:

أورد الأستاذ المرحوم سعيد الأفغاني عبرتين اثنتين من تجربة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين[2]:

الأول: أن المرأة لم تخلق قط لتدسّ أنفها في المنازعات السياسية، إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن، إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير، وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم، وهذا السلاح غير حميد في العواقب، ولا يصح استعماله بحال. ولولا

[1] المرجع نفسه: ص (187 ــ 224).
[2] المرجع نفسه: ص (341 ــ 352).

موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد، لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركاً، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية.

الثانية: لقد كان أمر المسلمين عجباً من العجب: امتلأت نفوسهم بكل ما حباهم ربهم من خير في الإسلام، فأحسنوا فهمه، وأحسنوا العمل به، وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساءً ورجالاً، فوطدوا أركانه في الجزيرة العربية، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه، واندفع هؤلاء الصحابة الأخيار يريدون إعلاء كلمة الله والحق، وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان، من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان، فحرَّر الله على أيديهم أقطاراً وشعوباً كثيرة.

أرأيت ما يفعل الخلاف في الدولة القوية المتماسكة المتينة الأساس، إنه يُطمع فيها حتى الضعيف المغلوب المشرف على الدمار.

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل وصفين اجتمعت على الخير، فسارت إلى عدوها في الشرق والغرب، لأكلت الدنيا بقوتها، ولأحالت العالم جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان. لكن الله الذي أيد هذه الأمة أول أمرها، قضى أن يكون بأسها بينها، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذي جرى فيه أولاً لخير الإنسانية عامة.

انقضت الخلافة والخلاف بخيرهما وشرهما، ولم يبق منهما إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبر، فلنتعظ به، ولنتجنب أية تفرقة بيننا بكل ما نستطيع، ولتكن الدماء الذاهبة ضياعاً حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة، فلا نعيد جذعة.

□

أهم المراجع

1- الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1378هـ/1959م.

2- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، 1961م.

3- التاريخ السياسي للدولة العربية - عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، الدكتور عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة، عام 1956م.

4- جزء خاص بترجمة السيدة عائشة من سير النبلاء، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية، 1390هـ/1970م.

5- سير أعلام النبلاء للحافظ شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الرابعة، 1406هـ/1986م، مؤسسة الرسالة بدمشق.

6- عائشة والسياسة، الطبعة الثانية، دار الفكر بدمشق 1391هـ/ 1971م.

□□□

الأستاذ سعيد الأفغاني*

يوسف الصيداوي

ما امتازَ عَلَمٌ من الأعلام، ثم لاقى وجه ربه، إلَّا نهض ـ غالباً ـ عارفو فضله فأبَنوه في حفل، أو كتبوا عنه في مجلة أو صحيفة، يريدون بذلك نشر فضائله، وتوفيته بعض حقه على أمته، أن عَمِلَ فعُرِفَ له فضله. فإن كان موسيقياً عُزِفَ شيء من ألحانه، أو تشكيلياً عُرِضَ شيء من لوحاته، أو شاعراً ألقي شيء من شعره، أو ألقى بعض الشعراء قصائد تمجّده.

ويبقى أن يكون الفقيد أديباً ناثراً: كاتب مسرحية أو كاتب قصة أو ناقداً أو كاتب مقالة. أو يكون من أعلام اللغة أو مؤرخاً أو متفلسفاً. وهؤلاء لا سبيل إلى إسماع الناس روائعهم كما يُسمع اللحن الموسيقي، أو وضعِها تحت أبصارهم، كما توضع اللوحة مثلاً. فإذا أُبنوا لم يكن عند من يؤبّنهم إلاّ أن يذكر متى حازوا شهاداتهم. ثم يذكر أسماء كتبهم، ثم تاريخ وفياتهم، ثم من بعد ذلك شيئاً عاماً من الأخلاق التي تحلّوا بها، كالتواضع والأمانة والاستقامة الخ...

وما سمعت يوماً خطبةً في هذه المناسبة، ولا قرأت مقالةً، زاد ما فيهما شيئاً ذا بال على هذا الذي ذكرتُه. وبتعبير آخر أقول: إنّ الذي يقال في العادة، لا يكشف عن شخصية الفقيد بل لا يدنو منها، لا بالمسّ ولا بالتقرّي. ولا يقدّر الخسارة حقّ قدرها في هذه الحال، إلاّ مَن يصحّ عنده أنّ الإنسان هو الإنسان، كان وما يزال وسيظلّ: لا بدّ من أن يغضب وأن يرضى، وأن يشتدّ به الانفعال فيبكي، أو يضحك فيستغرق في الضحك، وأن يكون بخيلاً أو كريماً، وأن يقسو أو يلين، الإنسان هو الإنسان، ومن نفى عنه ذلك فقد نفى عنه إنسانيته، ورقي به إلى مراتب الملائكة. ومن قرأ السيرة النبوية عرف ذلك وانحنى له. فصحيح أن رسول الله ﷺ كان لا يقول إلا حقّاً، ولكنه كان يمزح. وصحيح أنه كان يحلُم، ولكنّ الغضب كان يُعرف في وجهه، وصحيح أنه كان يعصب بطنه بالحجر من الجوع، ولكنه كان يستطيب فخذ الشاة، وإنه ليحار ويظل في حيرته، حتى يبيّن له الله الحقيقة، وإنه ليرتئي، ويكون الصواب في رأيِ غيره من ذوي المعرفة والتجربة. الإنسان هو الإنسان، ومن

* هذه آخر مقالة كتبها المرحوم الأستاذ الصيداوي ، وقد وافته المنية قبل إتمامها..

أبى فنفى عنه المزاح والحلم والغضب والجوع والعطش والحيرة وأكل الطعام والمشي في الأسواق، فقد خالف القرآن وأبى قول الله تعالى في وصفه له على لسانه ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾.

ولقـد يُظَنّ أنني أريد ذكر ما لا يُستحبّ ذكره من سيرة الفقيد، فأقول: "لا، ما إلى هذا قصدت". فلقـد لام الناس يوماً صديقاً للفقيد أحمد راتب النفاخ أشدّ اللوم، وأنكروا عليه أعظم الإنكار، أن وقف يؤبّـنه فذكر أن الفقيد صرّح له بأنه يهوى فلانة ويعشقها. فهذا ونحوُه لا يكشف عن شخصية الفقيد، ولو كان يكشف عنها أو عن جانب منها، لما لامه على ما قاله أحد، ولا أنكر ذلك عليه أحد. فالعشق والهوى مغروس في أفئدة جميع البشر، ومَن ذا الذي استعصى على الحبّ والهوى؟! ﴿وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ﴾.

مـن أجـل ذلـك كنـت وما أزال ــ إذا دعيت لتأبين عَلَم ــ تركت لغيري أن يقول ما يشاء، وصـرفت وجهـي إلى شخصية الفقيد فذكرت ما أعرف من صفاته الذاتية، من خلال حديث أدرته معه، أو نكتة نقلها إليّ عنه مَن أثق بصدقه، أو رأي كان يراه، الخ...

فـي عـام 1947 ــ 1948 كنت ناظراً ومحاسباً في المدرسة المحسنية. فخَصّصت لي إدارة المدرسـة غـرفة أستقلّ بها. فكان بعض الأساتذة ولاسيما مدرّسو اللغة العربية، يُريحون عندي بين الحصتَين، فيكون احتساء القهوة والتدخين وتداول الأحاديث.

مـنذ تلك الأيام عرفت أن في الجامعة أستاذاً من أساتذة اللغة العربية اسمه سعيد الأفغاني. فإذا ذكره ضيوفي، صحب اسمَه صفتان: علمه ومهابته.

وتمرّ الأيام، وأدخل الجامعة، وما في ذهني شيء أخطر من أن أرى ذلك الأستاذ وأسمعه. فلما كـان يـومُ حصتّه الأولى، حضرت مبكّراً، ودخلت المدرّج من الخلف وجلست في الصفّ الأخير، أرى الأستاذ والطلاّب، فلا تفوتني فائتة من قولهم أو فعلهم.

وعجبـت يومها أن رأيت شواهد الدرس مكتوبة على السبورة، ثم عرفت بعدُ أن الأستاذ يكلّف أحد الطلاب أن يكتبها كسباً للوقت، ولتكون تحت أبصارهم عند الحديث عنها والبحث فيها.

كنـت حضرت الدرس الأول أحسن ما يكون التحضير. ومع ذلك كنت متهيّباً، أخاف أن أُسأل فلا أعرف الجواب، أو أجيب فأخطئ.

ويدخـل الأستاذ بعد لأي:؛ رَبْعة، إلى القصر أقرب، قد تجاوز الخمسين وداني الستين، قصير شعر الرأس، أشيبه عند الصدغين. في حلّة بنيّة، قد استغنى عن ربطة العنق. ولقد رأيته مِن بعدُ في الصيف يجتزئ بالقميص والبنطال.

ويقـف على المنصّة كأنه النسر، ويلتفت إلى اليسار فيرى في الصفّ الأول من المقاعد ثلاث فتيات وزميلاً لهنّ، فيأمر الفتى أن يرجع إلى المقاعد الخلفية فيجلسَ مع الذكور، ويرجع الطالب إلى الوراء معجلاً يكاد يتعثّر. ويظلّ الأستاذ صامتاً يتابعه بنظره، إلى أن يراه استقرّ في مجلسه الجديد. وأما الفتيات فيقول لإحداهنّ وقد لبست ثوباً بلا كمّين: أليس مع والدك ثمن متر من القماش فتخيطي

لـثوبك كمّين؟! بعد هذا يبدأ الدرس، وقد سُنّت فيه سُنتان: ينقلهما من بعدُ لاحقٌ عن سابق: انفصال الذكور عن الإناث، ولبس الفتيات أثواباً بأكمام.

يشـرح خطّة الدراسة خلال السنة ويبيّن منهاجها. ثم يوجز الكلام على أسماء الأفعال ــ وهي البحث الأول من برنامج السنة الأولى ــ فإذا تمّ له ذلك شرع يحلّل شواهدها: يبدأ بما يُحتجّ به فيبيّن مواضع الاحتجاج، ثم ينتقل إلى ما لا يُحتجّ به، فيبيّن أسباب عدم الاحتجاج. وينتهي الدرس، فيغادر المـدرج أول المغادرين، يخرج كما دخل: كأنه الرمح استقامةً وانتصاباً، لا يلتفت يميناً ولا يساراً، وجهه مرتفع، وصدره متقدّم شيئاً، كأنه يقول للسخف والتفاهة: "لا".

ويـتحلّق الطـلاّب في الممرّ حلقات، يتداولون ما رأوا وما سمعوا من الأستاذ، ويعلّقون على ذلـك!! أما الطالبات فمتأففات جميعاً من أستاذ لا يعرف وجهه الابتسام ولا اللين، وأما الطلاّب فقليل راض لا يُعلن رضاه، وكثير ساخط يصرّح بسخطه. على أنّ الذكور والإناث جميعاً، قد أنكروا على الأستاذ أن يأمر الطالب بمغادرة مكانه ليجلس مع الذكور بعيداً عن الفتيات.

هكذا كانت دروسه تمضي رحمه الله: جِدّاً لا هزل معه، وإحكاماً لا يمازجه تضييع. على أنني أجانـب الحقيقة إن اجتزأت من وصف دروسه بما قدّمت آنفاً. ولا أراني أستكملها إلاّ بالتعريج على ومضات من سيرته في أثناء تلك الدروس:

كـان إذا ألقى نكتة على الطلاّب، فضجّوا بالضحك دفعةً واحدة، ظلّ ساكن التقاطيع كأنه يقرأ علـيهم شاهداً نحوياً حتى ينتهي ضحكهم!! فإذا كان من يلقي النكتة طالباً ــ ولابدّ في هذه الحال من أن يتلـبّس لـبوس الجـدّ ــ علّق الأستاذ على ذلك كأنه يعلّق على رأي لسيبويه أو المبرّد... ولقد أنعمت النظر في نكته وملحه، فرأيتها تقام على تعظيم صغير أو تصغير عظيم.

يقـف يومـاً عند قول الشاعر: "بين مُدَعَّس ومُكَرْدَس" فيذكر أن الدّعس هو شدّة الوطء، وهو الطعن بالرمح أيضاً، والمكردَس مَن صُرع وأُوثِق. فيقول أحد الطلاب:

إذاً قول العامّة: "أبو دعّاس" فصيح، فيقول الأستاذ: نعم. فيقول الطالب: لماذا إذاً ينفر الناس من هـذه الكنـية الـيوم، وكـانوا من قبل يكنون بها؟ فيقول الأستاذ: كانوا يكنون بها يوم كان الرجال يدعسون!! وأما اليوم فمن أين؟!!

وقد يتغافل فيأخذ زمام المبادرة ــ كما يقال ــ فيقف الطالب مكتوفاً لا يستطيع تقدماً ولا تأخراً. يقـف يومـاً يقـرر بحث "رُبّ وما تدخل عليه"، فيقول: "لا تدخل ربَّ إلا على نكرة...". ثم يعالج دخولها على "مَن" في قول سويد اليشكري:

ربَّ مَــن أنضـجت غـيظاً قلــبه قــد تمـنّى لــي موتــاً لــم يُطَـعْ

فـيقول له طالـب!! "لكنْ أنا..." فلا يُمهله الأستاذ حتى يُتمّ عبارته، بل يقطعها عليه فيقول له: "لكنْ أنت لا يُستشهد بكلامك"!! ويمضي يتابع تقرير الدرس.

وكان له بأسماء الطلاّب عناية.

يلقي يوماً على الطلاّب سؤالاً، فلا يجد عندهم جواباً، ويظلّون صامتين لا يجيبون، ما عدا طالباً يرفع إصبعه مستأذناً. ويأذن له الأستاذ فيحسن الجواب. فيسأله ما اسمك؟ فيجيب الطالب: "........ بلبل". وتمضي الأيام، فيجيب الطالب نفسه فيخطئ. فيقول له الأستاذ: يبدو أنك فقدت صوتك!!

في أواخر الخمسينيات، تنتسب إلى كلية الآداب طالبة من مدينة حمص، اسمها: "ميجيت: muguette وهو بالفرنسية اسمٌ صنفٍ من الزهور". فإذا ذكر الأستاذ اسمَها لسبب من الأسباب جعله عربياً: "آنسة مكيَّة!!" اقرئي، "آنسة مكيَّة!!" أحسنت، "آنسة مكيَّة!! لا تقولي كذا وكذا" الخ...، فكانت صديقاتها يتندّرن فينادينها باسمها الجديد!! مزاحاً واستظرافاً.

كان ديكران بورسليان ــ أبو سمير ــ صديقاً لي. وكان عميق العروبة حتى نقي عظامه، شهماً في الرجال مخلصاً صادقاً أميناً، يندر أن تجتمع صفاته في رجل. وكانت ابنته "دعد" يوماً تلميذتي. وقد وجد في تسميته أبناءَه تعبيراً عن انتمائهم القومي "سمير ــ دعد...". وقد غرس في نفوسهم حبَّ العربية، حتى لقد انتسبت دعد من بعد إلى قسم اللغة العربية، وغدت بعد تخرّجها مدرّسة لهذه اللغة. ويبدو أن الأستاذ رضي رضاً عميقاً عن اقتران "دعد" بـ"بورسليان" فقال لها يبدي إعجابه بذلك: ما أحسنَ أبوك إليكِ بشيء، إحسانَه إليكِ بتسميتكِ "دعد".

وكان إذا أحسّ رغبة في النكتة، ورآها واقعة موقعها، لم يثنه عن إيرادها شيء:

فلقد كان أصدر كتابه البديع المتميّز "في أصول النحو"، ونقل فيه عن كتاب "القراءات واللهجات" فقال: [كان أهل الشام يقرؤون "إبراهام" بألف في مواضع دون مواضع "وهي قراءة أهل الشام قديماً" ثم تركوا القراءة بالألف وقرؤوا جميع القرآن بالياء... فرووا أنّه قيل لمالك بن أنس: إنّ أهل الشام يقرؤون "إبراهام" فقال: "أهل دمشق بأكل البطيخ أبصر منهم بالقراءة"، فقيل: "إنهم يدّعون قراءة عثمان" فقال مالك: "ها مصحف عثمان عندي" ثم دعا به فإذا فيه كما قرأ أهل دمشق... وفي سائر المصاحف "إبراهيم" مكتوب بالياء في جميع القرآن إلاّ في البقرة فإنه بغير ياء] "في أصول النحو /37 /38". وقد علّق على ذلك في الحاشية فقال: "فثبت أنّ بصر أهل دمشق بالقراءة لا يقلّ عن بصرهم بأكل البطيخ".

كان كبت الحريات وكمّ الأفواه في بعض السنوات من الخمسينيات، قد بلغ أن يُحاسَب المُواطنُ على اللفظة المهموسة، والكلمة المكتوبة، وكان من الملاحَظ أنّ المسؤولين آنذاك ــ على كثرة ما كانوا يخطبون ــ ليسوا على شيء مذكور من التثقّف، يستطيعون معه أن يقرؤوا أو يكتبوا أو يخطبوا، بلغة صحيحة. ويطلب الأستاذ يوماً من أحد الطلاّب أن يقرأ نصّاً لغوياً. فينهض واقفاً ــ لسوء حظّه ــ فيقرأ قراءةً مملوءة بالأخطاء. فيزعق به الأستاذ زعقة تصخّ الآذان: "ما هذه القراءة المخزية؟؟ أنت وزير؟! أنت رئيس مجلس وزراء؟!! اهبط".

في عام 1946 كان صديقنا الدكتور مكّي الحسني تلميذاً في الحلقة "المتوسّطة = الإعدادية". وكان الأستاذ الأفغاني آنذاك، معلّماً للغة العربية في مدرسة "التجهيز الأولى = جودة الهاشمي

اليوم". فيكلّف الطلاّب أن يستظهروا عشرين بيتاً من الشعر من قصيدة عدّة أبياتها أربعون بيتاً. وقد أتقن صديقنا العشرين بيتاً إتقاناً حسناً ـ ولكن لسوء حظّه ـ لم يطلب إليه الأستاذ إلقاءها. ثم يكلّف طلاّبه استظهار العشرين بيتاً الباقية من القصيدة. فإذا جاء موعد الدرس الثاني طلب من صديقنا أن يسمعه ما حفظ. فيبدأ بإلقاء العشرين بيتاً الثانية. فيقول له الأستاذ: بل ابدأ من البيت الأول. فيحاول فتخونه ذاكرته. فيدافع عن نفسه بأنّ القسم الأول للأسبوع الماضي والقسم الثاني لهذا الأسبوع. فيأبى الأستاذ إلاّ أن يلقي الطالب القسمين جميعاً، فيخفق. ويسأله: ما علامتي؟ فيقول له: "صفر". ويرى الطالب أنه مظلوم، فيحتج بأنه يتقن حفظ القسم الأخير أحسن الإتقان. فيقول له الأستاذ: أراك تظنّ أنّ الصفر قليل!! وهل كلّ طالب يستحقّ أن ينال الصفر؟! وهل يتاح الصفر لكل أحد كل يوم؟!! ويرجع صديقنا إلى مقعده مبتهجاً متهلّل الوجه!! يحمد الله على ما أنعم، وأنه نال ما لا يناله كل أحد!!.

ولقد يظنّ ظانٌّ أنّ الأستاذ حين قال ذلك قد كان ينكّت!! ونقول لمن يظنّ ذلك: كلاّ فقد كان يجدّ كل الجدّ، وطلاّب الجامعة يعلمون أن الأستاذ لا يقف بالعلامة عند الصفر، بل يهبط بها إلى −1، ثم −2، ثم −3، وهكذا...... فالإنصاف يقضي بأن يحاسَب الطالب على جهله، كما يُحاسَب على علمه!!

□□□

سعيد الأفغاني و مصادر أخرى

يوسف عبد الله الجوارنة*

ما امتازَ عَلَمٌ من الأعلام، ثم لاقى وجه ربه، إلّا نهض ـ غالباً ـ عارفو فضله فأبّنوه في حفل، أو كتبوا عنه في مجلة أو صحيفة، يريدون بذلك نشر فضائله، وتوفيته بعض حقه على أمته، أن عَمِل فعُرِف له فضله. فإن كان موسيقياً عَزَف شيء من ألحانه، أو تشكيلياً عُرِض شيء من لوحاته، أو شاعراً أُلقي شيء من شعره، أو ألقى بعض الشعراء قصائد تمجّده.

ظاهرة إصدار السلاسل غدت اليوم واضحة بين المثقفين وأصحاب دور النشر الكبيرة والصغيرة على السواء، وهي ظاهرة حميدة إذا ما قيست بغيرها من الظواهر ذات الطرق الملتوية التي تحرص عليها بعض دور النشر: من إعادة طباعة الكتب دون إذن مؤلفيها، أو إصدار طبعات تجارية بأسعار منافسة لكتب محقّقة تحقيقاً علمياً محكماً بوضع أسماء مستعارة، بعد حذف جهود لا يمكن وصفها من التحرّي والتدقيق، أو طبعات ملوّنة تشدّ الناظرين، أو تلاخيص مشوّهة لكتب قضى أصحابها زمناً في تأليفها وتحبيرها، إلى غير ذلك من الطرق الفاسدة المجحفة بحق الثقافة والأخلاق والأدب، الهدف منها الحصول على قدر كبير من الأرباح الفاحشة، التي غدت ترهق جيوب المثقفين الكادحين.

وإنَّ وقفة مع دور النشر العربية الكثيرة التي عرضت عناوين لا تحصى من الكتب في معرض الشارقة الدولي الأخير، تدلّك على هذه الأخلاق الممسوخة التي باتت بعض دور النشر تتخذها سلوكاً لها، ضاربة بأخلاق المهنة ومسؤولية المواطنة عرض الحائط، ممتطية بذلك مسالك يندى لها الجبين حياءً، تدعو القارئ العربي أن يفقد ثقته بها، ليخلص في النهاية إلى هُوّة عميقة بينه وبينها.

* جامعة الإمارات العربية المتحدة..

ولعلّ سلسلة (علماء ومفكرون معاصرون) التي تصدرها دار القلم بدمشق، من بين السلاسل الجادّة التي تقرّب الهوّة بين الناشر والكاتب والقارئ، اعتمدت فيها على مجموعة من أصحاب القلم الرصين، ولهم إسهامات ممتعة وجادّة على خريطة البحث والتأليف.

وقد صدر من هذه السلسلة أكثر من ثمانية عشر كتاباً، تحمل عناوين لشخصيات لها أثرها في النهضة العربية والإسلامية من النواحي الفكرية واللغوية والأدبية في نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مثل الشيخ طاهر الجزائري، والأستاذ خير الدين الزركلي، والدكتور محمود الطناحي وغيرهم ـ كان آخرها كتاب الدكتور مازن المبارك أستاذ العربية بكلية الدراسات العربية والإسلامية في دبي: (سعيد الأفغاني حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها)، في طبعته الأولى لسنة (2002م)، ويقع في (150) صفحة من الحجم الصغير، اشتمل على مقدمة وفصلين وخاتمة وملحق الوثائق ـ وفاء منه لأستاذه الذي صحبه قرابة خمسين عاماً، ترجم فيه لشخصية عزّ نظيرها وقلّ وجودها، بما امتلكت من مقوّمات الثقافة العربيّة والإسلاميّة، فكان رحمه الله نسيجَ وحده، نشأ يعشق العربيّة وهو من قوميّة أخرى (كشميري الأصل)، على عهد أسلافه السابقين الذين صهرهم الإسلام في بوتقة الدين، فطاعت لهم العربية وصارت لسانهم: "ألا إنّ العربيّة اللسان، فمن تكلّم العربيّة فهو عربي".

وإذْ يصدر كتاب عن الأفغاني رحمه الله، فإننا نكبر هذه الالتفاتة الطيبة من الأستاذ المبارك طاب ذكره، لرجل لو أراد لنفسه الدعاية والأضواء لكان له القدح المعلّى، والمؤلف هو أحد تلامذة الأفغاني رحمه الله، تتلمذ له في مدارس دمشق وجامعتها، ثمّ صار زميله بعد تعيينه في الجامعة؛ لذلك فهو من أكثر الناس قرباً له ومعرفة بشخصه، يكتب عنه ورقات عجلى مهمّة لا يريد بها "مجاملة له، ولا محاباة لحزبه، وقد كان حزباً وحده"، بل يكشف من خلالها صفحة من تاريخ هذا الرجل الذي يكاد يكون كلّه متّصلاً بالعلم والثقافة والأدب، لا يكلّ ولا يملّ، في فترة كثر فيها الخصوم وأدعياء الثقافة.

يقول المؤلّف في المقدّمة: "وأنا اليوم أكتب عن رجل أعرفه، وأكتب ممّا أعرف، لا أنقل عن كتاب فأعزو إليه أو أوثّق حديثي منه، ولكنّي أغمس قلمي في عاطفة شدّتني إليه، لما رأيته فيه من رجولة وعلم وفضل، ولما عرفته من جرأته وصراحته، وما شهدته من سلوكه واستقامته، وترفّعه عن الصغائر، وعدم مبالاته بما ينبهر به غيره...".

وليس هذا الذي ذُكر من قبيل المبالغة في المدح والإطراء، من تلميذ أحبّ فكتب في أستاذ مات وقضى، فلك أن تطلّع على تراث هذا العالم ـ وهو ضخم جداً ـ لترى نفسك في النهاية أمام ظاهرة فريدة، وعالم مَعْلَم، صَحِبَ الكتاب والقلم وانقطع لهما، في حين ولّى غيره إلى حيث الشكل والقشور.

أما الفصل الأول، فقد جاء بعنوان "لمحات من حياته"، تحدّث فيه عن جوانب أربعة: ولادته ونشأته، ورحلته العلميّة، وحياته الاجتماعيّة، وأفرد بعض صفحات لرفيق دربه وعديله الشيخ علي

الطنطاوي رحمة الله عليهما.

ويذكر المؤلف أنّ الأفغاني ولد في دمشق ونشأ بها نشأة إسلامية، مع أنّ أباه رجل يكاد لا يتقن العربية؛ فقد كان يصحبه معه إلى الجامع الأموي الذي كان مرآة دمشق وجامعتها في نشر العلم، وفيه تعلّم على الشيخين صالح التونسي وأحمد النويلاتي، ثم التحق بمدارس دمشق وتخرّج منها سنة 1928م، حيث التحق بمدرسة الآداب العليا في الجامعة السوريّة وتخرّج فيها سنة 1932م.

وقبل أن ينتقل الأفغاني رحمه الله إلى الجامعة السوريّة أستاذاً مساعداً سنة 1948م، كان قبلها عمل مدرساً للغة العربية عشرين سنة، يوم تخرّج من الثانوية العامة وعيّنه الأستاذ محمد كرد علي وزير المعارف آنذاك معلّماً للمرحلة الابتدائيّة.

وفي الجامعة كانت مرحلةٌ ثانية من حياته العلمية امتدت عشرين سنة أخرى، انتقل بعدها للعمل في جامعات عربية في لبنان وليبيا وعمّان،" وكانت آخر أعماله التدريسيّة في جامعة الملك سعود بالرياض، حيث بقي يدرّس حتى بلغ الخامسة والسبعين، فعاد إلى دمشق وخلد إلى الراحة، وكان سمعه وبصره قد كلاّ وضعفا، وظهرت عليه آثار الشيخوخة".

ولم تكن للأفغاني رحمه الله حياة اجتماعيّة زاخرة كغيره من الأساتذة والمعلّمين، فقد اقتصر فيها على جوانب ضيّقة لانشغاله بما هو أكبر من هذا، إضافة إلى صفة الجديّة التي فرضها على نفسه، والتي لم ترُق لكثيرين ممّن شغلتهم الدنيا بمتاعها وزخارفها، يدلّك على ذلك أنه عاش نصف عمره عزَباً، على طريقة العلماء القدماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزّواج — فهو رحمه الله عشق العربيّة وصارت جزءاً لا ينفصل عن كيانه وشخصه، فلم يصرف همّه لحياة ملؤها الهزل والخداع، بل هيّأ نفسه ليكون علماً من أعلام الثقافة العربية والإسلاميّة الأصيلة في العصر الحديث، فكان له ما رام وتمنّى.

وقد لخّص المؤلّف أنّ مفتاح شخصيّة الأفغاني لا يعدو خصيصتين هما: إيمانٌ صلب بالإسلام لا يتزعزع، وحبٌّ للعربيّة لا يتوارى. لذلك كانت علاقاته وصداقاته لا تخرج من عباءة هاتين الخصيصتين، فصداقة ترويحيّة اختارها من ذوي مهن متباينة، وأخرى علميّة اختارها من كبار العلماء والأدباء، كالأساتذة محمد كرد علي وخليل مردم والتنوخي، أو ممن كان يراسلهم ويراسلونه كالأساتذة بهجة الأثري والبيطار والزّركلي وعمر فروخ ومحمود تيمور ومحمد محمد حسين وغيرهم.

وكان أكثرهم صداقة لديه الشيخ علي الطنطاوي رحمهما الله؛ فذكْرُ الأفغاني منثور في ذكريات الشيخ بأجزائها الثمانية، لما كانت بينهما من مودّة صادقة وخالصة، أدت بهما أن يكونا يوماً ما صهرين للأستاذ صلاح الدين الخطيب، صهرِ شيخهما محدّث الشّام الشيخ بدر الدّين الحسني المتوفى سنة 1935م.

أما الفصل الثاني والذي كان جلّ الكتاب (81 صفحة)، فقد عقده المؤلّف للتعريف بمؤلّفات الأفغاني رحمه الله وجاء في قسمين: الأوّل الكتب المؤلّفة والمحقّقة، والثاني البحوث والمقالات

والأحاديث الإذاعيّة.

وقد عدّ المؤلّف عشرين كتاباً بين تأليف وتحقيق، عرّف بها كلّها تعريفاً غير مخلّ، مبيّناً أفكارها والباعث على تأليفها، وتاريخ طبعاتها ومكان صدورها، يقف المؤلف من خلالها على تراث الأفغاني رحمه الله وقفة عجلى تدعوه إلى القراءة والتأمّل.

وعدّ له في القسم الثاني (31) واحداً وثلاثين عملاً بين بحث ومقال وحديث إذاعي، عرّف بها كسابقاتها جميعها، مشيراً إلى مكانها في المجلات وتاريخ نشرها، مبيّناً الهدف من كلّ عمل ومغزاه. ولا يقوم بهذا العبء إلا من قرأ هذه الكتب واستوعبها، فكيف بمن كان تلميذاً وزميلاً لصاحبها، خَبَرَها وعرف طريقة مؤلّفها ومنهجه في التأليف والتحقيق.

ثمّ جاءت الخاتمة لينهي بها المؤلّف أعمال الأفغاني رحمه الله، وقد أفردها لإثبات ما نُشر في مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، من مقالات ومداخلات ووقفات مع الكتب، إضافة إلى بعض مقالات نشرت في مجلة التمدّن الإسلامي في دمشق.

وفي نهاية الكتاب ملحق لوثائق مهمّة ارتأى المؤلّف أن يدرجها في آخر الكتاب، "ردّاً على أولئك الذين كانوا يطيلون ألسنتهم بالباطل، ويفتئتون عليه (رحمه الله) زوراً وبهتاناً".

وكنت قبل صدور كتاب المؤلّف الكريم، قد نشرت مصادر دراسة الأستاذ الأفغاني رحمه الله ببحث على الشبكة العالميّة (الانترنت)، في موقع صوت العربيّة (http://www.voiceofarabic.com) للدكتور السّعودي عبد العزيز بن حميد الحميد، أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة بالرياض، عدّدت فيه مصنّفاته المؤلّفة والمحقّقة، وبحوثه ومقالاته ومداخلاته، ورحلته مع الكتب معرّفاً وناقداً ـ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

وعند تصفّحي كتاب المؤلّف وجدت بعض الآثار غابت عني وهي ـ تحديداً ـ الأحاديث الإذاعيّة وعددها ستّة، ومقالان عن حافظ وشوقي منشوران ضمن كتاب الأستاذ أحمد عبيد (ذكرى الشاعرين)، وثلاث مقالات عن التمدّن الإسلامي، والإمام الزركشي، والإمام ابن حزم ـ منشورة في مجلة التمدّن الإسلامي في دمشق.

وفي البحث المنشور آثار غابت عن المؤلف الكريم نشرت في مجلات الرسالة والثقافة والأزهر القاهرية، ومجلتي العربية والبيان الكويتيتين، ومجلة حضارة الإسلام الدمشقية، ومجلّة دعوة الحق المغربيّة، اعتذر عن غيابها بقوله: "ولا أكتم أنني لا أستطيع الجزم بأني أتيت بكلّ آثاره، وإذا كنت استقصيت الكتب المحقّقة والمؤلّفة، فإني لا أشكّ أنّه فاتني بعض ما كتب من بحوث ومقالات وما أذيع من أحاديث".

وثمّة آثار أخرى لم نستطع الوصول إليها، أذكرها لعلّ أحد المهتمين عنده فكرة عنها يمدّنا بها، لتكون آثاره رحمه الله أقرب إلى الكمال كيما تكون بين أيدي الباحثين، وهي:

1.مشاركته في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة سنة 1961م.

2.مشاركته في المهرجان الألفي لمدينة بغداد وذكرى فيلسوفها الكندي سنة 1962م.

3.المحاضرتان اللتان ألقاهما في جامعة طهران سنة 1963م، وقد تكون له محاضرات أخرى لم أقف عليها.

4. مشاركته في ملتقى ابن منظور بتونس سنة 1972م.

5.البحوث التي كتبها للموسم الثقافي الذي أقامه"المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي" في الرباط سنة 1967م.

6.ما نشر له في مجلّة رابطة العالم الإسلامي؛ إذ لم أستطع الوقوف عليها.

7.مواد أخرى لم أستطع الوقوف عليها أيضاً استوحيتها من كلمات الدكتور محمود الربداوي حين ترجم لوفاة الأفغاني في مقاله (ورحل الأستاذ سعيد الأفغاني)، [المنشور في مجلّة الفيصل السعودية، ع246/1997م)] إذ قال: "رحل وبين يديه مخطوطات أعمال أقعده المرض عن إتمامها... وكنت أشعر بالأسى عندما كان يقول لي: غداً عندما يفارقني المرض سأكمل تحقيق هذا المخطوط، أو سأنهي الفصل الأخير من هذا الكتاب، ويحدثني عن مشروعات كثيرة تنتظر الإنجاز".

أما المواد التي فاتت الدكتور المبارك في كتابه فهي:

- **كتاب تعاليق على شواهد** الموجز: (86ص)، وصدر عن دار الفكر سنة 1971م.
- **أغلاط المنجد والمنجد الأبجدي**: تقرير كتبه في شباط سنة 1968م ورفعه إلى الجامعة السورية، وطبع في دمشق بفصلة خاصّة من (12) صفحة سنة 1969م. ونشر في مجلّة حضارة الإسلام بدمشق (س10/ع8/1969 ــ 1970م).
- **لقاء مجلّة الفيصل السعودية [العدد (118)**، سنة 1986] مع الأستاذ الأفغاني رحمه الله حول النحو العربي في سبع صفحات.
- **رسالة السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله**(التي بعث بها إلى شيخه في الطّريق محمود أبي الشامات، الحنفي الدّمشقي (المتوفى سنة 1922م)، شيخ الطّريقة الشّاذليّة اليشرطيّة، وبيّن فيها سبب خلعه عن الحكم) ــ نشرها الأفغاني في مجلّة العربي الكويتيّة (ع 169) سنة 1972م، وقدّم بين يديها معالم في سيرة السّلطان، ومساومات هرتزل له والتّخطيط لخلعه، وقصّة هذه الوثيقة والهدف منها، ثمّ كلمة عن السلطان رحمه الله في ذاكرة شعبه.
- **التربية عند ابن حزم**: ضمن كتاب "من أعلام التربية العربية الإسلامية" المجلد الثاني، الصادر عن مكتب التربية العربي لدول الخليج بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، 1409هـ.

- **النبي والأطفال:** مقال نشر بمجلة المعلمين والمعلمات سنة 1935م، وأعادت نشره بإذن من كاتبه مجلّة حضارة الإسلام (س22/ع2/1981م).
- **ديــن المتنبّــي** (بمناســبة المهرجان الألفي لأبي الطيب في دمشق سنة 1936م): مجلّة الرّسالة (العددان 161، 162/سنة 1936).
- **حــول نبوة المتنبي:** رد نُشر في الرسالة (ع 170 سنة 1936م) على مقال الأستاذ محمود شاكر "نبوة المتنبي" المنشور في الرسالة (ع167 سنة 1936).
- **حــول نبوة المتنبي أيضاً:** (رد نشر في الرسالة (ع1936/174) على مقالي الأستاذ محمود شاكر "نبوة المتنبي أيضاً" المنشورين في الرسالة (العددان 172، 1936/171).
- **مــن مشاهد عكاظ المؤثرة**(بمناسبة ذكرى المولد النبوي): الرسالة (ع1937/203). والمقال من كتاب الأستاذ سعيد "أسواق العرب" الذي كان يعدّه للطبع وصدر بعده سنة 1937.
- **جهاد شهيد** (من ثمرات الهجرة): الرسالة (ع 247/ 1938).
- **الشــيخ أحمــد النويلاتــي:** مجلّة التمدّن الإسلامي (س4/ج1938/7م). وكان المؤلّف ذكر مقالاً للأفغاني رحمه الله بعنوان (الشيخ أحمد النويلاتي والخبّازون)، نشر في جريدة العَلَم بدمشق(21/ 1961/7م)، وكــان أذيــع من إذاعة دمشق بعنوان (رغيف ومصلح) في 1961/7/12م. (كتاب الدكتور مازن ص 111).
- **الجاحظ والسياسة:** مجلة الثقافة المصرية (السنة الأولى/ع1939/15).
- **تعريف بكتاب الإجابة للزركشي:** مجلة الثقافة المصرية (س1/ع19/ 1939).
- ابن حزم الإمام المحب: مجلة الثقافة المصرية (س2، ع67، 1940/70)، وهذه المقالات ملخص بحث قام به عن ابن حزم وقد نشرت طبعته الأولى المكتبة الهاشمية بدمشق سنة 1940م).
- أضرار التشجيع: الرسالة(ع1940/366).
- **معارج الأحداث:** الرسالة (ع460/ 1942).
- رسالة الطالب(مهداة إلى طلاب العرب في جميع الأقطار): الرسالة (ع465/ 1942).
- عائشة والسياسة: الرسالة(العددان 314، 315 سنة 1939).
- المرأة والسياسة: الرسالة (ع 647/ 1945).
- الصــهيوني الأول (مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين): الرسالة (العددان 651 سنة 1945، و662 سنة 1946).
- **من نكبات الحزبية في تاريخنا:** الرسالة (ع703/ 1946).
- **معاوية بين يدي عائشة:** الرسالة (ع 714/ 1947).
- حــذارِ يا سيدتي: الرسالة (ع731/ 1947). والمقالات من (عائشة والسّياسة إلى حذار يا سيّدتي)

من كتاب الأستاذ سعيد (عائشة والسياسة) الذي كان يعده للطبع، وصدرت طبعته الأولى فيما بعد سنة 1947م.

* **كنوزنا في طريق الضياع:** مجلة الأزهر (م31/ج3/1959م).
* **فـي قرطـبة العظيمة:** مجلة حضارة الإسلام (م29/ج37 ـ 40/1963م). وهو نفسه في مقدمة كتابه (نظرات في اللغة عند ابن حزم)، بعنوان: تحيّة جامعة دمشق.
* **تـاريخ مفـترى للسلطان عبد الحميد:** مجلة البيان الكويتية (ع35/1969). وذكر المؤلف أن هذا المقـال يـبدو حديـثاً إذاعـيّاً كُتـب علـى هامشه مساء (1963/9/1م). (كتاب الدكتور مازن ص 114).
* **في سبيل العربية:** مجلة دعوة الحق المغربية (س13/العددان 9، 1970/10).
* **إنصافاً لطه حسين** (دعوة لمراجعة كتابي حديث الأربعاء وفي الشعر الجاهلي): مجلّة العربية (ع 218/ 1977).
* **استدراك في مجلة الرسالة** (ع1941/422 ص 993) على ما جاء في مقال غزوة حنين المنشور في الرسالة (ع 417) حول ما نسب للرسول أنّه سئل عن الخوارج...
* **تحقـيق نشـر فـي الرسالة** (ع1941/431) يمنع نسبة الحديث الوارد في مقال غزوة حنين في الرسالة (ع417) المنسوب للرسول عن الخوارج.
* **تـبرئة القضـاء العربـي من وصمة:** رد نشر في مجلّة الرسالة (ع1942/450) على ما أورد صاحب مقال (التبعة والعقوبة في المجتمع البشري) المنشور في الرسالة (ع445) من أن العرب أقروا شهادة الحيوان أمام القضاء.
* **أولـية سـوق عكاظ:** تصحيح نشر في الرسالة (ع1942/454) لما ذكره الأستاذ علي حسن في الرسالة (ع451) مصحّحاً لما في دائرة معارف وجدي عن افتتاح سوق عكاظ.
* **اسـتدراكان لغويان نشرا في الرسالة** (ع1942/479) على تصحيحات الكرملي للجزء الثاني من الإمتاع والمؤانسة المنشورة في الرسالة (ع475).
* **تصحيح نشر في الرسالة** (ع491/ 1942) لبعض سقطات الكرملي في الرسالة (ع487).
* **الكرملي في قبضة الحق:** نشر في الرسالة (ع 492/ 1942).
* **تصـحيح: نشـر فـي الرسـالة** (ع493 /1942) لرواية الحديث الذي رواه الكرملي ونشره في الرسالة (ع 487) عن الرسول ﷺ.
* **إرشـاد: نشر في الرسالة** (ع554/ 1944) لمن طلب في الرسالة (ع549) معلومات عن الشيخ محمد الطنطاوي.
* **تعقيـب: نشـر في مجلة العربي** (ع 239/ 1978) على ما جاء في استطلاع (البحث عن مواقع

التاريخ تحت رمال الجزيرة العربية المنشور في العربي ع 234/ 1978) عن سوق عكاظ.

- **تعقيب: نشر في مجلة العربي** (ع 239/ 1978) على ما جاء في مقال الدكتور محمد الدسوقي (عندما تحدث طه حسين عن كتبه) المنشور في المجلة نفسها (ع234/ 1978) من نسبته للأفغاني أن طه لم يرجع عن رأي له في كتابه (في الشعر الجاهلي).
- **كمال أتاتورك لمحمد توفيق**: كتب عنه في مجلة مجمع دمشق (م14/ 1936).
- **مصطلح التاريخ لأسد رستم**: كتب عنه في مجلة الثقافة المصرية (س2/ع90/ 1940).
- **الأعلام العربية لإبراهيم السامرائي**: بعض ملاحظات نشرها في مجلة مجمع دمشق (م44/ 1969).

وقبل أن أنهي حديثي أجدني مضطراً للإشارة إلى:

- **مقالة الدكتور محمد إبراهيم البنا المنشورة في مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة** (المجلد الرابع والعشرون/ الجزء الثاني/ 1978م)، التي نقد فيها عمل الأستاذ سعيد الأفغاني رحمه الله في تحقيقه كتاب (الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب)، من خلال نص الإفصاح، وتعليقات المحقق رحمه الله، وتخريج الشواهد، وجاءت في أربع وثلاثين صفحة.
- **ومقالة الدكتور صلاح الدين المنجد المنشورة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق** (المجلد الثالث والثلاثون/ الجزء الرابع/ 1958م) ـ وتعقب فيها الأفغاني رحمه الله في تحقيقه كتاب (تاريخ داريا) الذي اعتمد فيه على مخطوطة واحدة وصدر في طبعته الأولى عن المجمع العلمي في دمشق سنة 1950م.
- **وتقريظين للأستاذ عز الدين التنوخي لأسواق العرب** وملخص إبطال القياس في مجلة مجمع دمشق، وآخرين للأستاذ عبد القادر المغربي للإسلام والمرأة وسير أعلام النبلاء (الجزء الخاص بالسيدة عائشة) في مجلة مجمع دمشق أيضاً، وتقريظ للأستاذ أحمد الصاوي لأصول النحو في مجلة الثقافة القاهرية، وكلها من آثار الأفغاني رحمه الله فاتت الكاتبَ الكريم الإشارةُ إليها.

وبعدُ، فيبقى هذا الكتاب صورةً حيّة ناطقة لعَلَم حيٍّ في نفوس محبّي اللغة والثقافة والأخلاق، ـ كتبها يراع تلميذ بارٍّ مخلص، عرفاناً منه ووفاءً لأستاذه الذي قدّر علمَه وفضلَه أناسٌ، وجحدهما آخرون، يدعو فيه المؤلف طلبة الدراسات العليا للنهوض بعبء الكتابة عن هذه الشخصيّة، التي أريد لها أن تبقى في غياهب المجهول.

□□□

الأستاذ المعلم المربي سعيد الأفغاني في حديث الذاكرة

عاصم بن محمد بهجة البيطار *

يكاد الناس يتفقون على أن الأطفال يعيشون في حاضرهم، وأن الشباب يرنون إلى مستقبلهم، ويشغلهم التفكير فيه، وأن الشيوخ مشدودون إلى الماضي، يسترجعون الذكريات الدافئة فيه، ويفرّون من الوهن الحاضر إلى الماضي المُونق الجميل؛ ولا أنكر أنني أصبحت أكثر ميلاً إلى عالم هؤلاء وإن كنت لا أزال أعمل، وأؤدي الرسالة التي نذرت نفسي لها منذ أكثر من نصف قرن.

ولعل الحديث عن شيخنا الأفغاني، وما كان له من أثر في عقولنا وثقافتنا، هو الذي يردني إلى الوراء فأذكر أنني حين بلغت السنة الخامسة الابتدائية درّسنا العربية عالم جليل هو الشيخ زين العابدين التونسي[1]، ولم تكن مديرية الكتب المدرسية قد أنشئت بعد، ولم تكن هناك كتب مقررة تلتزم المدارس كلها تدريسها، فاختار شيخنا كتاب: "قواعد اللغة العربية" من تأليف حفني ناصف ورفاقه، وهو كتاب لطيف في حجمه، غير أنه يكاد يجمع قواعد العربية بحق. وتمضي السنوات، وأبلغ مرحلة الدراسة الجامعية فأنتسب إلى قسم اللغة العربية من كلية الآداب، وكنت أدير في ذهني أسماء كثير من أمهات كتب النحو لعلمائنا القدامى، وأتخيل أن أحدها سيكون هو الكتاب المقرر، غير أنني فوجئت بأن أستاذنا في الجامعة العلامة سعيد الأفغاني، رحمه الله، جعل كتاب: "قواعد اللغة العربية" هو الأصل في الدراسة، على أن نغني دراستنا بالرجوع إلى التراث الخصب الذي تركه أعلام النحاة القدماء كسيبويه (ت: 180هـ) والكسائي (ت: 189هـ) وابن جني (ت: 392

---

* عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(1) صاحب التآليف النافعة، ومنها.. المعجم المدرسي.. و"معجم النحو" و"معجم الصرف" وهو أخ للأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر التونسي شيخ الجامع الأزهر.

هـــ) والزمخشري (ت: 538هـ) وابن الأنباري (ت: 577هـ) وابن يعيش (643هـ) وابن مالك (ت: 672هـ) وابن هشام (ت: 761هـ) وغيرهم.

وإني لأعترف بأن أستاذنا الأفغاني كان له أثر بعيد جداً في تكوين فكرنا النحوي، وأن أكثر ما نعــرفه مــن أصول تدريس النحو والصرف يعود إلى هذه السنة الجامعية الأولى التي كان الأستاذ الأفغاني الربّان الماهر لسفينتها، والقائد الحكيم لمسيرتها.

لعــل من العسير أن أحصي كل ما تركته محاضرات العلامة الأفغاني في تكويننا الثقافي، غير أني ألفت الانتباه، على سبيل المثال لا الحصر، إلى أبرز القواعد الأساسية التي كانت خير مرشد لنا في دراستنا الجامعية من بعد، ثم في عملنا مدرسين في مختلف مراحل التعليم الثانوية والجامعية.

يقــول شيخنا في مقدمة كتابه "الموجز في قواعد اللغة العربية وشواهدها": (جريت في تفصيل موادّ الكتاب على خطة غير بعيدة، فعُنيت بالشواهد، وانتقيتها بليغةً من عيون كلام العرب في عصر الســليقة، تنمــيةً لملكة الدارس، وتوسيعاً لآفاقه في إدراك أحوال أمته، لكون هذه الشواهد مصوِّرةً أحوال مجتمعات أصحابها أصدق تصوير، تصويراً لا نجده ــ بهذه الدقة والصفاء ــ حتى في كتب التاريخ نفسها، وهي، متى استُوعِبَت، أعودُ على الملكات من كثير من القواعد المحفوظة والتعليلات المــتكلفة. وجنّبــتُ الــدارس الأقــوال الموجوحة والمذاهب الضعيفة، مختاراً ما ثبتت صحته على الامتحان)(1).

وقــد الــتزم فــي تدريســه لنا أن يرسّخ في عقولنا هذه القواعد في البحث والاستقصاء لتكون خطواتنا في تحصيل العلم. ثم في إيصاله، سليمةً في مقدماتها ونتائجها.

لقــد عرفنا في دروس أستاذنا الأفغاني ما معنى الشواهد، وما الفرق بينها وبين الأمثلة؟ وماذا يعنون بعصور الاحتجاج؟ وكيف نحدد موضع الشاهد ووجه الاستشهاد؟ وقد تعلّمنا منه الصبر على تتبّع مناقشات كبار النحاة، وتوجيه آرائهم، وفهم حُجج كل فريق منهم، وأحطنا ــ بتوجيهه ــ إلى حد كبير بالمدارس النحوية المختلفة التي كان لها الفضل في استقراء كلام العرب، واستنباط القواعد العربــية التي دوّنوها في ضوء طرائق ارتضاها كل فريق منهم، فنشأت مدرسة البصرة، والكوفة، والمدرسة البغدادية. ونحو الأندلس، ونحو المغاربة....

وكان في تدريسه يكره الإسهاب المملّ، فكان يوصل ما يريد أن نتعلّمه بعبارات موجزة، ولعله كــان يعــتقد أننا اخترنا قسم اللغة العربية لأن فينا استعداداً لسرعة الفهم، ولذا كان يُنكِر على بعض الطلاب أو الطالبات أسئلتهم عن أشياء يفترض أنهم عرفوها في مراحل سابقة، وقد جَعَلَنا ذلك نشفق أحــياناً من السؤال خشية سخريته اللاذعة، ونفزع إلى أستاذنا العلامة عز الدين التنوخي رحمه الله، أستاذ البلاغة، فنسأله ما نشاء، فنسمع منه ما يفسّر الغامض، ويفصح عن المقصود.

وكــان لأستاذنا الكبير فضل كبير في إعدادنا لنكون مدرّسين، وإن ما أصابه بعضنا من نجاحٍ

---

(1) انظر كتاب "سعيد الأفغاني" للأستاذ الدكتور مازن المبارك (ص 101) نقلاً عن مقدمة "الموجز" المطبوع عام 1970م.

مـرموق فـي أداء رسالته، يعود في كثير من جوانبه إلى العلامة الأفغاني، فقد كان يطلب إلينا أن نهيّئ بعـض الأبحـاث مـن المقرر، وأن نلقيها على زملائنا، وكان صارماً في تقويم الاعوجاج، وإحصـاء الأخطـاء في اللغة وإعداد الخطة وعرض الشواهد ومناقشتها، إلى أن نصل إلى استنتاج القاعدة التي تنتظم ذلك كله، وتبقى الزاد الذي يساعد على السير قدماً في طريق الفهم والإفهام.

ومـا دام هـذا الحديث يستمدّ مادته من الذكريات، فإن هذه الذكريات تعود بي إلى أيام الصبا، ووصـف مجالس كثيرة جداً كانت تُعقد في بيت سيدي الوالد رحمه الله (ت 1976م) من بعد صلاة الجمعـة مـن كـل أسـبوع حتى صلاة العصر، وكان أركان هذه الجلسات الفنية الدائمون الأساتذة الأجـلاء: عز الدين علم الدين التنوخي (ت: 1966م) والشيخ علي الطنطاوي (ت: 1999م) وشاعر الشام أنور العطار (ت: 1972م) وأستاذنا الأفغاني (ت: 1997م) رحمهم الله جميعاً.

كـانوا يـؤدون صـلاة الجمعة في جامع كريم الدين الشهير بالدقاق، وكان والدي مدرّساً فيه وخطيـب الجمعـة على منبره مدةً تزيد على ستين عاماً، فإذا قُضيت الصلاة شرّفوا دارنا، وتناولوا طعام الغداء، ثم تبدأ الجلسة العملية التي كانت روضة من رياض المعرفة. ومن الطريف أنهم كانوا يشـترطون أن يكـون الطعـام لوناً واحداً لا يتغير، وهو (الكوسا المحشوّ) ولطالما سمعت الأستاذ الطنطاوي يردد: لا صلاة إلا في الدقاق، ولا طعام إلا الكوسا... وكان الطنطاوي بحقٍ هو المحرك لهـذه الجلسـات التي استمرت أعواماً؛ وكم يحزّ في النفس الآن أن وسائل التسجيل لم تكن متوافرة عـندنا فـي تلـك الأيـام. ولو سُجّل ما كان يدور في هذه الاجتماعات لوقفنا على كنوز من العلوم والمعـارف. وقـد تجاوزت أخبار هذه الجلسات الأسبوعية الحدود، ووصلت إلى أسماع الكثير من أصـدقاء الوالد في العالمين العربي والإسلامي، ولذا كان يحضرها علماء كبار ممن يُلمّون بدمشق، وإنـني لأذكـر ممن حضر عدداً من هذه الجلسات أميرَ البيان شكيب أرسلان (ت: 1946م)، وعيّن أعـيان جـدة الشيخ محمد نصيف (ت: 1971م)، والعلامة الجليل أبا الحسن الندوي (ت: 1999م) ونائـب رئـيس جمعـية العلمـاء الجزائريين ثم رئيسها بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت: 1940م) الشيخ البشير الإبراهيمي (ت: 1965م) الذي أقام في دمشق فترة بعد أن نفاه الفرنسيون.

وكـان الأستاذ الطنطاوي غالباً هو الذي يقترح موضوع المناقشة والحوار، ومن الطرائف التي ما زلت أذكرها أن الشيخ اقترح يوماً أن يتحدث الحضور في موضوعات شتى تبدأ من التعليق على خطبة الجمعة على أن يكون الحديث كله شعراً... كما اقترح في يوم آخر أن يؤلف الحضور جمعية دَعوهـا: جمعية الحمير، وأن يصدروا في كل ما يقولون عن تصوّرهم لطرائق الحمير في التفكير، وقد توصلوا في حوارهم إلى أن عالم الحمير قد يكون أقرب إلى الخير، وأبعد عن الشر من المجتمع الإنسـاني الـذي تقـوده الأطمـاع، ويسـتعبده المال والجاه والسلطان. وكان أستاذنا الأفغاني أقلّ الحاضـرين كلاماً. على أنه لم يكن يفوته النقد اللاذع، أو الملاحظة الموجعة، وكثيراً ما كان يتبادل مع الأستاذ الطنطاوي الحديث الساخن والنقاش الحاد.

وقـد عُرف عن شيخنا الأفغاني أنه كان لا يعود عن رأيٍ رآه، أو موقفٍ اتخذه، ولو عاد عليه

إصراره بأضرار كان يمكن دفعها، وقد عبّر هو نفسه عن ذلك بقوله: "وفي طبعي هيام بالحرية والصراحة، وكثيراً ما أَنكّبُ الطريقَ الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص، متحمّلاً بصبرٍ وطمأنينة ما أجرّ على نفسي من عناءٍ وعداء... وهذا بلاء حتمٌ لا مفرَّ منه لمن خُلِق حُرّاً صريحاً، ولو حاول غير ذلك ما استطاع"[1].

وقد جرت لي معه حادثة طريفة تفصح عن أسلوبه في النظر إلى الأمور والحكم عليها، فقد أُنهينا امتحانات السنة الأولى في النحو والصرف، وأُعلنت أسماء الناجحين، وكانت الدرجة العليا (20/13)، وقد استحقها ثلاثة من الطلاب كنت واحداً منهم، وقد عجبت لهذه الدرجة، وأعدت النظر في إجاباتي فلم أرَ فيها من الأخطاء ما يمكن أن يهوي بدرجتي إلى هذا الحد... ثم دعانا أستاذنا الأفغاني إلى اجتماع نطّلع فيه على أوراقنا، ونتأكد من صحة جمع الدرجات الموزعة على الأسئلة، وتناولت ورقتي وجمعت درجاتها، فإذا هي (20/16)، وكنت أعرف في أستاذنا الدقّة المتناهية، فاستعنت برفاقي. وطلبت إليهم جمع الدرجات، فأجمعوا على أنها (20/16). فذهبت إلى الأستاذ وأنا مطمئن إلى أن الخطأ واضح، وذكرت له الأمر فكان جوابه صريحاً سريعاً: (ما بصير) ثم أخذ الورقة، وقلب صفحاتها، وأطال النظر فيها، ونظر إليّ بعد ذلك وهو يقول: ألم أقل لك؟!.. الجمع صحيح... فقلت له: لقد قام الطلاب جميعاً بجمع مفردات الدرجات فكانت (20/16)، فأشار إلى أحد الأسئلة وقال: إنك أخطأت في الإجابة عن هذا السؤال، فقلت: نعم، وقد وضعتَ لهذا السؤال ثلاث درجات، وحرمتني من درجة أخرى لإهمالي كتابة همزة قطع.. فقال بسخرية مُرَّة: الحساب لا يجري هكذا... لو أخطأ خطأك فلان (طالب ضعيف في النحو) لحرمته درجة السؤال، أما أنت فطالب مجدّ، وأنت ابن الشيخ محمد بهجة البيطار، ولذا ينبغي أن تعامل معاملة تليق بأمثالك، فتحرم درجة السؤال، وتعاقب بحذف ثلاث درجات أخرى، لأنك أخطأت خطأً لا يقبل منك.... وأدركت أن الاحتجاج غير مفيد، وأن النقاش عقيم... فعدت إلى مقعدي وأنا أقول: هل هذا معقول؟!!

على أن هذه الحادثة كان لها أثر بعيد في دراستي بعد ذلك، فقد غدوت أكثر أناةً في القراءة والفهم، وأشدّ حرصاً على التأمّل العميق، والانتباه الشديد لكل سؤال يطرح، وقديماً قالوا: ربّ ضارّة نافعة.

رحم الله أستاذنا الجليل الأفغاني، وجزاه عن إخلاصه وصراحته ودقته أفضل ما يجزي به عباده العاملين الصادقين، وجعله في أعلى علّيين مع من رضي عنهم من الأنبياء والصدّيقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

□□□

(1): "عائشة والسياسة" بين يدي الكتاب ص: 5. (نقلاً عن كتاب "سعيد الأفغاني" للدكتور مازن المبارك ص: 3، 30).

مع كتاب
أسواق العرب في الجاهلية و الإسلام

محمود فاخوري

-1-

***كان** من عادة العرب في العصر الجاهلي أن يقيموا لأنفسهم أسواقاً موسمية عامة في أمكنة معينة وأزمنة محددة -إلى جانب أسواقهم المحلية الدائمة- يتعاطون فيها أمور البيع والشراء والتجارة وفداء الأسرى، والتباهي بالأعمال العظيمة والمفاخر الجليلة والمآثر الحميدة، والاستعداد للأخذ بالثأر في قابل الأيام -كما سنرى-. وأصبح الكثير من هذه الأسواق - ولا سيما الكبرى منها- موسماً سنوياً لاجتماع القبائل أيضاً وعقد المجالس للمناشدة والخطابة والتحكيم الأدبي والفصل بين الشعراء. ولم تكن هذه الأسواق الموسمية السنوية كلها في وقت واحد، ولذلك كان يتاح للعرب -أفراداً وجماعات- أن يتنقلوا من سوق إلى أخرى. قريبة أو بعيدة قليلاً.*

وهذه الأسواق تتفاوت من حيث الشهرة والذيوع، ومن حيث عدد الناس الذين يفدون إليها، ومنزلتهم الاجتماعية والسياسية والقبلية، وقد درج العرب على أن تكون الأشهر التي تقام فيها تلك الأسواق هي من الأشهر الحُرم، ومن ثم كانت أماكنها من الأماكن الحُرم أيضاً، فلا يجوز فيها العدوان ولا الغزو، ولا القتال، ولا الأخذ بالثأر.

والأشهر الحرم عندهم أربعة هي: ذو القَعْدة، وذو الحجّة، والمحرّم، ورجب الفَرْد، وسميّ بذلك لانفراده عن الأشهر الثلاثة المتتابعة، ويقال له أيضاً "رجب الأصمّ" لأنه كان لا يُسْمَع فيه صوت مستغيث، ولا حركةُ قتال، ولا قعقعةُ سلاح، شأن الأشهر الحُرم الأخرى.

وكان لهذه الأسواق أغراض شتى لم تكن لتتحقّق لولا وجود تلك الأسواق الموسمية، وفي مقدمة تلك الأغراض قضاء مناسك الحج في الفترة نفسها، والتوفيق بينها وبين الحضور إلى

* باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

الأسواق المقصودة لشراء ما يحتاجون إليه، أو لبيع ما عندهم من بضائع وسِلَع وأدوات وسلاح، وإن أسواقنا الأسبوعية اليوم صورة مصغرة جداً عن تلك الأسواق العربية القديمة من حيث البيع والشراء والتجارة، ما خلا الجانب الأدبي والشعري الذي كان يتحقق "على هامش" أسواق العرب- كما نقول اليوم، وهو ما لا وجود له في أسواقنا المعاصرة.

ولم تكن الأسواق الموسمية بدعاً في تاريخ العرب، بل كانت معروفة عند اليونان والرومان وفي أوروبة عامةً إبان القرون الوسطى، مع بعض الفروق بينها وبين الأسواق العربية القديمة، ثم تقلصت تلك الأسواق جميعاً بل زالت بعد انتشار وسائل النقل، وتطور تسويق البضائع، وشيوع ظاهرة المعارض المختلفة في هذا العصر، بحسب ما يُعرض فيها، كالآلات الزراعية، والأجهزة الطبية، والمنتجات المتنوعة، وما إليها مما نعهده اليوم في معرض دمشق الدولي، وسوق الإنتاج في حلب، حتى الكتب أصبحت لها معارض وأسواق خاصة في الأقطار العربية تُعقد في شهر معين من كل عام، وتدوم أياماً معدودات، أو أسابيع محدّدات.

-2-

وأسواق العرب القديمة موزعة في أنحاء الجزيرة العربية بحسب مكانتها وأهميتها والقائمين عليها والوافدين إليها. فَسُوق "دَوْمة الجَنْدل" لقبيلة كلب، وسوق "المشقَّر" لتميم وعبد القيس، وسوق "هَجَر" في البحرين، وهناك أسواق تضاف إلى أمكنة ومدن خاصة كسوق عُمان، وسوق صُحار، وسوق الشِّحْر، وسوق صنعاء. وهذه الأسواق كلها كانت لقبائل جنوب الجزيرة العربية التي يشق عليها الارتحال والسَّفر إلى شمالي بلاد العرب وأسواقها هناك. وإن كان بعض هذه الأسواق كبيراً وعاماً كسوق عكاظ التي يفد إليها معظم القبائل، ويجدون فيها كل ما يطلبون، ويحققون فيها جلَّ ما يرغبون، وقريبٌ منها سوق مجَنَّة وسوق ذي المجاز، حيث تُعقد هذه الأسواق الثلاثة في أزمنة متقاربة ومتتابعة، بحيث ينتهي الناس منها في مدة واحدة، ويتجهون بعدها مباشرة إلى مكة ليقضوا مناسك الحج.

وقد استمرّت هذه الأسواق بعد ظهور الإسلام. وعندما قامت الدعوة الإسلامية وجدت في تلك الأسواق منبراً لنشرها والتعريف بها وحث الناس على الإيمان بها. فكان النبي ﷺ يعرض نفسه في بعض هذه المواسم على قبائل العرب ويدعوهم إلى الإسلام. وقد تمّت في مثل تلك المواسم بيعة العقبة الأولى، والثانية[1].

والأسواق في اللغة جمع سُوق وهي موضع بيع البضائع والأمتعة. وأصل اشتقاقها من سَوْق الناس بضائعهم إليها، والغالب عليها التأنيث، وهي لغة أهل الحجاز، ولذلك تصغر على "سُوَيقة" لأنه اسم ثلاثي مؤنث، كما يقولون في "هند": هُنيدة، وفي "شمس": شُمَيْسة. وبنو تميم يذكّرون السوق، وشاهد التذكير قول شاعر أخذه سلطان فجلَده وحلَقه:

[1] انظر: "القاموس الإسلامي" لأحمد عطية الله 1/110.

ألـم يَعـظِ الفتـيانَ مـا صار لِمَّتي   بسـوقِ كثـيرٍ ريحُـه وأعاصـرُهْ

ويقال: تسوَّق القومُ: إذا باعوا واشتروا[1].

-3-

هـذا، وإن أخـبار أسواق العرب في الجاهلية والإسلام مبثوثة في بطون كتب الأدب والتاريخ واللغـة والمحاضـرات، لا يجمعها كتاب واحد، حتى انتَدَب لهذا الأمر الشاقّ أستاذنا المرحوم سعيد الأفغانـي (1909-1997م) فقام بتأليف كتابه "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" وهو في أواسط العقـد الثالـث مـن عمره، وظهرت طبعته الأولى سنة 1936م/ 1355هـ، في أوقات عاشت فيها سـورية أجـواءَ أربعـةِ معارض تجارية متنوعة، حدَتْ الأفغانيَّ رحمه الله على تأليف كتابه ذاك، وهي:

1- معـرض الثمار والفواكه، الذي أقيم في مدينة دمشق في تشرين الثاني سنة 1927م، ودام خمسـة أيام، واشترك فيه /1500/ عارض من مختلف المدن السورية وزاره من الرجال والنسـاء والأطفـال من يزيد عددهم على الأحد عشر ألفاً: وكان أثره في نهضة الزراعة وانتعاشها مباركاً محموداً[2].

2- **معـرض الصنـاعات الشرقية**، الذي أقيم في المقرّ السّابق للمجمع العلمي العربي (مجمع اللغـة العربـية اليوم) في المدرسة العادلية بباب البريد. وقد افتتح هذا المعرض في 3/8/ 1928م واقتصـر على دمشق لضيق الوقت، وكان ما عُرض فيه 627 من القطع المنوعة من السجّاد والنحاس والأخشاب والأسلحة والمخطوطات والجلود والأقمشة والصور، وكل ما هو من الفنون الجميلة. وقد ظلّت أبوابه مفتحة ثمانية أيام وزاره في خلالها أربعون ألفاً ونيّف[3].

3- **معـرض الصناعات الوطنية**، أقيم في صرح الجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم، المبنى القديم) وذلك في شهر آب سنة 1929م.

وقـد عُـرض فـيه مصـنوعات المناسـج على اختلافها، والمصابغ والمطابع والمطاحن والمزايـت والمصـابن، عـدا الـنفائس الشـامية (السورية) من القطع الخشبية والنحاسية والمصـوغات، والـزجاج والمربيّات و "السكاكر"... الخ. وكان الإقبال على هذا المعرض أكثر من سابقَيْه لشموله أكثر الصناعات الشامية (السورية)[4].

---

(1) انظر "تاج العروس" للزَّبيدي، مادة "سوق". واللِّمّة بكسر اللام وتشديد الميم: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن.

(2) انظـر مقدمة كتاب "أسواق العرب" ص 5 نقلاً عن التقرير الذي رفعه رئيس لجنة إدارة المعرض إلى وزير الزراعة والتجارة يومئذ، نصوحي البخاري. ولم يُذكر مكان هذا المعرض.

(3) المصدر نفسه ص 5-6 نقلاً عن التقرير الخامس بأعمال المجمع العلمي العربي سنة 1928م ص 38.

(4) انظر مقدمة "أسواق العرب" ص 6 (الطبعة الثالثة).

4- وفي ربيع عام *1936* م أقيم "**معرضُ دمشق وسوقُها**" في ظروف الاحتلال الفرنسي، والأجواء السياسية والظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت تمرّ بها البلاد في سورية، وكان هذا المعرض –برغم تلك الأجواء والظروف– يمثل ذكاء العربي وتقدّمه في جميع المناحي، وشاركت فيه كل بقاع الوطن "سورية" بكل ما فيها من تُحف فريدة في بابها، وصناعات عبقرية تجلّت في الفكر الخصب واليد الصَّناع. وافتتح هذا المعرض مساء الأحد *1936/6/21* في مدرسة التجهيز الجديدة (ثانوية جودة الهاشمي اليوم)، حيث أجمل بقعة في دمشق وأنزهها، وأحفلها بآثار العرب في القديم والحديث[1].

ذلك بعض ما ذكره المؤلف في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه "أسواق العرب"، وهي مقدمة قيّمة ومهمّة لأنها تؤرخ نواحيَ اجتماعيةً واقتصادية وسياسية في حياة الشام (سورية) في غمرة من الغمرات، وتشير إلى ظاهرة روحية قلقة سادت البلاد إبان قيام تلك المعارض الأربعة، وخصوصاً الأخير "معرض دمشق وسوقها" سنة *1936*م، وهي في الوقت نفسه –أعني المقدمة– تأريخٌ لظروف تأليف ذلك الكتاب بما تجلّى في تلك المعارض –التي أقيمت في أكبر المعاهد العلمية وصادف آخرها في ذكرى المولد النبوي– من أثرين مزدوجين مرتبطين أشد الارتباط وهما: عبقرية الفكر والعلم، وعبقرية اليد (الصناعة)، وبذلك كله يستعيد العرب والمسلمون ذكريات ما قدّموا للإنسانية من نُظم وحضارة وعدل وسعادة. وهكذا تتصل حلقات السلسلة التي انقطعت، ويعود مجدنا الصناعي والتجاري، لتتبوّأ أمتنا مكانها من جديد.

وهذا ما أوحى إلى الأفغاني رحمه الله بخواطر متدفقة عبّر عن بعضها بقوله: (ص*10*)

"كنت في هذا الجوّ من الغبطة والذكرى والتأثر، لمّا عرضت في ذهني حلقات تاريخنا، وأين انقطعت في كل حلقة، ومتى عَهْدُنا بوصلها؟ فكان أول ما جال في خاطري– وأنا في معرض دمشق وسوقها– أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، وكيف كانت تزخر بالناس من تجّار وصُنّاع، وأدباء وشعراء وخطباء، وساسة وأشراف، عجبت لهذه الذكرى، وقد أعاد هذا المعرض لنا أسواقنا مع مراعاة الفارق بين الزمانين– وذكرت أن المجمع العلمي بدمشق.. سيقوم بمهرجان للمتنبي في آخر أسبوع من تموز... لتتم لنا صورة عن أسواق العرب ومحافليهم فيها. فكملتْ بهذا أداة هذه السوق العربية الكبرى بما سيُلقى فيها من أدب وشعر وعلم، وبمن سيؤمّها من العلماء والأدباء من المشرق والمغرب: عرباً وأجانب ومستشرقين، وأصبح من كان يتمنى أن ينعم بمرأى عكاظ في الجاهلية يستطيع أن يشهد عكاظ العرب في القرن العشرين، فينظر كيف انقلب الزمن؟ وكم قطعت الحضارة بين العكاظَيْن من أشواط".

ومن هنا وُلدت لدى الأستاذ الأفغاني فكرة تأليف كتاب "يعرض لأسواق العرب وما كانت عليه في الجاهلية والإسلام، وما قامت به من عمل في خير العرب ولغتهم، ليقف (القارئ) على شأنها في

---

[1] المصدر نفسه ص*6* وجاء فيه أن هذا المعرض افتتح "مساء الأحد الحادي والثلاثين من حزيران سنة *1936*م" كتابةً. وهو سهو، صوابه "الحادي والعشرين".

تاريخنا، ويستطيع أن يفاضل بين رسالتها قديماً ورسالة المعارض حديثاً".

-4-

ومن ثم عكف المؤلف على أمّات المصادر -وهي في هذا الموضوع جدُّ شحيحة- وراح ينقّب فـيها ويفلّـيها ليستخرج منها كل ما يفيد في بحثه، حتى تمّت له مادة هذا الكتاب الذي سمّاه "أسواق العـرب في الجاهلية والإسلام"، والذي يغطي حقبةً تمتد قرابة ثلاثة قرون، ما بين العصر الجاهلي ونهاية القرن الثاني للهجرة (500-815 للميلاد)..

وإن الـذي يطلـع على هذا الكتاب القيّم يُكبِر هذا العمل الشاقّ ويوقن تمام اليقين أن صاحبه قد بذل فيه جهوداً مضنية، ولقي عناءً ونَصباً شديدين، حتى استطاع هذا الكتاب أن يسدّ فجوةً كبيرة من الفجـوات فـي تاريخـنا وتراثنا. آية ذلك تلك الحفاوة التي استقبله بها العلماء والأدباء من العرب والمستشـرقين استقبالاً ما كان المؤلف "يطمع ببعضه" كما يقول، وأثنوا على الكتاب وصاحبه، ولا سيما المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو).

قسـم المؤلف كتابه ثلاثة أبواب رئيسية، مهّد بالأوّلَين منها للكلام على أسواق العرب، ورآهما لازميـن. وقد تضمّنا بحوثاً وثيقة الصلة بموضوع الكتاب، وهي تتّمم الصورة التي يريد المؤلف أن يتمـثّلها القـارئ مسـتوفاةً في غير نقص ولا زيادة حين يقرأ الباب الثالث الخاص بأسواق العرب، والذي هو أكبر أبواب الكتاب.

-5-

والـباب الأول عنوانه "شؤون العرب التجارية: بين الجاهلية والإسلام"، ويقع في نحو سبعين صفحة (15-87).

وهـو إلمامـة موجـزة تهـدف إلى بيان اهتمام العرب عامةً بالتجارة، والتجارة أحد مواضيع الأسواق عندهم.

بدايـة هذا الباب: "تمهيد في تجارة العرب" تحدث فيه عن اهتمام العرب بالتجارة في جزيرتهم، وعـن علاقـاتهم التجارية والسياسية مع الدولتين العظيمتين اللتين تنازعتا النفوذ والسيادة في العالم عصـرئذ، وهمـا فارس والروم، فضلاً عن علاقات أخرى أضيق حدوداً: كعلاقة الحبشة والهند مع اليمـن وعُمان والبحرين، نظراً إلى الموقع الجغرافي الذي تمتاز به بلاد العرب، والذي أطمع كثيراً من الفاتحين قديماً وحديثاً.

وقـد شـغلت دول العرب القديمة كتدمر وسبأ والمعَينيّين في اليمن المراكز الممتازة في تجارة الشـرق. وإن توسط تدمر بين الدولتين: الفارسية والرومانية -بين العراق والشام وجزيرة العرب- جعلهـا محطة القوافل جميعاً بين هذه الأقطار، فازدهرت تجارتها واشتهرت أسواقها حتى أصبحت قِبلة التجّار من الهند والفرس (وجزيرة العرب نفسها) والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوروبة.

ومعروف أن هناك رحلتي الشتاء إلى اليمن والحبشة، والصيف إلى مصر والشام والعراق (ص44).

فلا بدع في أن تكون التجارة من أول أسباب المعاش للحجازيين، فعكفوا عليها، وتمادحوا بكسب المال، وأخذوا يضربون في الأرض ابتغاء الرزق، وبذلك عرفوا قبل الإسلام كثيراً من مدن الشام كبصرى وغزّة، ومدن العراق واليمن ومصر. وكانت مكة نفسها المركز التجاري العظيم في جزيرة العرب، وكان على تجارة مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم. واشتهر كل بلد بما يَصْنَع أو يصدّر، وخصّه الله بشيء منعه غيرَه.

فالسيوف والبرود لليمَن، ودباغة الجلْد في الطائف حيث يصدّر إلى الحبشة. واشتهرت هَجَر والبحرين بالتمر الجيد المنقطع النظير. وكان يُحمل من الشام إلى الجزيرة العربية: الزيت والزبيب والخمر، وغيرها.

وهذا الاختلاف والتنوّع في المحصول هو الذي ضمن استمرار الحركة التجارية، الداخلية والخارجية، في جزيرة العرب. وفي القرآن الكريم إشارات ودلالات بعيدة على عظم ما شغلت أمور التجارة من أفكار العرب وخواطرهم، ومن ذلك آية الجمعة التي تقرّعهم حين تركوا الرسول ﷺ في "المدينة" يخطب على المنبر، وبادروا إلى تجارتهم قبل أن يفوتهم الربح، فنزل قوله تعالى: ﴿وإذا رأوْا تجارةً أو لهْواً انفضّوا إليها وتركُوكَ قائماً، قُلْ ما عندَ اللهِ خيرٌ مِنَ اللّهوِ ومنَ التّجارةِ، واللهُ خيرُ الرّازقين﴾ (سورة الجمعة *11*).

ثم دخلت أحوال العرب التجارية في طورٍ جديدٍ بعد ظهور الإسلام، الذي اهتم بأمر تجارتها وشرع لهم ما يحتاجون إليه من أحكام البيع والشراء والاحتكار والديون والربا.. الخ. كما أن اللغة والأشعار والأمثال تكشف لنا ما كان عليه القوم من عادات وأحوال في هذا الميدان، ومن أمثالهم التي تتعلق بأمورهم التجارية وأسفارهم قولهم: "عند الصباح يحمد القومُ السُّرى" و "كمستبضع التمر إلى هجَر".

وبعد ذلك يتحدث المؤلف عن "بيوع الجاهلية" (46-59) وأراد بها الأنماط الخاصة التي ألفها العرب في جاهليتهم من البَيْع، يتخذونها في أسواقهم، وهذه البيوع تصوّر لنا ما كان عليه تفكير فريقٍ منهم، في بعض الأسواق دون بعض، وهي اثنا عشر نوعاً رئيسياً، نذكر منها:

1- **الرمي بالحصاة** (أو إلقاء الحجارة)، ومن صوره الكثيرة أن يقول أحد المتبايعيْن للآخر: ارم هذه الحصاة، فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم. أو أن يقول: بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك (أي في رميها) ص46، 47.

2- **المنابذة**: ومن صورها أن يرمي أحد الرجلين إلى الآخر بثوبه وينبذ الآخر إليه ثوبه، ولا ينظر أحدهما إلى ثوب صاحبه. فيكون ذلك بيعهما، من غير نظر ولا تراض(ص48).

3- **الملامسة**: بيع الثوب عن طريق الملامسة، وذلك بأن يكون مطوياً، أو في الظلام، فيلمسه المُستام، فيقول له صاحب الثوب: بعتُكَهُ بكذا، بشرط أن يكون لمسك مقام نظرك، ولا خيار

لك إذا رأيته (ص49).

ولمـا جاء الإسلام أبطل معظم هذه البيوع الغريبة والفاسدة وشرع للمسلمين السهولة والسماحة والتّبيين والوضوح في البيع.

ويأتي كلام المؤلف بعد ذلك على "ربا الجاهلية" (60-69) الذي انتشر في جزيرة العرب، حتى ألفـه النـاس وصاروا يأخذون به ويُعطون، ومتى انتشرت عادة قبيحة ستر فشوُّها قبحها فلم يترفع عـنها أحـد. وقد شنّع القرآن على كلّ من تعاطى الرّبا، وحرّمه جملةً واحدة، وأوجد الحلول لجميع العلاقـات والمعـاملات الـربوية السابقة، كما حسم الرسول ﷺ الأمر في حجة الوداع، في خطبته البليغة المأثورة، حين قال:

"ألا إن ربا الجاهلية موضوع كلّه، وأول رباً أبتدئ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب".

ويختم المؤلف الباب الأول من كتابه "أسواق العرب" بالكلام على فئات من العرب في الجاهلية وهـم "المُحِلّـون والمحـرّمون والحُمْـس"(70-87) فيذكر أن العرب كانوا يعظّمون أمكنة خاصة وشـهوراً معيـنة، يضعون فيها سلاحهم حتى يزايلوا المكان الحرام أو الشهر الحرام. وكان من بُعد النظر أن جعلوا أكبر أسواقهم يقام في الأشهر الحُرم الأربعة، وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام والبلد الحرام.

علـى أن رعايـة الحرم -على ما تقدم- ليست مطّردة، إذ أن هناك قبائل معدودة لا تتقيّد بهذه المحرّمات. أما قريش فقد حظيت بين العرب بمكانة سامية وزعامة تجارية لأنها تسكن الحرم، حيث الأمن والسّلم، ولأنهم سَدَنة البيت والقائمون بأمر الحجّاج أيام الحج، فأذعنت لهم العرب بذلك، ومن ثـم ضـرب القرشـيون فـي أنحاء جزيرة العرب متاجرين لا يَعرض لهم أحد. وتبعاً لهذه المكانة والتعظـيم لهم تلقّبوا بالحُمْس، هم وأحلافهم من قبائل أخرى، ومنحوا أنفسهم من الامتيازات ما ليس لغيرهم.

وهـذا الـتزيّد مـن قـريش علّم الناس الاحتيال وارتياد المنافع والاستهانة بالحرمات، بشتى الأسـاليب، لـيجدوا في حرمة الشهر والحرم خير ملاذ. ومن ثم كثر هؤلاء حتى سُمّوا (بالمُحلّين). وبالمقـابل هناك قبائل أخرى حفظت للمكان قدسه وللشهر حرمته، وأنكرت على المُحلّين استخفافهم، فسُمّوا (بالذّادة المحرّمين) وهم أغلب العرب، حتى إن نفراً منهم أحلّوا قتال المُحلّين بالسّلاح ودفعوا عن الناس شرّهم وأذاهم.

-6-

أمـا الـباب الثانـي مـن كـتاب "أسواق العرب" فقد كان موضوعه "أحداث قريش التجارية" (89-190) وتناول فيه أربعة أمور، وهي:

قريش التجار، إيلاف قريش، حرب الفجار، حلف الفضول.

ففي حديثه الأول ذكر سبب تسمية "قريش" بهذا الاسم، وأورد ثمانية آراء في ذلك، أشهرها أنهم كـــانوا أهل تجارة وتكسب في البلاد، يتقرشون (أي يجمعون) البياعات فيشترونها، أو لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرّقهم في البلاد، ولم يكونوا أهل زرع وضرع.

وقــريش في الأصل طبقتان –من حيث السيادة– فهناك (قريشُ البطاح) وهم الذين نزلوا بطحاء مكــة وبطنها، من بني هاشم وبني أمية، وهم سادة القرشيين. وهناك (قريشُ الظواهر): نزلوا أعلى مكة وانتشروا حولها في ظواهرها (ضواحيها) وهم دون قريش البطاح شرفاً وشأناً.

ولقــريش –بعد ذلك– مكانتها التجارية والاجتماعية والدينية، وأشهر رجالها: قصيّ بن كلاب، وهاشــم بــن عــبد مــناف، والمطلب بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم.. وبقيت هذه المكانة لأولادهم وأحفادهم في الإسلام، وهي أشبه بالوظائف الرسمية.

ففي التجارة كان القرشيون يسيّرون قوافل عظيمة، معها حامياتها وأدواتها وأدلاّؤها، وأدّى ذلك إلــى اخــتلاطهم بالأجانب المتحضرين كالروم والفرس والحُبشان، وإلى تميزهم بأمور منها: اللباقة والكياسة، والفصاحة في اللغة، والعلم والثقافة، وتعلّم فريق منهم الكتابة، كما كان أكثر كتّاب الوحي منهم. وقلّ أن تجد قرشياً ذا شأن في الجاهلية والإسلام إلا كان تاجراً.

أما مكانتها الدينية بين العرب فتتجلى في أمرين: أولهما الرفادة، أي تقديم الطعام للحجّاج، وهذا ما أغراهم بالقدوم إلى مكة والإقبال على تلك الأسواق التجارية، وبذلك تضمن قريش رواج تجاراتها التي هي قوام أمورها في الحياة. وثاني الأمرين: كسوة الكعبة وما يتصل بذلك من أمور، وكان ذلك مدعــاة لتباهــي قريش به أمام سائر العرب، حتى إن أفراداً آخرين من غير قريش راحوا يشرئبون إلى تحقيق ذلك الشأن.

وفي القسم الثاني من هذا الباب يتحدث المؤلف عن "إيلاف قريش" (*174-161*) وهو ما يمكن أن يسمى في عصرنا بالمعاهدات التجارية.

وهــو أبرز حادث في تاريخ العرب التجاري قُبيل الإسلام، وقد أخبر به القرآن الكريم. وهناك آراء فــي تحديــد معنى "الإيلاف" (*148*)، ومنها الرّبح المخصوص الذي جعله هاشم بن عبد مناف لرؤســاء القــبائل لكــي يكفيهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشاً الأعداء، ومنها: العهد، وشبه الإجازة والخفارة، ممّا هيّأ لقريش – حين أُخذ لها الإيلاف (العهد) من الملوك– أن ترحل إلى الشام والحبشة واليمن والعراق...

ثم ذكر المؤلف الإيلافات أو المعاهدات التجارية التي عقدتها قريش مع العرب والروم والحبشة وفــارس، وبذلــك خرجــت تجــارة قريش من طابعها المحلي وأفقها المحصور إلى رحابة الآفاق الأجنبية، فاتسعت تجارتها وارتقت مكانتها الاجتماعية وكثرت أموالها، بفضل الإخوة الأربعة هاشم، والمطلــب، وعــبد شمس، ونوفل، أبناء عبد مناف. وهم أصحاب الإيلاف الذين رفع الله بهم قريشاً ونَعَش فقراءها، وبنى تجارتها على أسس قوية، حتى صارت شبه دولية بعد أن كانت محلية.

ويأتـي، بعـد ذلـك، القسـم الثالـث من هذا الباب الثاني، فيخصّه المؤلف (بحرب الفجار)، (162-180) وهـي الحـرب التي وقعت في الأشهر الحُرم التي تعظمها العرب وتحرّم فيها القتل والقـتال، فلمـا خرج المتحاربون فيها على شريعة العرب كانوا فاجرين بذلك. وهذه الحرب تتصل بـأحداث سـوق عكـاظ قرب مكة، وما حولها. وأيامها خمسة تفرقت على أربع سنين، وكانت في حقيقـتها نـزاعاً وتـزاحماً علـى الكسب والنفوذ التجاري والأدبي، بين قريش وأحلافها من جهة، وهوازن المعروفة بعددها وبطشها حول عكاظ من جهة أخرى، على الرغم من أن قريشاً لم تكن تودّ وقوع هذه الحرب، لأسباب تجارية واجتماعية. وقد حضرها الرسول ﷺ بنفسه وكان فتىً يافعاً.

وأخـيراً تداعـى الفريقان إلى السِّلْم، على أن يذَروا الفضل في الدماء والأموال ويتعاهدوا على الصلح، وعقدوا على ذلك مواثيقهم.

وبقيت هذه الأحداث للذكرى والفخر، يتمجّد كل شاعر قوم بما فعل قومه وبما لهم من محامد ومآثر.

ويخـتم المؤلـف حديـثه عـن حروب الفجار بقوله (180): "وهكذا كانت تجارة العراق في (عكـاظ)، وما يفيده من يُجيرها من أرباح مادية ومعنوية، هو وقبيلته، سبباً مُغرياً في هذه الحروب، ولا بـدع فـي ذلـك فنحـن ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقتها تطاحناً على النفوذ الاقتصادي والتنافس التجاري، إن لم يكن بصورة جليّة، فمن وراء الستار".

ويأتي حديث المؤلف عن (حلف الفضول) في نهاية هذا الباب (181-190). وهذا الحلف ينفرد عن بقية العهود والأحلاف عند القرشيين بأهمية خاصة، ورعاية مقدسة، وتبجيل وشرف، لا يحظى بها حلف آخر. وهو حلف تجاري بمقدماته ونتائجه، حفظ سمعة قريش، وصان ازدهار أسواق مكة، وحفـظ حقّ الضعيف بعد أن كاد الأمن فيها يتعرض للخطر، وأوشكت ثقة الأعراب وتجّار النواحي بأسواق مكة تتزعزع.

واسـتمرت ثمـرة هذا الحلف في الإسلام وازدادت تأييداً وقوةً ومنعة، وقد أثنى عليه صاحب الرسالة ﷺ بعد أن شهده وهو فتىً في العشرين من عمره، وكان به جذلان مغتبطاً.

وكـان هذا الحلف منصرف قريش من حروب الفجار لعشرين سنةً من عام الفيل. وسمي بذلك لأنهم تحالفوا على ردّ الفضول لأهلها، وعلى دفع الظلم وأخذ الحق من الظالم مهما كان شأنه، وكان هذا التحالف والتعاهد في دار عبد الله بن جُدْعان.

والمـتأمل فـي هذا الحلف وملابساته وأسبابه يجد أن الداعي الأول له هو حرص قريش على سـمعة بلدهـم الـتجارية أن تُثلم بين العرب فتتزعزع ثقتهم بقريش وبلدهم. ولذلك عظّموا أمر ذلك الحلف واهتموا به كل الاهتمام فقام لهم مقام المحاكم التجارية، والقوة التنفيذية معاً.

وقـد امـتدّ فـي حـياة المسلمين بعد ذلك، وكانت له آثار وفوائد جمّة في العلاقات بين الناس والحكّام وفي رعاية الحقوق.

-7-

ونصل أخيراً إلى الباب الثالث من كتاب "أسواق العرب" وهو أهم أبواب الكتاب (191-454) وأكبرها. وقد جعله مؤلفه في ثلاثة أقسام:

1-الكلام على أسواق العرب عامة (193-229)

2-أسواق العرب في الجاهلية (231-389).

3-أسواق العرب في الإسلام (391-452)

ففي تمهيده عن "أسواق العرب عامةً" يبدأ بالجانب اللغوي لكلمة "السوق" وأنها اشتُقّت من سَوْق الناس بضائعهم إليها، وتذكر الكلمة وتؤنث، والغالب عليها التأنيث. والمقصود بالأسواق هنا ما كان منها موسمياً (سنوياً) يقام في شهر معين أو أيام معينة منه.

وأسواق العرب منها المحلّي الذي يقتصر على ما يجاوره من القرى القريبة كسوق هجَر، ومنها ما كان عاماً يفد إليه الناس من أطراف الجزيرة كلها كسوق عكاظ. فإذا كان لإحدى الأسواق موقع جغرافي ذو بال- كأن تكون على ساحل البحر، مثل سوق عَدَن، وصنعاء وعُمان- كان شأنها أكبر من بقية الأسواق التي في قلب الجزيرة لشيوع الاتّجار فيها مع الجيران، من هند وحبشة وفرس، في حين أن الأسواق الداخلية تقتصر على القبائل المتاخمة لها.

أما الإشراف على أمور تلك الأسواق وشؤون الناس التجارية فكان يتولاه -في بعض هذه الأسواق- أمراء يأخذون الضرائب من الناس، أو رؤساء يبيطون الأسواق لجمع الإتاوات، أو أشراف يفدون على الأسواق التي تكون تحت سيطرة أمير من الأمراء، ليستوفوا نصيبهم من الربح الذي جعله لهم ذلك الأمير. بل إن بعض الأسواق كان يقع تحت سيطرة دولة أجنبية، كسوق المشقّر، التي تحكّم كسرى بأهلها وتجارتها.

وأما عروض التجارة التي كانت تُحمل إلى الأسواق فأكثرها لا يتعدى التمر والزبيب، والزيت والسّمن، والأدَم (الجلْد) والوَرْس (نبات يُصبغ بورقه) وأنواع الطيب، والبُرود، وبعض ضروب الحيوان، كالمواشي والإبل والخيل، حتى القرود أحياناً، وذلك على اختلاف بين سوق وأخرى فيما يغلب على عروضها التجارية بالقياس إلى غيرها.

وهذه الحركة التجارية حملت إلى العرب كثيراً من ألوان الترف التي لا عهد لهم بمثلها، فتغالى أشرافهم بالثياب والبُرود والطيب والسلاح، وشرب الخمر التي أمعنوا في استحضارها من مصادرها المشهورة، من بلاد الشام والعراق، وتمدح الشعراء بشربها والإنفاق عليها، والتردد على حوانيتها، كقول عنترة:

ولقد شربتُ من المُدامة، بعدما ... ركَد الهواجرُ، بالمَشُوف المُعْلَمِ

بزجاجة صفراءَ ذات أسرّةٍ ... قُرنت بأزهرَ في الشمال مفدَّمِ

فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالي وعرضي وافر لم يُكْلَمِ[1]

وهذه الأسواق يغشاها عامة العرب، لأن شغل أكثرهم التجارة، أو الكسب والشراء. وكان أعظم ما يدفع العرب في الجاهلية إلى قصد تلك الأسواق: قيام كثيرٍ منها في الأشهر الحرم، وشيوع الأمن حرمةً للشهر، ولأن مواسم بعض الأسواق كعكاظ ومجنّة وذي المجاز تقع في أيام حجّهم، ويأتونها من كل أوب ومعهم خيرات بلادهم.

ويضاف إلى الأهمية التجارية والأمنيّة، وإلى تحقيق مختلف الغايات في هذه الأسواق أنّ فيها، أو في بعضها تناشد أشعار، وتفاخراً وتكاثراً، وكان لهم حكّام يفضون المشكلات بين القبائل، ومحكّمون يحتكم إليهم الناس في مفاخراتهم وأشعارهم، كما لهم خطباؤهم أيضاً. ومن حكّامهم في الجاهلية: أكثم بن صيفي، والأقرع بن حابس، وعامر بن الظّرب، وصفوان بن أميّة.

وهناك نشاط آخر في تلك الأسواق لا يقل شأناً عن النشاط التجاري، وهو أثر ذلك الاختلاط بين القبائل في اللغة، والعادات، والدين:

فالشعراء في عكاظ يتوخّون اللغة المُجْمَع على فصاحتها، والتي صار لها من النفوذ والشيوع ما للّغات العامة اليوم، فكأن لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة كلّها، لأن قيام هذه القبيلة على الأسواق أعواماً طويلة قبل البعثة مكّنها من أن تتبوّأ في اللغة المكان الأعلى، ولأنها اختارت من لغات القبائل الوافدة عامة ما يَحسُن، ونفت ما يَقبُح، حتى خلصت لها ــ بعد زمن طويل ــ هذه اللغة الممتازة التي نزل بها القرآن الكريم.

أما العادات: فقد سرى التأثر والتأثير بين الوافدين على هذه الأسواق، من حجازيين، ونجديين، ويمنيين، وعُمانيّين، يقبسُ بعضهم من بعض ألواناً من العادات.

وكذلك أمر الدين، ولعل أثر الاختلاط في الدين أبلغ، لقيام الجميع بمناسك واحدة، يؤمّهم فيها قريش أهل الحرم. فأعظم آثار الأسواق قبل البعثة هو هذا التوحيد الذي جرى بين القبائل العربية من عامة الأقطار، ولا سيما التوحيد اللغوي المتمثل في انتقاء الألفاظ والأساليب، وشيوعها بوساطة الرّواة في القبائل. بل إن نهضة الشعر مدينة للأسواق عامة، ولعكاظ خاصة. عُرف لها هذا الأمر منذ الجاهلية حتى اليوم.

فلما جاء الإسلام ضعف الشعر لأسباب شتى، وضؤُلَ أمر عكاظ، ثم احتلّ مكانها سوقُ المربد في البصرة، وراح يتمّم رسالتها في الأدب والشعر، بل زاد عليها بما استجدّ من أمورٍ في حياة العرب المتحضرة، وألوانٍ في المعاش والحياة الاجتماعية والأدبية.

ثم أفل نجم تلك الأسواق برسوخ العرب والمسلمين في الحضارة، ونشوء المدن الكبرى

---

(1) الهواجر: جمع هاجرة، وهي حرّ نصف النهار ــ والمشوف: الإناء الخلق والجار والمجرور "بالمشوف" متعلقان بشربت ــ والمُعْلَم: ما عليه علامة ــ والأسرّة: الخطوط ــ والأزهر: يعني الإبريق الأبيض ــ والمفدّم: ما عليه الفدام وهي المصفاة تجعل على فم الإبريق.

المتناهية في الحضارة. فعكاظ أهملت سنة 129هـ (قُبيل زوال الخلافة الأموية 132هـ). وآخر ما انقرض من تلك الأسواق سوق حُباشة في تهامة، بين الحجاز واليمن، وذلك سنة 197هـ.

أما عدد الأسواق عند العرب، وتحديد أوقاتها، فليس هناك اتفاق بين المؤلفين القدامى على هذين الأمرين ولا سيما تاريخ قيام الأسواق، لعدم التزام العرب كل سنة بيوم ثابت لإقامتها، ويوم آخر محدّد لتقويضها. وقد استطاع المرحوم الأفغاني أن يبلغ بها العشرين سوقاً، وهي ثلاثة أصناف:

1ـ أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي: فارسي، كهَجَر وعُمان، أو روماني كما في بصرى وغزّة. ويتولى أمرها كلّها عُمّال عرب لأخذ الضرائب فهم معيَّنون من قبل ولاة الفرس، وولاة الرومان.

2ـ أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة، فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم وبيوعاتهم، ولا يشرف عليها إلاّ سادة أهلها. وخير ما يمثل هذا الصنف: سوق عكاظ.

3ـ أسواق ذات صبغة مختلطة، نظراً إلى موقعها الجغرافي، وهي التي تكون على البحر: كعَدن، وصُحار. وفيها يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس، ويَضئُل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري.

.8.

ثم ينتقل المؤلف إلى الكلام على "أسواق العرب في الجاهلية" (231ـ 389) وهي عنده عشرون سوقاً واقعة في أماكن تضاف إليها، وهي:

(دَومة الجندل، المشقَّر، هجَر، عُمان، حُباشة، صُحار، دَبى، الشِّحر، عدَن أبْيَن، صنعاء، حضرموت، عُكاظ، مجَنّة، ذو المجاز، نطاة خيبر، حَجْر، دير أيوب، بُصرى، أذرعات، الحيرة).

ويلاحظ أن اسم كل سوق مرتبط بالمكان أو البلد الذي تقام فيه، وأن من هذه الأسواق ما هو داخل جزيرة العرب وهو الأكثر، ومنها ما هو خارجها.

وفي حديث المؤلف عن كل سوق يفصل الكلام على اسمها وموقعها الجغرافي وحدودها وتطوّرها على مر السنين، وصاحبها أو المشرف عليها، ومن يفد إليها أو يجاورها من القبائل، وما يباع فيها من بضائع وسلَع وأمتعة ومؤن، وزمن انعقادها، ومتى تفتر حركتها وينقضي موسمها، وما قيل فيها من الأشعار. وقد يَعرض لنا مشاهد ومنافرات ومواقف فيها كأنك تراها. وحديثه عن السوق يطُول أو يقصُر، يفصّل أو يوجز، بحسب أهمية تلك السوق وشهرتها، أو بحسب ما يتوافر له من مصادر عنها.

على أنه يخصّ سوق عكاظ بأوفى نصيب وأوسع تفصيل، حتى يصل حديثه عنها إلى نحو

السبعين صفحة، ولا يمكن إيفاؤها حقَّها من الكلام في هذا البحث. فلنكتَفِ بأهم ما ذكر عنها في الكتاب:

فمن الناحية الصرفية يجوز صرف اسم "عكاظ" ومنعه. وقد جرى المؤلف على منعه لأنه رأى المنع هو الأكثر فيه والأشهر.

أما اشتقاق كلمة "عكاظ" وسبب تسميتها بذلك، فلّلغويين في ذلك مذاهب، وأقربها أن العرب كانت تجتمع فيها فيعكُظ بعضهم بعضاً في المفاخرة، أي يقهره. وقيل إنها من التعاكظ أي التفاخر.

والزمن الرسمي لهذه السوق هو شهر ذي القَعدة. والأكثرون على أنها تبدأ من أول ذي القَعدة وتستمرّ حتى العشرين منه. ولكن هذا لا يمنع تقاطر الناس إلى عكاظ قبل بداية الشهر، ولا تأخرهم عن العشرين حتى اقتراب موعد الحج.

وموقع عكاظ وادٍ واسعٌ مستوٍ ذو نخيل ومياه، بين مكة والطائف، جنوبيّ مكة إلى الشرق. ويؤمّ هذه السوقَ معظم قبائل العرب، قادمين من العراق والبحرين واليمامة وعُمان واليمن وسائر أطراف الجزيرة يختلط بعضهم ببعض، فهي عامة لا تخص قبيلة أو قبائل بعينها، وهذا من أهم ميزاتها. فضلاً عن أن قربها منحها حرمة عظيمة.

وفي هذه السوق تقيم القبائل، قُبيل قيامهم بالحج، يتبايعون السلع والبضائع، ويتناشدون الأشعار، ويتفاخرون ويتنافرون وكانت الحكومة في الشعر للنابغة الذبياني، كما كان بنو تميم وأفخاذهم يقومون بأمر الحكومة عامةً والفصل والقضاء بين الناس، وضبط أمورهم من خلال الإشراف على السوق، كما تضبط أمورَ كل قبيلة أشرافُها وقادتُها.

فسوق عكاظ إذن مجمع ضخم حافل لم يكن للعرب أحفلُ منه سياسةً ومفاخرةً وفداءَ أسرى، وأدباً وحرباً ومتاجرة، وهي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، بل هي مجمع أدبي لغوي رسمي، يضم الشعراء والرواة من عامة الأقطار العربية، وكل منهم يحمل أدبه و لغته وألفاظه، فما تزال عكاظ بتلك اللهجات غربلةً ونخلاً واصطفاءً حتى يتبقى الأنسب الأرشق، ويُطرح المَجْفُوُّ الثقيل.

وعكاظ هي السوق التجارية الكبرى لعامّة أهل الجزيرة، يُحمل إليها من كل بلد تجارتُه وصناعاته وأدبه: من خمر بلاد الشام والعراق، وبُرود اليمن الموشّاة، وأنواع الطيب والسلاح، ويباع فيها الحرير والأحذية، وزيوت الشام وزبيبها، حتى الرقيق الناشئ عن الغزو، وسبي الذراري يباع فيها بيع المتاع التجاري.

ثم إن هذه السوق معرض لكثير من عادات العرب وأحواليم الاجتماعية التي سبقت الإشارة إلى بعضها: من خطب ومنافرات وتحكيم بين الخلافات، ومصارعة بين الأبطال من الفتيان، ووجود فئات أخرى غير أولئك، من كاهن وعرّاف وعائف وقائف[1] وقِرْدٍ وغنم وصحيفة وكاتب.

---

[1] العائف: من يزجر الطير، فيكون طيرانها سبباً للتشاؤم أو التفاؤل. وصنعته العيافة. والقائف: من يُحسن معرفة الأثر وتتبّعه. وتسمى حرفته: القيافة.

وهناك أناس من غواة الشهرة: هذا يمدّ رجله متحدّياً وينشد شعراً ويقول: "من كان أعزَّ العرب فليقطع رجلي". وآخر يأتي عكاظ ببناته ترويجاً لزواجهن، وأناس قدموا إليها ليختاروا من يتزوّجون إليه. وهكذا تكون في عكاظ أشياء لا تُعهد في أسواق العرب الأخرى.

وعكـــاظ أيضـــاً نـــدوة سياسية عامة، تُقضى فيها أمور كثيرة بين القبائل: من جمع الإتاوات، وإعـــلان المآثـــر شعراً، وإعلان الحرب على عدو، والتشهير بمن يأتي عملاً شائناً، واستلحاق أحد بنسب رجل، أو التبرُّؤ علناً من قريب لسبب ما، حتى لا يتعامل معه أحد.

والخلاصـــة أن هـــذه السوق الكبرى، سوق عكاظ، تمثّل لنا ــ بما يكون فيها ــ أحوال العرب وعـــاداتهم الاجتماعـــية في جوانب كثيرة كما رأينا. وهناك شبه كبير بين عكاظ ومعارض عصرنا هذا، بل إن عكاظ لأوسع مدى، فهي لا تقتصر على مواد التجارة والصناعة، بل تتعداهما إلى الأدب والشـــعر والحـــرب والسّـــلم والعادات السائدة. وما يجري في عكاظ كان يجري قريبٌ منه في بقية أسواق العرب، ولكن بصورة مصغرة.

وبعد الكلام المفصل على عكاظ، وأحوالها، وتاريخها، مما سبق بيانه، يعرض المؤلف لنا مُثُلاً ومشاهد ونصوصاً عما كان يجري في عكاظ (293ــ 337) استمدّها من مصادر شتى قديمة، نكتفي منها بالمشهد التالي بعنوان "ما رأيت شيخاً أكذب" ص(337):

"مـــرّ المستوغر بن ربيعة[1] ــ شاعر معمَّر ــ بعكاظ يوماً، وعلى ظهره ابنُ ابنه شيخاً هرماً، فأعيا من حَمله، فوضعه بالأرض وقال: عنيّتني صغيراً وكبيراً. فسمعه رجل فساءه ذلك، فالتفت إليه ناصـــحاً: يـــا عبد الله، أتقول هذا لأبيك؟ أحسنْ إليه، فطالما أحسنَ إليك. قال المستوغر: أتدري من هو؟ قال الرجل: نعم، هو أبوك أو جدّك. قال: هو والله ابنُ ابني. قال الرجل: ما رأيت شيخاً أكذب. لو كنتَ المستوغر بن ربيعة ما زدتَ. قال: فأنا المستوغر بن ربيعة".

وبعـــد أن يعـــرض المؤلف هذه المشاهد المختلفة لعكاظ والتي جعلتنا نعيش أجواء هذه السوق، ونستحضرها في أذهاننا خلال قراءاتنا الأدبية أو التاريخية، عن ذلك العصر، يقول:

"الآن تستطيع أن تفهم: لِمَ يعدّ مؤرخو الأدب عكاظ في أول ما وحّد لهجات القبائل العربية قبل نـــزول القرآن الكريم بأكثر من قرن، وهيأ لقريش تلك الزعامة والتحكم في اللغة والانتقاء، فسلمت من عيوب اللهجات، وعرفت أيضاً أن عكاظ دنيا تعجّ بالقاصدين من كل فجٍّ عميق... فأنت إذ تجول في عكاظ يتقسم سمعك خُطَبٌ وقصائد ومفاخرات ومنافرات وخصومات، وأنماط من البيع لا تتشابه وأزياء في اللّبس والتكلم والمراكب...، تجمعت من كل صوب".

ويختم كلامه على سوق عكاظ بقوله: (ص342):

---

(1) عُمّـــر طويـــلاً جداً، وأدرك صدر الإسلام. ولقد بالغوا في عمره حتى أوصلوه إلى (320) سنة، وقد سئم حياته وكثر أحفاده الصغار. ومن شعره:

مـــئة أتـــت مـــن بعدهـــا مئتان لي ... وازددتُ مـــن عـــدد الشـــهور ســـنينا

"لســنا نعلم لهذه السوق بداية محدودة. إلا أنّا نرجح وجودها قبل القرن السادس الميلادي. ولما جاء الإسلام وتوطدت أركانه في الجزيرة والعراق والشام، بدأ شأنها يضؤل. ولم تزل قائمة إلى أن خرجــت الخــوارج الحرورية مع المختار بن عوف بمكة سنة 129 للهجرة، فنهبوها، فتركت إلى الآن.

وعلى هذا تكون هذه السوق قد عمّرت أكثر من قرنين ونصف القرن"[1].

.9.

وفــي القســم الثاني من الباب الثالث، يتحدث سعيد الأفغاني رحمه الله عن "**أسواق العرب في الإســلام**" ص 393ـ 452 ويمهّد لذلك بالإشارة إلى أن العرب تحضروا في الإسلام وسكنوا المدن الكبــيرة مــن بــلاد الشــام والعراق ومصر وفارس والروم، كالكوفة والبصرة وبغداد والقيروان، فصارت كل مدينة تستغني بأسواقها المحلية الدائمة عن الأسواق السنوية الموسمية، وكفى الله العرب مؤونــة الترحال بين أسواق الجزيرة، بما فتح الله عليهم، وما سهّل من تجارات تأتيهم إلى مدنهم من البلدان الأخرى.

فامّحــت أســواق الجاهلية قُبيل انقضاء القرن الثاني للهجرة، ورسخت أقدام التجارة في المدن والثغور.

ولكــنّ سوقاً واحدة نشأت في الإسلام، واحتفظت بكثير من خصائص أسواق الجاهلية، وزادت علــيها بميزات واسعة، جاءت بها الحضارة الجديدة والرقي المستحدث، تلك السوق هي سوق المربَد فــي البصــرة. وقــد استطاعت هذه السوق أن تصير الحياتين معاً: الجاهلية والإسلامية، في بوتقة واحدة لتصوغ منها هذه الحلية العجيبة.

كانــت هــذه الســوق إذن تُقام في مدينة البصرة، وهي سوقها العامة. ولهذه المدينة (البصرة) مكانــتها الــتجارية، فهي ثغر العراق في الإسلام، بعد أن استُحدثت وخُطّت سنة 17 هــ بأمر من الخلــيفة عمر بن الخطاب، وكانت موضع اهتمام الخلفاء من بعده حتى عُدّت من أكبر ثغور الإسلام قاطــبةً، ومــن غــنى المدن وأحفلها بأسباب الحضارة والرقي، وهي ميناء العراق الأكبر، وسوق العراق العامة.

ولا ننس هنا أن نشير إلى شهرتها الأخرى، وهي ما استفاض فيها من علوم ولغة وأدب وشعر حــتى صــارت تُقصــد لذلــك من دون سائر البلاد، وكثر فيها العلماء والشعراء والأدباء والكتّاب والفقهــاء والقــرّاء كــثرةً تستعصــي على الإحصاء. ويكفي أنها أظهرت ثلاثة من فرسان البلاغة والعــبقرية الذيــن تشاركوا في صفتها وهم: خالد بن صفوان التميمي، والخليل بن أحمد الفراهيدي، والجاحظ.

---

[1] أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ص 342ـ 343.

وقد اشتهرت البصرة بسوق المربد الموسمية، التي ورثت سوق عكاظ، وقضت على ما كانت تتمتع به من ميزات منذ عصر الراشدين فما بعده، حتى أصبحت "عكاظ الإسلام".

كان موقع المربد في الجهة الغربية من البصرة إلى البادية، ليكون أول ما ينزلون به إذا قصدوا البصرة، وآخر ما يتركون إذا رحلوا عنها. ومعنى "المربد": مَحبس الإبل ومربطها، وبيدر التمر. ويبدو أنه كان في الأصل كذلك، ثم صار في العصر الأموي سوقاً عامة كسائر الأسواق الموسمية في الجاهلية: من تعاطي البيع والشراء، وسماع الشعر والأدب والخطب واللغة، إلى جانب تفاخر الأشراف، وتهاجي الشعراء وتشاور الناس، وإحياء ما أماته الإسلامُ من حمية جاهلية وعداوات وثارات.

وهذه السوق تقع حوادثها ونشاطها بين سنة 36 هـ (في أول خلافة الإمام علي) وأواخر القرن الثاني الهجري (في خلافة الأمين بن هارون الرشيد)، إذ اضمحلّ شأنها مع سوق حُباشة آخر أسواق الجاهلية انقراضاً وزوالاً.

ولهذه السوق "المربد" أثر بعيد في اللغة العربية من وجوه كثيرة فاقت فيها أثر عكاظ. وكانت تعج بأعلام اللغة والأدب والشعر والنحو، الذين يفدون على المربد ومعهم محابرهم ودفاترهم يكتبون عن فصحاء الأعراب هناك، بعد أن انتشر اللحن والعجمة، وبدأ التدوين والتأليف على نطاق واسع. وكذلك الشعر وحلقاته، فلكل شاعر حلقة، ولكل متهاجين مجلس، ولكل قبيلة ناد وشاعر يذود عنها.

ثم إن المربد يتفرد بأنه رفدَ اللغة بمادة كثيرة، عليها أسس النحاة قواعدهم وضبطوها عن طريق الاتصال وملازمة فصحاء الأعراب للاستفادة والتعلم. فكان المربد ينبوعاً ومصدراً لأكثر مواد كتب الأدب واللغة والأخبار: كالأغاني، والأمالي، والبيان والتبيين، والكامل...

وهكذا جمع المربد بين التجارة والأدب واللغة والسياسة والحرب أيضاً، إذ كان مسرحاً لموقعة الجمل، وثورة عبد الرحمن بن الأشعث أيام ولاية الحجاج على العراق، وفي المربد ألقى ابن الأشعث خطبه في حضّ الناس على الثورة. واتسع أمر المربد وكثر قاصدوه وازدان بأفحل الرجّاز والشعراء الذين أخرجهم العهد الأموي: كجرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري، ومن الرجّاز: أبو النجم العجلي، ورؤبة وأبوه العجّاج.

واستمر المربد في العصر العباسي، على شيء من الاختلاف عما كان يؤديه في العصر الأموي، وتبدلت الحياة الاجتماعية للناس، وظهرت العلوم تزاحم الأدب والشعر، وبدأ الفساد واللحن يسريان إلى اللغة فتحول المربد ليؤدي غرضاً يتفق وهذه الحياة الجديدة، وأصبح مقصداً للأخذ عن الأعراب: اللغة والشعر والأخبار لتدوين ذلك كلّه، فيقصده أمثال بشار بن برد، وأبي نواس، والأصمعي، وأبي عمرو بن العلاء. وخرج النحويون ليسمعوا من أهل المربد ما يصحح أغلاطهم، ويؤيد مذاهبهم، من كوفيين وبصريين، كما خرج الأدباء ليأخذوا الأدب، من جُمل بليغة، وشعر رصين، وحكم وأمثال، مما خلّفه عرب البادية أو توارثوه عن آبائهم، كما فعل الجاحظ.

كل ذلك نجده في المربد الذي أصبح أيضاً مَنشَرةً للمحامد والمساوئ، لتكون أشْيَع وأسْيَر وأبلغ

في الإرضاء والإغاظة. كما كان المربد مسرحاً لدعوات سياسية ودينية واستغاثات وشكوى ورثاء وفخر، كما كانت سوق عكاظ. وكان أحفل أيام المربد في النصف الثاني من العهد الأموي، والثلث الأول لعهد العباسيين.

وبعد أن أوفى الأستاذ الأفغاني على الغاية من الكلام على سوق المربد، راح يسرد مشاهد ونصوصاً قديمة تكمّل صورة هذه السوق على اختلاف المناحي والغايات، ولا سيما في الفترة الخصبة والحافلة التي سبقت الإشارة إليها. وكان عدد ما أورد من النصوص والأخبار والمشاهد تسعة عشر، وكلّها حافلة بما كان يجري في المربد من حوادث ومواقف غنية وطريفة. (424–452). فمن ذلك خبر أورده بعنوان "مجنون في حب". وهو منقول عن أمالي القالي، رواه أبو علي بسنده عن محمد بن أبي نصر، قال:

"رأيت بالبصرة مجنوناً قاعداً على ظهر الطريق بالمربد، فكلما مرّ به ركْبٌ قال:

ألا أيّها الركب اليمانون عرّجوا ... علينا، فقد أمسى هوانا يمانيا

نسائلكم هل سالَ "نَعمانُ" بعدكم؟ ... وحُبَّ إلينا بطن "نَعمان" واديا

فسألتُ عنه، فقيل: هذا رجل من البصرة، كانت له ابنة عم يحبّها، فتزوجها رجل من أهل الطائف فنقلها، فاستُولِهَ عليها[1]".

.10.

وبانتهاء الكلام على المربد، ينتهي كتاب "أسواق العرب في الجاهلية والإسلام" لأستاذنا سعيد الأفغاني رحمه الله. **وجاءت بعد ذلك فهارس الكتاب**، التي تيسر الانتفاع به وتضع مضامينه على حبل الذراع، وهي ثمانية فهارس أو مسارد:

(الآيات، الأحاديث، الأعلام، الجماعات، الأماكن، الأشعار، الكتب، الموضوعات).

ونعقب على ذلك كلّه بجملة من الملاحظات حول هذا الكتاب القيّم:

1– يعدّ هذا الكتاب دُرّة ثمينة في عقد مؤلفات الأفغاني، بموضوعه الذي لم يُسبق إليه قط، وما زال مرجع الناس في ميدانه إلى اليوم، ولم يؤلَّف بعده مثله، وقد قدّم للباحثين والمؤرخين خدمة جليلة تبقى على الدهر.

2– بذل مؤلفه فيه جهوداً مضنية وهو يجمع ما تفرق في بطون الكتب، من أدب ولغة وتاريخ، ولم يكتف بما عرضه من أخبار الأسواق عند العرب، بل عني – إلى جانب ذلك – بما يغني تاريخ الأدب والسياسة والاجتماع والاقتصاد في العهود العربية الإسلامية من

[1] أسواق العرب ص 425 وقد التزمنا نصّ أول الخبر كما ورد في الأمالي 2/ 123. ونَعمان، بفتح النون اسم واد مشهور. والوَلَه: ذهاب العقل من حزن، والحيرة والخوف. وفعله: استُوْلِهَ.

الجاهلية حتى أواخر القرن الهجري الثاني، سواء في ذلك الجزيرة العربية، وبلاد الشام والعراق.

3ـ حرص المؤلف كل الحرص على أن ينقل القارئ إلى جوّ تلك الأسواق فيراها كما هي، من خلال ما توافر له من المصادر، فرأينا فيها عادات العرب وبيوعاتهم وتجاراتهم وصناعاتهم، حتى مجالسهم الأدبية وبلاغتهم الشعرية والنثرية،...

4ـ ربما كان في الكتاب وأخبار الأسواق، والأشعار المسرودة، ما قد يُظن أنه مصنوع. ويعلل المؤلف ذلك بقوله: "غير أن صانعه قد اجتهد أن يقلّد فيحسن التقليد، ويُحاكي الأصلي، فيُحكم الحكاية، فإن شككنا في نسبة الخبر، لم نشك أبداً فيما يدلّ عليه، أو يستخلص منه"[1].

5ـ عني المؤلف بشرح ما يمرّ به في متن الكتاب ونصوصه الشعرية والنثرية، من ألفاظ غريبة، أو معانٍ مغلقة، وهذه بادرة طيبة، وبذلك يكون المؤلف قد بلغ جهده واستفرغ وسعه في الاجتهاد ـ كما قال ـ "لأن يكون هذا العمل أقرب من كمال، وأبعد من نقص"[2].

6ـ وورد في مطاوي الكتاب، عند الاستشهاد ببعض النصوص، هناتٌ يسيرة جوّز المؤلف لنفسه نقلها في كتابه، مع تصريحها بما يُحتشم منه ـ كما قال ـ "لأنها لا تتم الصورة إلاّ بها، ولأني أحرص على أن يتمثل القارئ حالة الأسواق تمثلاً صادقاً صحيحاً كاملاً، على قدر الإمكان"[3].

7ـ نحن نعلم أن هناك سوقاً أخرى في الإسلام هي (سوق كناسة) وكانت في مدينة الكوفة. إلا أن الأفغاني رحمه الله لم يعتدّ بها وأغفل الكلام عليها، واكتفى بأن قال عنها: "ليس لها ذلك الشأن". وقال في موضع آخر من كتابه: "أقام الكوفيون (سوق كناسة) بالكوفة لتقوم لهم بما يقوم المربد للبصريين، فلم يفلحوا، ولم تُذكر سوقهم قطّ، ولا قصدها مثلُ من يقصد البصرة، من فصحاء العرب وخطبائهم وشعرائهم ورجّازهم، بل كانت إلى إفساد اللغة أقرب"[4].

8ـ يلاحظ قارئ هذا الكتاب ما يساور خاطر مؤلفه من هاجس ملحّ، وهو الحرص على نهضة العرب والمسلمين، ووحدتهم، والأسى لما وصلت إليه حالهم بعد الأمجاد التليدة والحضارة الزاهية. ولذلك لا يدع المؤلف فرصةً تمرّ إلا ربط فيها الماضي بالحاضر، ونبه الأذهان إلى الأخطار المحدقة بالأمة، سياسياً واجتماعياً وثقافياً وحضارياً.

---

(1) أسواق العرب، المقدمة ص 11.
(2) أسواق العرب، المقدمة ص 11.
(3) انظر المصدر نفسه، ص 11 أيضاً.
(4) المصدر نفسه، ص 407 ثم 423. وسبق مثل قوله هذا في كتابه: "في أصول النحو"، الطبعة الثانية، ص 199.

ولـم يكن عمله ــ على عظَم قدْره وجليل محتواه ــ مجرّد تأريخ لأسواق العرب في الجاهلية والإسلام، فحسب. ولذا نراه يحرص في كل مناسبة على التذكير والتنبيه وإثارة الهمم والعزائم.

وأكتفـي من ذلك بمثال واحد، وذلك حين تحدث المرحوم الأفغاني عن أيام حروب الفجار، إذ ختم كلامه عليها بقوله:

"هكذا كانت تجارة العراق في عكاظ وما يفيده من يُجيرها من أرباح مادية ومعنوية هو وقبيلته، سـببا مغـريا فـي هذه الحروب. وأي بدع في هذا؟ فإنا ما نزال إلى اليوم نرى أكثر الحروب في حقيقـتها تطاحـنا علـى الـنفوذ الاقتصادي. وتكاد أحداث القرن العشرين كلها تكون حول التنافس التجاري، إن لم يكن بصورة جليّة، فمن وراء السّتار"[1].

**

طـبع كتاب **"أسواق العرب غير مرّة"**. وأولى طبعاته سنة 1355هـ/ 1936م. وثانيتها نشرت مـنقحة ومـزيدة فـي 526 صـفحة مع الفهارس وصدرت عن دار الفكر بدمشق سنة 1379هـ/ 1960م. ثـم ظهـرت الطـبعة الثالثة سنة 1413هـ/ 1993م عن دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة. وأخيرا صدرت الطبعة الرابعة سنة 1416هـ/ 1996م في الكويت قبل وفاة مؤلفه رحمه الله.

***

أهمّ مصادر البحث

1ـ *أسواق العرب في الجاهلية والإسلام: سعيد الأفغاني ــ الطبعة الثالثة بالقاهرة 1413هـ/ 1993م.*

2ـ *بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي (الطبعة المصورة). بيروت*

3ـ *تاج العروس: الزَّبيدي- طبعة الكويت.*

4ـ *القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله ــ القاهرة. 1383هـ / 1963هـ .*

□□□

[1] *أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص 180.*

مُعَلِّمٌ وتِلْمِيذ

د.محمد رضوان الداية*

كان ***يجذب انتباهي–وأنا أطالع كتب التراجم– وَصفُ أحد الأعلام بأنَّه كان يشتغل بالتَّعليم. وكان يُعجبني جدًّا أن يكون في صفة بعض المُشتغلين بالتَّعليم أنَّه معلِّمٌ ناجح، أو مدرّسٌ بارع، وأنّ تلامذته كانوا يلتفون حوله، ويُداومون على حُضور حلقات دروسه ومُحَاضراته؛ وأنَّهُ مُعَلِّمٌ حَسَنُ التَّعليم، جَيِّدُ التفهيم.***

ولفتَ نظري أيضاً أنّ هؤلاء المعلمين الموصوفين بالإحسان والإتقان في مِهْنَة التعليم كانوا يُتْقِنون التّصنيفَ والتّأليف؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال: الأعْلَم الشَّنْتَمَريّ شارح الأشعار الستة، وشارح حماسة أبي تمام؛ وابنُ السِّيد البطليوسي شارح لزوميّات المعرّي، وهما من أشهر أدباء الأندلس وعلمائها.

(1)

أُتيح لي في سنوات دراستي في الجامعة السورية (التي تَحَوّلَ اسمُها على أيّامنا إلى جامعة دمشق) أن أتَتَلْمَذَ على عدد من الأساتذة الذين يصحّ أن يطلق عليهم اسم المُعَلِّم، ويصحّ أن تُطلَق عليهمُ الألقابُ الأخرى –لو كانَ في إطلاقها زيادة– مثل: المُرَبّيّ، والأستاذ، والمحاضر، والمُوَجّه.

على أنّ إيراد كلمة "المعلم" وَحْدَها يكفي–عندي– للدّلالة على أرقى درجات الخبرة والمعرفة وسائر ما يتعلّق بالتّلقين والتفهيم وتفتيح الذّهن، والتّبصير بالمَنهج، والدلالة على الأُصول، والقدرة على الارتقاء بالدارس في مدارج العلم، والموضوعية في إعطاء المعلومات، والجَوْدِ بالرأي والخبرة، والنُصح في القول، والرفق بالمتعلّم، والتّسوية بين الطلبة، والسَيْر بسَيْر أوسط الطَّليعة في الدرس والمحاضرة، ونقل الخبرة إلى الطالب بِيُسْرٍ وسهولة، والثّقة بالدارس، ورَفْع مَعْنَويّاته، والأخذ بمبدأ الثّواب والعقاب من مقاصد التربية الإسلاميّة.

---

* باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب.

ومــن صــفات المُعلّم الذي نَصِفُهُ في الجامعة السُّورية في ذلك الزّمان: أنَّه يُتابع الجديد الذي يظهــر فــي مجالــه (ونَقُول في بعضِهم: في مَجَالاته) من نظريّات مُستحدثة، وآراء جديدة، وكتب مُتواليــة.. ويحــتكّ بــأُمور الحَياة فَيَصِلُ بين طُلاّبه وبين شؤون الدُّنيا من حولهم، ويجعل ذلك كلّه مصــبوباً فــي بوتقة واحدة، أو صادراً عن حديقة متناسقة الألوان والطّيوب... فإذا بالدّارس يزدادُ علمــاً ومعرفةً، ويترقّى خبرةً ومقدرةً، وتَتَفَتَّحُ ملكاتهُ، ويَنْمُو استعدادُهُ، ويَعْرِفُ أحوالَ الدّنيا وشؤونَ الحياة تَدْريجاً: مثلما يَتَرقّى في اكتساب المعرفة، وتوسّع الخبرة عُلوّاً وارتقاءً.

وكانَ في هؤلاء المُعلّمين النّاصحين، والعارفين النّافعين، والذين تجتمعُ فيهم خصالٌ عظيمةٌ من خصــال المعلّم، ويتميّز كلّ واحد فيهم بمزيّةٍ أو مَزَايا خاصّة تُلوّن ثقافتَه وتخصّص أُسلوبه، وتَكُونُ عــنواناً عليــه: الدكــتور عمر فرّوخ، والأُستاذ عمر الحكيم، والدكتور عبد الكريم اليافي، والدكتور شــكري فيصــل، والأُستاذ سعيد الأفغاني، إلى معلمين آخرين أَفَدْنا منهم، وفتحوا لنا من آفاق العلم والمعرفة..

(2)

كــان أول درس جامعي حَضَرْتُهُ من محاضرات قسم اللغة العربية من كلية الآداب أوائل العام الدراســي 1956-1957 درْساً في النحو في القاعة الرابعة في المبنى القديم للكلية (الثكنة الحميديّة قديماً) وكان المحاضر هو: الأستاذ سعيد الأفغاني -وقد عرَفْنا اسْمَهُ من جَدْوَلِ المُحَاضرات-: رجل معــتدل القامة، إلى القِصَرِ أقرب، بَدَا في وجه أبيض مشرب بحمرة، أَخَذ الزَّمَنُ من شعر رأسه كما أخــذَ مــن ســواد ذلك الشّعر. وتمكّن من جلسته، ووزّع نظراته على الطلبة، وتحدّث بحيث يسمعه الحاضــرون وهــم سُكوت. وأَلْقَى حديثه بهدوء وأناة، ومَزَجَ الحديث بابتسامة طبيعيّة تنمّ عن ذاته الشخصية، وخُيّل إلينا أنه مفطور على هذه المظاهر التي رأيناها فيه منذ مُقتبل حياته!.

كــان عَــدَدُ الحضــور من الطّلبة في ذلك اليوم قليلاً، كالعادة في أيّام التدريس الأُولى، فجَعَل الأُســتاذ الأفغانــي الــدّرْسَ فرصةً لِعَرْض الخطة الدرسية للنّحو في ذلك العام، وأشارَ علينا باقتناء الكتــب المطلوبــة، وأجْرَى بعضَ التّدريبات الإعرابيّة حتى لا يخلو الدرسُ من فائدة، من أوّل يوم دراسي. وأَذكرُ أنّه كتب على اللّوح قول جرير:

تَمُــرُّونَ الدِّيــارَ ولــم تَعُوجُــوا   كلامكــمُ علــيَّ إذَنْ حــرامُ!

وســأل عــن خَلَــلٍ في البيت: أين هو؟ وما وجهه؟ فاستأذنتُ للإجابة وقلت: إن البيت يعطف ماضــياً (لــم تعوجوا) على مضارع (تمرّون) وهذا لا يستوي. فأعجبه الجواب، وسأل عن اسْمي؛ وقــال لنا إنّ رواية الدّيوان: "مررتم بالدّيَار..." هي الوجه، وردّد علينا مذهبه في الأُصول المقرّرة، المعتمدة عنده، في النحو؛ المُثبت في صدر كتابه: "مذكرات في قواعد اللغة العربية".

ومــنذ هذا اليوم الأوّل من لقائي بالجامعة، ومحاضرات قسم اللغة العربية شَعَرْتُ بأنه سيكون لي ارتباطٌ-قاعدَتُه العِلْمُ والتعلّم- مع هذا المعلّم الذي افتتح لنا دروس الجامعة، وانْتَظَرْنا في محرابها.

(3)

تدرَّجَتْ علاقتي مع الأستاذ سعيد الأفغاني منذ مرحلة الدّراسة عليه، على امتداد ثلاث سنوات غنيّة لا يُنسى شيءٌ منها، ثم الاستظلال بظلّه وهو رئيس لقسم اللّغة العربية وآدابها وأنا معيدٌ أَنشأُ مع زملائي الذين اختارهم هو معيدين يجدّدون حياة القسم، ويكونون النسغ الجديد؛ وبعد العودة من الإيفاد، وهو رئيس للقسم وعميد لكلية الآداب حتّى أُحيل على التّقاعد سنة 1968. وبقيتُ على صلة بـه مع إمكان الظّروف فقد كُتبَ عليَّ السّفر ضَرْباً في الأرض، وسعياً وراء الرزق، واستراحة من المُزعجات، وعَرَفَ أُستاذنا الاغتراب كبيراً في السنّ بعد التقاعد: فقد استجابَ لعدد من الجامعات في لُبْنان، وليبية، فَنَهَضَ بأعباء التدريس والإدارة، وختمَ اغترابه بالتدريس في جامعة الرّياض وظلّ يدرس حتى بلغ الخامسة والسّبعين (ولد 1909 وتوفي 1997).

لقد كانت مرحلة الدّراسة الجامعية الأُولى على يدي الأفغاني هي مَرْحلة التعلّم وحُسْن التلقّي من قِبلَنا نحن الطلبة، وكانت مرحلة التعليم الجامعي في أعلى مراتبه من قِبَله.

وكان التّفاهم على أعلى دَرَجاته بين الأفغاني وبين طلبته وطالباته: من مُعَلّم ليسَ عنده غير الجِدّ في التّعليم، والرَّغبة المتمكّنة في التّفهيم، وإذا كان لكلّ طالب من هذا المعلّم نصيبٌ فإنّه كان يَرْعى من بعيد: المتفوّقين من طلابه وطالباته، ويجتهدُ في معرفتهم، ويتابعهم عاماً بعد عام، ويَرْضى عن ظهور النّوابغ أو النّابهين فيهم.

وكان هذا التّناغم والتفاهم بين المعلّم وتلاميذه قائماً دائماً بهدوء وتلقائيّة، وتَراضٍ، وكأنّه عَقْدٌ في وثيقة مكتوبة، وعهد مُبْرَم، وصكّ موثّق!..

(4)

لا أعرف أستاذاً معلماً للعربيّة -كالأفغاني- يوصل إلى طُلاّبه مقاصد المادة التي يدرسها، ويُثْري فكرهم وذهنهم بمضمونها، ويعطيهم ناصية مفرداتها، ويُسلس لهم قيادها، ويجعل مهاراتها ملكاً لهم يعرفون كيف يفيدون منها، ويجعلونها في محفوظهم الذي يَبْقى، وعلمهم الذي يَحْيا، وقدراتهم التي تظهر آثارُها عليهم، ومعارفهم التي تبدو خصائصُها فيهم.

فالنحو والصّرف وأصول النحو والمسائل الخلافية النحوية والصرفيّة ومعاني الأدوات وغيرها من جليل المسائل والقضايا إلى صغارها وبَسَائطها تنتقل من المعلّم إلى تلاميذه، وهي تنفذ إلى فهم الدارس، وتستقرّ في وجدانه، وتصبح في جُملة معلوماته، ثم تكون متحرّكة: لتضبط له أُسلوبه، وتصوّب عبارته، وتنطلق من عنده إذا أراد أن يُعيد المعلومات أمام أصحابه، أو إذا أرادَ تقرير شيء منها على تلامذته حين يدرّس في المدارس الإعداديّة والثانويّة...

وهكذا، فقد كانَ في طُلاّب قسم اللغة العربية من جامعة دمشق مَنْ يستطيع -ويستأهل- أن يدرّس وهو ما يزال على مقاعد الدرس في الجامعة، ويكون له اسمٌ ذائع وشهرة واسعة!..

وهذا، عندي، من أهمّ ملامح نجاح التّعليم والتّفهيم، ونقل الخبرة والمهارة.

(5)

اعتمد الأفغاني في التعليم والتفهيم والإفادة والتّربيّة والتّهيئة على أربعة أمور: تتفق، وتتواصل، وتتدرّج:

1)-الدّرس، أو المحاضرة؛

2)-الكتاب الذي وضعه بين أيدي طلاّبه؛

3)-والمتابعة في الجانبين المتّواصلين: أ)-المكتبة. ب)-والمنزل؛

4)-الامتحان الّذي جَعله حقّاً تغذية راجعةً عظيمة الفائدة.

ودَرْسُ الأفغانـي فـي شـقّين متمازجين متكاملين: الجانب النظري، والجانب التّطبيقي. وكان يفضّـل أن يُبَيّن الحكم، ويبني القاعدة من خلال التّطبيق، وانتقالاً من الشواهد إلى القواعد. والطالب عـنده جزءٌ من العمليّة التعليميّة، فالتدريب مستمر، والاستعانة بالطّالب ليُجيبَ ويناقشَ، أحدُ أساليبه في كسر الحاجز بين الطّلبة وبين مادة النحو والصّرف التي يقع الظنّ -أو الوَهْمُ- أنها مادة صعبة..

كـان للأسـتاذ الأفغانـي كتابان يوضعان بين أيدي الطلبة: أحدهما "مذكرات في قواعد اللغة العربـيّة" يُدرس في السّنة الأولى، والثاني: "في أصول النحو" يدرس في السنّة الثالثة ويغطي جزءاً من المنهاج المطلوب فيها.

ويستكمل الدارس علومه في النحو والصرف والمسائل والأدوات من كتب أُخرى مطلوبة منه: بيـن مـادّة تُقَرَّرُ في الصّف ومادّة يُحضّرُها الطّالب، وتُراجَعُ في الصّف، وتكونُ في المطلوب في الامـتحان. وفـي هـذه الكتب: "دروس اللغة العربيّة، لحفني ناصف ورفاقه، وجامع دروس اللغة العربيّة لمصطفى الغلاييني، وشذا العرف في فن الصرف للحملاوي وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مـالك؛ والإنصـاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري. أمّا كتابا شذور الذهب وقطر النّدى فيكونان للـتدرّب والـتفكّه أيضاً. ويبقى كتاب "مغني اللبيب" لدراسة الأدوات، ولاختيار مسائل مختلفة للسّنة الثالثة.

ودارس العربـيّة عـند الأفغاني لا يتخرّج في السنة الثالثة حتى يكون قد استوفى كلَّ ما ينبغي معرفـته في النّحو والصّرف إضافة إلى معرفة الأدوات الأساسية -وهي كثيرة- وإلى التّدريب على مسائل خلافيّة، ودراسة أُصول النحو.

وعمـاد معـرفة الـنّحو والصّـرف عند الأفغاني النّجاحُ بجدارةٍ في الإعراب. وكانت درجَةُ الإعـراب والتّطبـيق عالـيةً دائماً. وكان هذا أهمّ المداخل إلى إتقان اللّغة واكتساب ملكاتها. وكان شعارُه الذي يُعلنه دائماً: "لا إعرابَ بلا فهم المَعْنى، ولا فهم للمعنى إن لم يصحّ الإعراب".

ومن هنا كانت الشواهد النحويّة والصّرفيّة في درسه تطبيقاً عملياً من جهة، ومدخلاً إلى الشرح

اللغوي والفهم الأدبي من جهة أخرى.

(6)

تدرَّجنا في دراسة النحو والصرف وما يلحق بهما تدرُّجاً زمنيًّا متوافقاً مع التدرّج في المستوى: نظريًّا وتطبيقيًّا. وتعاملنا مع هذا "الاختصاص" قواعدَ وإعراباً: حفظاً، وتدرُّباً، ومحاورةً. وكان إنجازنا السنة الثالثة إيذاناً باستواء الواحد فينا على قدمين ثابتتين في "علوم العربيّة". وظهرَ هذا لنا حين أوفدنا إلى القاهرة، وقدَّمنا امتحان درجة الدبلوم.

لقد تكوّنت لدراسي علوم العربيّة في الشّام سمعةٌ حَسَنَةٌ في المعرفة بها، وإتقان تعليمها، وشهِدَت البلدان المتخلفة بغزارة معلومات خرّيجي الجامعة السّوريّة (دمشق بعد ذلك). ومَرَدُّ هذا إلى خصائص قسم اللغة العربيّة (في تلك الأيّام) عامَّةً، وسُمعة أ.الأفغاني معلّماً ناجحاً؛ خاصَّة. وإلى هذا اليوم، إذا ذُكر النَّحْوُ في بلاد الشام ذُكر معه اسمٌ لامع في تاريخ التعليم: سعيد الأفغاني.

وقد انتقلتْ سُمْعَةُ هَذا المعلّم النّاجح، إلى حَيْثُ انتَقل هو بنفسه -بعد تقاعده من جامعة دمشق- فعَرفه الدّارسون عن كَثب؛ وإلى حيث ذهبتْ كتبُهُ الّتي قُرِّر عَدَدٌ منها في عدد من الجامعات، واعتُمِدَ بعضٌ منها مراجعَ أساسيَّةً أو مساعدة.

(7)

حين حقَّق الأُستاذ الأفغاني كتابَي ابن الأنباري: الإغراب في جدل الإعراب، ولُمَع الأدلّة، وزّع أوراقاً منهما على عدد من الطلبة تدريباً وتعليماً. وكنتُ واحداً فيهم، وكانت هذه الأوراق بداية معرفتي بعالم المخطوطات. ثم عُزّزت في العام التالي بمخطوطة عند الدكتور شكري فيصل -ولها حديث آخر- وأوراق من كتاب "الإفصاح" الذي طبع أوّلاً باسم: توجيه إعراب أبيات ملغزة الإعراب، من تحقيق أ.الأفغاني.

وقد سَهّلت هذه التجارب عليَّ، في رحلة المعيديّة (1961-1963) أن أختار لنيل درجة الماجستير مخطوطةً أندلسيّةً وحيدةً للأمير ابن الأحمر.

وكانت هذه المرحلةُ مَجالاً للتّدريب تحت نظر الأُستاذ الأفغاني، وكان النّظام القديم في الجامعة يقتضي من المعيد أن يجتازَ التّجربة لسنتين متواليتين؛ يقدّم رئيس القسم بعدَ كلّ سنة تقريراً عنه. فإن اجتازه استمرّ. وكان المعيدُ يكلّفُ مهمّة التّدريس رديفاً لأحد الأساتذة، ويتعرَّفُ -عمليّاً- إلى الجانب الإداريّ، وشؤون الامتحانات من أوّلها إلى آخرها، ويُعِدُّ نفسه تدريجاً على مُرور الأيّام للتخصّص الذي سيكون مجالَ دراسته وتحصيله وعمله.

لقد كانت مرحلة العمل معيداً -في ظلّ إدارة أ.الأفغاني ورعايته- من أكثر سنوات العُمر: استفادةً واستمتاعاً، وتربية علميّةً وتهيئة مستقبليّة. وأَحْسَنُ اختصار لهذه المرحلة أن يقال فيها إنها مرحلة التّدريب.

وكانتْ مُدّةَ العَمل بعد العودة من الإيفاد، تحتَ نظره، مدّةَ تَدْريج. كان يحرص على أن يحمل أحدنا المسؤوليّة، وأن يحملَ أعباء "عضو هيئة التّدريس" شيئاً فشيئاً، وأن يعطيَ العمليّةَ التعليمية اهتماماً عظيماً، وأن يستمرّ في البَحْث، والدَّرس، ومُتابعة تخصّصه، وأن يتمكّن من ذلك كلّه: في توازن، واجتهاد متواصل.

وكان لا يدَّخر نُصحاً أو توجيهاً، وكان أيضاً يحمي الجيل الجديد من أعضاء هيئة التّدريس من عَصْفِ عاصفٍ بهم أو عَسْفِ مُتعَسّف. لقد كان التّدريج يقتضي ذلك. ومع التّدريج منه؛ وقايةٌ وحماية؛ و"العلم" لا يأتي فجأة.

(8)

شخصيّة "المعلّم" العظيم سعيد الأفغاني من الشّخصيات الواضحة. وجانب الوضوح هذا يُقِرُّ به أصحابه وعارفوه، ولا يستطيع أن ينكرهُ الذين يختلفون معه. ومن معالم هذه الشخصية:

- الأخذ بالجِدّ في القول والعَمل. وكان من مُقتضيات هذا الجدّ في العملية التّعليمية: الفَصْلُ بين مقاعد الطّلبة والطّالبات في الدروس والمحاضرات.
- الانضباط التامّ؛ وظهَر ذلك في تعامله مع الإدارة، ومع زملاء العمل، ومع الطلبة داخل الدّرس وخارجه.
- تَرك الفُضول من القول والعَمل. فإن اقْتَضَى الأمرُ أو تَداعَى الكلام فالقليلُ الذي يفي، أو الضروري الذي يكفي.
- العَدل في المعاملة (يصدق هذا على زملاء العَمل كما يَصْدُق على الطّلبة). ومع العَدْل إنصافٌ يُقِرُّ به الطلاب الذين لم ينجحوا، كما يَعْتَدُّ به الذين جَازُوا الامتحان ونجحوا فيه.
- الانقطاعُ في وجوه النّشاط غير التعليمي إلى البَحْث والتّأليف والمراجعة والمطالعة.. والانقطاع إلى الذّات.. والأهل، وقلّة من الأصدقاء.
- وكان في طبع الأفغاني الهُدوء، والأناة؛ يَستغني بالصّوت الخفيضِ عن العالي، وبالابتسامة دون الضحكة، وبالضحكة الخفيفة دون المُجَلْجِلة.
- واشْتهر بالتّعليق الخاطف، والجواب اللاّذع: على شيءٍ يَراه أو شيءٍ يسمَعُه، أو شخصٍ بَدَرَ منه أمر، وتعليقاتُه دائماً قصيرةٌ، سريعةٌ، حارّة. وهي تُذكِّر -من القُدَماء- بالأجوبة المُسْكتة، وعبارات التّوقيعات..

(9)

لقد كان الأستاذ الأفغاني من الأساتذة الذين لا يخترقُ الطلابُ الحاجزَ الوهميّ الذي ينظّم العلاقة بين المعلّم والتلميذ أو الأستاذ والطّالب. ولكنّه حاجزٌ رقيقٌ يُتيح انفتاحَ الأُستاذ على طلاّبه في

كل ما يخصّ العلم والتعلّم داخلَ قاعة الدّرْس وخارجها... ومن هنا كان للأفغاني في نفوس الطلاّب رهــبةُ الاحترام، ورهبة الإحساس بالتفاصل الموضوعي بين المعلّم وطلابه، كما كان له في نفوسهم الــتّقدير لــتلك الشخصيّة التي تُوحي إليهم بقدرٍ عظيمٍ من العلمِ والمعرفة. لقد كان يقتربُ إليهم حتى كأنّــه لا حاجــزَ، وهو يُجيب عن أسئلتهم، ويعلّم، ويُنبّه، ويُفهّم؛ وكان يَسْمُو عندهم حتّى كأنّ بينهم وبينَهُ سَدّاً منيعاً.

لقد كان معلّماً مُختلفاً، متميّزاً، وهو من أُولئك المعلّمين والعلماء الذين كان يقال فيهم: "لا نظيرَ له".

□□□

سعيد الأفغاني منافحاً عن العربية

عرض لآرائه ضدّ دعاة العامية في بلاد الشام.

د.عبد الإله نبهان*

كان أستاذنا سعيد الأفغاني(1) ــ رحمه الله ــ متعدد الاهتمامات، متنوع الإنتاج، ترك آثاراً تنتمي إلى التاريخ كأسواق العرب؛ وعائشة والسياسة، وكتباً في النحو وتاريخه وأصوله وحقق كتباً أخرى ككتاب القراءات لابن زنجلة، وسيرة ابن حزم، كما كتب في الإسلاميات ككتابه الإسلام والمرأة. وكان من جملة ما كتبه ردوده على دعاة العامية وأعداء العربية، وقد رأيت أن أجعل من هذه البحوث موضوعاً أستعرض فيه أفكار الأفغاني في هذا الميدان.

إنّ التآمر على اللغة العربية والتهجّم عليها، والتخطيط لإقصائها عن ميادين الحياة، ليس ادّعاء يدّعيه أناس يطيب لهم أن يختلقوا أعداءً يردّون عليهم ويجادلونهم، وليس هَوَساً من أناس بلغتهم يرجمون كلّ مَنْ يقترب منها أو يقول فيها برأي.. إنّ هذا التآمر حقيقة وقد دُبّر له بليل ونهار، وأُنفقت عليه النفقات الهائلة، وقد ظهرت الوثائق وبرزت الحقائق التي تثبت وجود هذا التآمر وتكشف عن وجه المخططين له. بل إنّ هناك مَنْ صرح معترفاً بما كلّف به، وأذكر في هذا السياق اعتراف الدكتور لويس عوض(2) في مقدمته لما سمّاه ديوان شعر ووسمه بـ"بلوتولاند وقصائد أخرى" وذلك عام 1947 فقد ذكر أنه "قد عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر في خلوة مشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكامبريدج ألاّ يخطّ كلمة واحدة إلا باللغة المصرية. وقد برّ بعهده في العام الأول بعد عودته فكتب شيئاً بالمصرية سماه "مذكرات طالب بعثة" ولكنه استسلم بعد

* ــ أستاذ في قسم اللغة العربية بجامعة البعث. عضو اتحاد الكتّاب العرب.

(1) ــ سعيد الأفغاني 1909 ــ 1997. انظر ترجمته في إتمام الأعلام 109 وأعلام التراث في العصر الحديث: 206 وفيه ذكر لمراجع أخرى.

(2) ــ لويس بن حنا عوض 1914 ــ 1990 كاتب مصري، وقف من الحضارة العربية موقفاً معادياً. انظر: ذيل الأعلام 160 وكتاب أباطيل وأسمار لمحمود محمد شاكر.

ذلك وخان العهد، فلتغفرْ له الثلوج الطاهرة التي لم تدنسها حتى أقدام البشر[1]".

ولكن قبل هذا بزمن، وفي عام 1893 كان ول كوكس[2] قد ألقى محاضرةً في نادي الأزبكية بالقاهرة عنوانها: "لِمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن" زعم فيها أن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لدى المصريين هو استخدامهم العربية الفصحى في القراءة والكتابة وقدّم نصحه لهم ليستخدموا العامية في الكتابة كي يصيروا من المخترعين[3] قال ول كوكس: "وأنتم أيها المصريون لن تزالوا قادرين على إيجاد قوة الاختراع لديكم كما فعلت إنجلترا، فإنه يوجد فيكم أناس كثيرون توفّرت فيهم الشروط المارّة، ولكن بسبب عدم وجود لسانٍ علميّ مشهور فيما بينكم لم تتحصّلوا على شيء، وأضعتم أعمالكم سدى، والسبب في ذلك أنّ الكتبَ العلمية الدنيوية يؤلفها أربابها بكلامٍ مثل الجبال، وفي آخر الأمر لا يلد هذا الكلامُ الصعب إلا فأراً صغيراً، وما نشأ ذلك إلاّ من كون اللسان العلميّ غير مشهور فيما بين العامة، فبمجرّد وضع الأفكار في الكتب تموت ولم تعد تحيا، فكأنهم يكفّنونها في الورق ويدفنونها في جلود الكتب. واللغة العربية الأصلية كانت قوية جداً مشحونة بالألفاظ الشهيرة كما أنها كانت مشتملة على ألفاظ كثيرة ضعيفة، وعلى مرّ الزمان غلبت القويةُ الضعيفةَ وكوّنت لغة قوية. ولكنكم أيها المصريون أصبحتم تقولون إنها لغة دارجة لا ينبغي اتباعها وجنحتم في مؤلفاتكم إلى اللغة الضعيفة الخفيّة التي ماتت منذ زمن بسببِ مزاحمة القويّة لها، وأقول لكم: إذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتم هذه اللغة الضعيفة تنجحون كثيراً"[4].

وبغض النظر عما في هذا الكلام من ركاكة وإسفاف أسلوبياً وفكرياً فإنه يمثل تحريضاً من مهندسٍ بريطاني لمتعلمي المصريين آنذاك ليكتبوا بالعامية ويتخلوا عن العربية. ولسنا هنا بسبيل التأريخ للمؤلفات الداعية إلى نبذ الفصحى واستخدام العامية ولا التأريخ لأولئك الذين نُصّبوا دعاة.. وإنما أردت أن أشير إلى مدى جدية هذه الدعوات وارتباطها بالاستعمار.. فقد ارتبطت بالاستعمار الإنكليزي في مصر، وبالاستعمار الفرنسي في بلاد الشام "وكان زعيم الحركة الرامية إلى الكتابة بالعامية وبالحرف اللاتيني الاستعماريون الفرنسيون وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية لويس ماسينيون[5]، ولقد حاول ماسينيون أن يبث دعوته هذه في المغرب وفي مصر وفي سورية ولبنان خاصة، وكذلك سعى لهذه الغاية مبشرون واستعماريون من أمم أخرى"[6] وقد أشبعت القول في تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر

---

(1) ـ بلوتولاند: 13.
(2) ـ ول كوكس: مهندس ريّ بريطاني آل إليه ترؤس مجلة الأزهر سنة 1893.
(3) ـ تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر: 100.
(4) ـ المرجع السابق: 36.
(5) ـ لويس ماسينيون 1883 ـ 1962 . مستشرق فرنسي من أعضاء مجمعي القاهرة ودمشق وكان من موظفي وزارة المستعمرات في شبابه ثم مستشاراً لها بقية حياته. الأعلام 5: 247.
(6) ـ التبشير والاستعمار: 225.

الدكــتورة نفوســة زكريا سعيد[1] بمالا زيادة عليه لمستزيد، وليس هدفنا هنا التوسع في تأريخ هذه الدعــوة وإنما الهدف أن نبيّن موقف المرحوم سعيد الأفغاني من هذه الدعوة وفروعها والسبيل التي سلكها دفاعاً عن العربية.

لــم يكــن الأفغانــي ــ رحمــه الله ــ من أولئك الذين يحبّون التكرار وعلْك الكلام، كان محباً للإيجــاز قولاً وكتابةً، يعالج القضايا بموضوعية ومنطق، لذلك لم يكن يطنب فيما أطنب غيره فيه، بــل بالإشارة يكتفي، وكما يقال في المثل: يكفيه من القلادة ما أحاط بالعنق، لقد كان بإمكانه أن يفرد مؤلفــاً قائمــاً برأســه لمجادلة دعاة العامية والردّ عليهم، ولكنه استكثر ذلك عليهم واقتصر في الرد بتخصيص باب واحد من كتابه "حاضر اللغة العربية في الشام" وكان هذا الباب هو الرابع الموسوم بــــ"مشــكلاتٌ مزعومة" لكنه لم يصل إلى مناقشة إلا بعد أن عرض لأوضاع اللغة العربية في أيام الحكــم العثماني وفي أيام العهد العربي الفيصلي[2] وفي أيام الاحتلال الفرنسي، وقد لاحظ الأفغاني تطور الوضع اللغوي في بلاد الشام من الانحطاط والخمود إلى التطور والازدهار، فقد كان الوضع اللغــوي أيام العثمانيين في غاية البؤس، وازداد سوءاً في أواخر أيامهم بسبب انتشار الجهل من جهة وبسبب جعل اللغة التركية لغةً للتعليم من جهة أخرى، حتى إنهم كانوا يعلمون العربية بالتركية، قال الأمير مصطفى الشهابي[3]:

"أتذكــر أنــي درســت سنةً واحدة في مدرسة تجهيز الحكومة العثمانية بدمشق، فكانت جميع الــدروس تلقى بالتركية، وكان اللسان العربي يُدرّس أيضاً باللسان التركيّ، وكان معلّم العربية رجلاً تركــياً يتكلم لغة الضاد بلهجة تركية، ولا يفرّق بين المذكر والمؤنث، ولا يفقه شيئاً من أدوات اللغة إلا مبادئ من الصرف والنحو مطبوعةً في كتاب تركي"[4].

وذكــر الأفغاني "أنّ الاستهتار الثقافي وصل بالأتراك إلى أن أبدلوا بالشيخ طاهر الجزائري[5] معلّماً تركياً لتدريس العربية في ثانوية دمشق (مكتب عنبر)"[6] وقد جابهت الجمعيات العربية حركة التــتريك وهبّ نفرٌ من شباب العرب المتعلمين لتعليم العربية، وعلى الرغم من تعدد هذه الجمعيات واخــتلاف برامجها "فإن هدفاً واحداً أجمعت عليه بإصرار هو جعل لغة التعليم والإدارة والجيش في

---

(1) ــ نفوسة زكريا: مدرسة بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية. أثنى على كتابها العلامة محمود محمد شاكر في كتابه أباطيل وأسمار: 154.

(2) ــ الفيصــليّ نسبة إلى فيصل بن الحسين 1883 ــ 1933. أصبح ملكاً على سورية عام 1920 وبعد ذلك صار ملكاً على العراق 1921 حتى وفاته. الأعلام 5: 165 ــ 166.

(3) ــ مصــطفى بن محمد سعيد بن جهجاه الشهابي 1893 ــ 1968 ترأس المجمع العلمي العربي بدمشق نحواً من تسع سنوات. انظر الأعلام 7: 245.

(4) ــ حاضر اللغة العربية: 23.

(5) ــ طاهر الجزائري: طاهر بن صالح (أو محمد صالح) بن أحمد الجزائري ثم الدمشقي مولده ووفاته بدمشق 1852 ــ 1920 ــ الأعلام 3: 222.

(6) ــ حاضر اللغة العربية: 35.

البلاد العربية هي اللغة العربية، وقد عملت جميعاً على دعم هذا المطلب بكلّ ما تملك من قوة، إيماناً منهم ببديهة مسلّمة: هي أنّ اللغة أُولى مقوّمات الأمة ولا تقوم لها بدونها قائمة"[1].

وكان قيام الثورة العربية الكبرى عام 1916 ثم تأسيس الحكومة العربية في دمشق في 10/5/1918 إيذاناً ببدء عهد جديد. إنّ الذين كانوا يحاربون التتريك ويعملون على نشر العربية قد تسلّموا السلطة، وما كانوا يطالبون به من تغيير وتعريب أضحت مقدراته في أيديهم، فأصبحت شعارات المظاهرات بالفصحى، وأضحت لغة الجيش والإدارة هي العربية بعد أن اتجه المسؤولون إلى تعريب كل ما يتعلق بالجيش والدواوين والإدارة تعريباً شاملاً، واستبدلت بالمصطلحات التركية المصطلحات العربية وقد "ألّف الحاكم العسكري في 28/11/1918 أي في الشهر الثاني لجلاء الأتراك شُعباً إدارية وفنية لإنجاز أعمال الدولة الجديدة فكانت "الشعبة الأولى للترجمة والتأليف" لتعريب الدواوين ونشر العربية بين الموظفين، وسمّيت هذه الشعبة بعد أن ضمّ إليها شؤون المعارف العامة بـ"ديوان المعارف" وأسندت رياسته إلى محمد كرد علي[2] في 12/2/1919 وكانت لجنة المصطلحات فيها برياسة ساطع الحصري[3] وعضوية كلٍ من عز الدين التنوخي[4] وحبيب اسطفان[5]، ثم فصلت الشعبة الأولى عن ديوان المعارف واستقلّت باسم المجمع العلمي العربي بدمشق في 8/6/1919"[6].

ونلاحظ من مقارنة التواريخ أنه في الوقت الذي كان فيه الهجوم على العربية على أشدّه في مصر كانت العربية قد بدأت تنتعش وتتنفس في الشام وقد صور الأستاذ الأفغاني هذه المرحلة مرحلة العهد الفيصلي التي لم تدم أكثر من سنتين (من 10/5/1918 ــ إلى 24/7/1920) بقوله:

"أمّا في حساب الزمن فقد كان كالحلم الخاطف، لم يعمّر سنتين، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة، وعاشته ساعة ساعة بل لحظة لحظة، إنه عهد إحياء ونشور، كان فيه الأفراد والجماعات تتضافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان، وأما في حساب النتائج والثمرات فما أسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار إلى أيامنا هذه (أي عام 1961) وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة نتقدّم على رغم ما عرا السيرَ من توقّف حيناً ونكسة حيناً، ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماريّ الفرنسيّ من خطط

(1) ــ حاضر اللغة العربية: 35.

(2) ــ محمد كرد علي 1876 ــ 1953 مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق وكان رئيساً له حتى وفاته. الأعلام 6: 202.

(3) ــ ساطع الحصري 1883 ــ 1968. ساطع بن محمد هلال الحصري أبو خلدون. انظر الأعلام 3: 70.

(4) ــ عز الدين التنوخي الدمشقي 1889 ــ 1966. المسمّى عز الدين علم الدين من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ومولده ووفاته فيها. الأعلام 4: 229.

(5) ــ حبيب بن جرجس أصطفان 1888 ــ 1946. ولد ونشأ بلبنان. كان من رجال الملك فيصل بدمشق. توفي في البرازيل. الأعلام 2: 165.

(6) ــ حاضر اللغة العربية: 60.

ماكرة حلوة المظهر فتّاكة المخبر مدة خمس وعشرين سنة من الاحتلال العسكري"[1].

ويلاحـظ أنّ الدعـوة إلى العامية نشطت في عهد الاستعمار الفرنسي بتشجيع من المستعمرين الذيـن حـاربوا العربية بوسائل عديدة حتى إنهم منعوا أناشيد وقصائد وطنية[2]، وعملوا في الخفاء كثـيراً وفـي العلن قليلاً، هجوماً على العربية وتشجيعاً للعاميات، لكنّ ما انطوت عليه النفوس من حماسة للعربية وحبٌ لها واستعداد للتضحية في سبيلها، جعل من تلك المحاولات الفرنسية أمواجاً لا تلبث أن تتكسر على صخور الإرادة الصلبة. وقد صوّر الأستاذ الأفغاني هذا الوضع بقوله: "لقد كان حـال اللغـة الفصحى في المدارس والصحف والنوادي من القوّة بحيث لم تكتف بردّ الهجمات، بل زادت إلى ذلك نمواً في قوّتها وانتشارها وتمكّنها في النفوس تمكّناً ما يزال يقوى على رغم التشكيك والعراقيل والمكايد والأحابيل"[3].

غـير أن محاولات المستعمرين وأعوانهم لم تتوقّف، فإنّ وحدة هذه اللغة كانت وما زالت مَعْلماً مـن معـالم القـوّة في الأمة العربية، وكانت المدارس الفرنسية هي المنطق الذي انطلقت منه هذه الدعـوات[4]، فكانت بواسطة مجنديها وأعوانها لا تتوقّف عن الدسّ وبثّ السموم واختلاق المشكلات وافتعالها، وقد جمع الأستاذ الأفغاني خيوط هذه الدعوات فوجدها تنحصر في ثلاث مشكلات هي:

1 ــ تباين العامية والفصحى.

2 ــ الحرف العربي.

3 ــ القواعد والإعراب[5].

ويلاحـظ أن هـذه المشكلات هي نفسها التي افتعلها المستعمرون في مصر وفي الجزائر وفي غيرهما.

والأفغانـي الـذي أرّخ لحاضـر اللغـة فـي بلاد الشام من آخر العهد العثماني، مروراً بعهد الاسـتعمار الفرنسـيّ وعهد الاستقلال حتى عام 1961 كان لابدّ له من وقفةٍ ما تجاه هذه الدعوات الهدّامة، وسنعرض لموقفه تجاه كلٍ من هذه المشكلات.

أولاً: تباين العامية والفصحى:

معـروف أن العربيـة التـي درجنا على تسميتها بالفصحى ــ وبعض الأساتذة اليوم يفضلون الفصـيحة ــ إنما هي لغة جامعة يقرؤها ويكتب بها ملايين العرب من المغرب إلى المشرق، إضافةً إلـى ملايين المسلمين الذين يحرصون على تعلّمها، ومنهم مَنْ يتقنها.. هذه اللغة الجامعة كانت وما

(1) ــ حاضر اللغة العربية في الشام: 57.
(2) ــ المرجع السابق: 79.
(3) ــ المرجع السابق: 75.
(4) ــ التبشير والاستعمار: 226.
(5) ــ حاضر اللغة العربية في الشام 157.

زالت ركناً ركيناً من أركان الروابط الأساسية بين أقطار العرب مهما تعدّدت اتجاهاتهم السياسية وتضاربت مصالحهم الاقتصادية... لذلك كلّه دأب المستعمرون في العصر الحديث على محاربتها بحجج مختلفة داعين إلى إحلال العاميات المحلّية مكانها، ونجد في هذا السياق أسماء مؤلفات صدرت آنذاك على هذا النحو:[1]

ـ قواعد اللهجة اللبنانية السورية للأب رفائيل نخلة[2] والكتاب موضوع بالفرنسية.

ـ التحفة العامية في قصة فنيانوس تأليف شكري الخوري[3]. نشرها الأب لاي اليسوعي مؤلفة بلغة لبنان العامية ضمن المطبوعات اليسوعية.

ـ في متلوهلكتاب للخوري مارون غصن[4] أحد المدرسين في مدرسة عنطورا بلبنان.

ـ حياة اللغات وموتها، اللغة العامية. تأليف الخوري مارون غصن الحائز وسام المعارف من الحكومة الفرنساوية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1925.

وتبرز في مجال الدعوة إلى العاميات ومناهضة العربية الفصحى أسماء مثل أنيس فريحة[5] وسعيد عقل[6] ويوسف الخال[7] وقد جمع الأستاذ الأفغاني حجج هؤلاء ولخصها دون أن يلج في تفاصيل مرجعياتها قال:

"دعا الدعاة إلى العاميات المحلية في بلادنا منذ مطلع هذا القرن، وكانت الحجج التي أدلوا بها هي الحجج التي نسمعها اليوم (1961) مرددة مملولة ممجوجة لم تتغير ولم تتبدل:

1 ـ يجب أن نكتب للناس باللغة التي يتداولونها في السوق.

2 ـ إنّ الفصحى لغة ثانية غير لغة التخاطب ولا يتوصل إليها إلا بعد دراسة ومرانة.

3 ـ العامية سهلة والفصحى صعبة، فإذا ألفنا بالأولى نشرنا الثقافة في ميدان متّسع ولم نحرم غير المتعلمين.

4 ـ العامية لغة الحياة في الأسواق والمنازل، والفصحى لغة الكتب على الرفوف والحياة تفرض قانونها على رغم الأنوف.

---

(1) ـ انظر: المرجع السابق: 167. والتبشير والاستعمار: 226.

(2) ـ رفائيل نخلة لم أقع له على ترجمة فيما رجعت إليه.

(3) ـ شكري بن عبد الله الخوري 1870 ـ 1937. صحفي لبناني. هاجر إلى البرازيل 1896. كتب قصصاً باللغة العامية. الأعلام: 3: 172.

(4) ـ مارون غصن 1880 ـ 1940 مولده ووفاته ببيروت. كان مدرّساً في مدارس الآباء اليسوعيين. الأعلام 5/ 253.

(5) ـ أنيس فريحة: 1903 ـ 1993 باحث في اللغة متجنّ على الفصحى. ذيل الأعلام: 49.

(6) ـ سعيد عقل: من كبار الشعراء. ومن كبار الدعاة إلى العامية والحرف اللاتيني. ما يزال حياً.

(7) ـ يوسف الخال 1916 ـ 1987. ولد في قرية عمار الحصن في سورية وانتقل إلى طرابلس لبنان وتخرّج في قسم الفلسفة في الجامعة الأمريكية ببيروت. إتمام الأعلام: 318.

5 ــ إنّ تلميذ المدرسة في البلاد العربية يلاقي في ازدواج العربية بين منزله ومدرسته ما لا يلاقيه زميله الأوروبي...الخ[1].

لم يكلّف الأستاذ الأفغانيّ نفسه مؤونة الردود الجزئية على كل ادّعاء من الادعاءات السابقة، ولم يقف وقفة متأنية إلا لمناقشة قضية ازدواجية اللغة. ورأى أنّه لن يكلّف نفسه عناء الردّ والمناقشة لأنه ترك لتطور الحياة أن يردّ على هؤلاء ادّعاءاتهم، إنّ انتشار التعليم وكثرة المدارس وإقبال الناس على العلم والقراءة قد قضى على الهوّة الفاغرة التي كانت تجعل من لغة المتعلمين شيئاً ومن لغة الأميين شيئاً آخر قال: "ويطيب لي أن أترك للحياة نفسها ردّ هذه المزاعم، وقد ادّعى الزاعمون مراعاة قانونها، وقد ردّت عليهم فعلاً، إذ تطوّرت هي بأهلها نحو الأكمل الأرقى، وبقُوا هم ــ أي دعاة العامية ــ على جمودهم يرددون ما قال سابقوهم قبل ستين سنة"[2] "لقد خطا الزمن بهؤلاء الأميين العوام نحو الفصحى خطوات فساحاً تدور رؤوس أولئك الرجعيين الجامدين دعاة العامية من سَعتِها، ومع هذا يصطنعون الرفق بهذا العامي الذي يضحك من حججهم، ويأنف من تصوّرهم فيه التخلفَ وبلادةَ الذهن[3].

لقد لاحظ الأفغاني ــ رحمه الله ــ أنّ الناس في مشرق العالم العربي ومغربه يقبلون على العلم وأنّ الإعلام العربي يستخدم اللغة الفصيحة على الأقل في نشرات الأخبار، وأنّ كثيراً من الناس أضحوا يقرؤون ويكتبون.. كل هذه الظواهر ضيّقت الفجوة اللغوية وجعلت لغة الناس العادية قريبةً بعضها من بعض وغيرَ بعيدة كلَّ البعد عن اللغة الفصيحة..

وقف الأفغاني لدن قضية ازدواج اللغة التي زعم دعاة العامية أن العرب ينفردون بها دون الأمم الراقية ــ حسب تعبيرهم ــ ورأى أنّ هذا الادّعاء كان يمكن أن يصدّق على عواهنه قبل سبعين سنة (اعتباراً من 1960) أما اليوم وبعد أن خالط الأممَ الغربيةَ عشرات الألوف من العرب دراسة وتجارةً وسياحةً فيبعث هذا القولُ الرثاءَ لقائليه إذ كانوا لا يضحكون إلا على أنفسهم[4].

ووجه الردّ هنا أن الازدواجية اللغوية التي يتّهم بها العرب هي ظاهرة مُلاحَظةٌ في اللغات عند الأمم والشعوب الأخرى، وقد أشارت الدكتورة نفوسة زكريا سعيد إلى هذه الظاهرة بقولها: "ووجود العامية بجانب الفصحى على ما بينهما من اختلاف ظاهرة طبيعية في كلّ اللغات، وقد أثبت لنا وجود هذه الظاهرة في اللغات الأجنبية بعض علمائنا المشتغلين بالدراسات اللغوية مثل الدكتور علي عبد الواحد وافي[5] والأستاذ جبر ضومط[1] كما أثبتها وأفرد لها كتاباً بأكمله هنري بوش[2]. فليس

(1) ــ حاضر اللغة العربية: 160 ــ 161.
(2) ــ حاضر اللغة العربية: 161.
(3) ــ المرجع السابق: 162.
(4) ــ المرجع السابق: 162.
(5) ــ علي عبد الواحد وافي 1901 ــ 1992 من رواد علم الاجتماع العرب، كان عضواً في مجمع القاهرة، والإشارة هنا إلى كتابه فقه اللغة 145. إتمام الأعلام 188.

وجود هذه الظاهرة إذن في اللغة العربية بالأمر الشاذ، ونحن لو تتبعنا تاريخ اللغة العربية لوجدنا أن هـذه الظاهـرة تلازمها منذ أقدم عصورها"[3]. إنّ ملاحظة الدكتورة نفوسة لا تختلف في جوهرها وفحواهـا عـن ردّ الأستاذ الأفغاني الذي سبقها ردّه بنحو من أربع سنوات مع اختلاف مرجعية كل منهما. تسـاءل الأسـتاذ الأفغانـي وأجـاب: "أيّ لغة غربية لا ازدواج فيها بين لغة الأزقّة ولغة المتعلميـن؟ آلألمانـية؟ آلفرنسـية؟ آلإنكلـيزية؟ لا شيء من ذلك البتةَ، والذي يعرف الفرنسية أو الإنكلـيزية فـي قراها يدرك فارقاً يذكّر بالفارق بين فصحانا وعاميّاتنا، بل إنّ الفرنسيّة الفصحى لم تكـن لغـة الشعب الفرنسيّ الدارجة، وإنّ الفرنسيين كانوا يجهلون هذه اللغة الجديدة التي انتشرت بواسـطة وسائل التثقيف والوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا المنطق الفرنسيّ هو غير المنطق الذي طلع به علينا دعاة العامية في لبنان، فهم يريدون أن يجعلوا من العامية لغة جديدة. أمّا في فرنسة فقد أزيلت اللغات العامية وأقيمت مقامها الفصحى.. ولا يزال الباريسيّ حتى اليوم لا يفهم لأول وهلـة المُواطنَ الفرنسيّ الذي يسكن في ليموزان Limouzin أو يتكلم لهجته ولغته المحكية المعروفة بالباتوا Patois ".[4]

وقـد نقـل الأسـتاذ الأفغانـيّ نقلاً مشابهاً يتعلق باللغة الألمانية عن **مجلة الرسالة التي كانت تصدرها إدارة الصحافة والإعلام لحكومة ألمانيا الاتحادية**[5] وعلق على كل ذلك بقوله:

"وهكـذا تجد أن دعاوى أنصار العامية لا يؤيدها واقع ما، بل إن الواقع والحقائق تؤيّد عكسها، فهـذه الأمـم الراقـية وجدتْ من دواعي المحافظة على وحدتها واطّراد رقيّها الحضاريّ إنشاء لغة فصـحى جامعــة، ونحن حبانا الله فصحى قوية راقية قد جمعتنا فعلاً في وحدة روحية مضى عليها أربعـة عشـر قرناً تتمنى الأمم الراقية أن تحظى ببعضها، فلما لم يكن لها فصحى سعت هي سعياً حثيـثاً فخلقـت فصـحى مفـتعلة ومضت بها إلى الأمام، ووجد في بلادنا مَنْ يدعو إلى تفكيك هذه الوحـدة، وطـرح تلـك الفصحى لتتشبه ــ زعموا ــ بالأمم الراقية. وقد عرفت شأن الأمم الراقية الآن"[6].

وأشار الأفغاني إلى أنّ تبني الفرنسيين الدعوة إلى العامية في داخل بلاد الشام (حكومة سورية) لم يقدّم أيّاً من النتائج المطلوبة "فطووها داخل الشام وركزوها في ساحله (حكومة لبنان الكبير) حيث

---

(1) ــ جبـر بـن ميخائيل ضومط 1859 ــ 1930. أديب خدم العربية تدريساً وتأليفاً. ترجمته في الأعلام 2: 108 ــ 109 والإشارة هنا إلى مجلة السيدات والرجال 6: 449.

(2) ــ هنري بوش: لغوي فرنسي أشارت إلى كتابه د.نفوسة وقالت: إن موضوع كتابه هو دراسة اللغة العامية الفرنسية وبيان مدى اختلافها عن اللغة الفرنسية الأدبية.

(3) ــ تاريخ الدعوة إلى العامية: 3.

(4) ــ حاضر اللغة العربية 162 ــ 163 والنقل فيه عن كتاب: دعاة العامية هم أعداء القومية العربية للدكتور سعيد شهاب الدين: 17.

(5) ــ أحال الأفغاني على العدد 47 ص 3 ــ المجلد الثاني. بون 1960/11/18.

(6) ــ حاضر اللغة في الشام: 163.

أفادتهم جهودهم السابقة في خلق الكُره الطائفي ثم إذكائه باستمرار، واستعانت به فأعانها على تهديم اللغة العربية الفصحى والتشكيك فيها والدعوة إلى العامية اللبنانية"[1].

غير أنّ ساحل الشام (لبنان) لا يمكن أن يكون متروكاً لمثل أولئك المنسلخين عن عروبتهم وقوميّتهم، إنّ في لبنان رجالاً يحملون الأمانة ـ وهم بحملها جديرون ـ تصدّوا لمحاولات التغريب ولدعوات الشعوبية ودعوات المبشرين المرتبطة بالاستعمار، ففي عام 1953 صدرت الطبعة الأولى من كتاب "التبشير والاستعمار في البلاد العربية" للدكتور مصطفى الخالدي[2] والدكتور عمر فرّوخ[3]وكلاهما من لبنان، وفيه كما ذكر في عنوانه: عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربيّ، وذكر المؤلفان كما سيذكر الأفغاني بعدهما أنّ انطلاق هذه الدعوة إنما كان من الجامعة الأمريكية ببيروت[4] قال الأفغاني: "من مباءات هذه الدعوة خلية في الجامعة الأمريكية تُعلن وتُسرّ وتلفّ وتدور، تدّعي التيسير والدراسة الخالصة وتبسيط القواعد، فإذا قرأت هذه المحاولات عرفت أن الغرض ليس دراسة اللهجات وإنما العمل على ترسيخها وتوسيع الشقّة بينها هي أنفسها، ثم بينها وبين اللغة الفصحى، وأنّ تبسيط القواعد ليس المقصود، ولكن بلبلتها ثم هدمها لتبنى على شكل النحو الفرنسيّ. وما وجدته في هذه الجامعة تجده في بعض المؤسسات الأجنبية الإكليريكية"[5] وذكر الأفغاني طائفة من عناوين كتب الدعوة إلى العامية التي أُنفق عليها من تلك الجهات المشبوهة وقد كنا ذكرنا بعضها، وذكر أنه تنبّه لخطر هذه الدعوة في لبنان غير واحد، وأشار إلى رسالة جامعية للدكتور سعيد شهاب الدين عنوانها "دعاة العامية هم أعداء القومية العربية" وقال: "إنّ هذا الباحث العارف بدخائل هذه الدعوة قد تكفّل بتزييف ما أسموه بالحجج ودلّ على حقيقة مصادرهم بحيث لا يبقى ذرّة من شك في أنّ التعصب الطائفي والارتباط بالأجنبيّ هما باعثا هذا المرض في لبنان"[6] ثم أورد الأفغانيّ ملخصاً عن الحقائق التي وصل إليها سعيد شهاب الدين وعقب عليها الأفغانيّ ملخصاً عن الحقائق التي وصل إليها سعيد شهاب الدين وعقب عليها الأفغاني بقوله: "هذا وليس في بقية أجزاء الشام (بفلسطين والأردن) أثر يذكر لمثل هذه النزعات التي توشك أن تصبح في لبنان نفسه بعد انتشار الوعي المتحرر من النفوذ الأجنبيّ أهكومة يتندّر بها الصبيان"[7]. ويرى الأفغاني أنّ مثل هذه الدعوات ليس لها أيّ مصداقية عند المتعلمين ولا عند غيرهم وإنما هدفها إعاقة التقدم وعرقلته وإلهاء المفكرين بقضية فارغة تشغلهم عن مهمّات الأمور

---

(1) ـ المرجع السابق: 164.

(2) ـ مصطفى الخالدي 1895 ـ 1977 طبيب أديب من أهالي لبنان. عرف بدفاعه عن القضايا القومية والإسلامية. إتمام الأعلام 286.

(3) ـ عمر فرّوخ 1904 ـ 1987 أديب مؤرخ ناقد علاّمة باللغة والأدب والفلسفة. إتمام الأعلام 192 ـ 193.

(4) ـ التبشير والاستعمار 227 وحاضر اللغة العربية: 167.

(5) ـ حاضر اللغة العربية: 167.

(6) ـ المرجع السابق: 168.

(7) ـ المرجع السابق: 169.

التي هم بصددها في عصر البناء، وكان يكرر هذه الفكرة كلما سنحت لهُ فرصة في محاضراته، كما أنــه دوّن هذا في كتابه إذ يقول: "ولا أرى لأحد من أهل الفضل والغيرة أن يشتغل بردّ كيد الكائدين مــن دعاة العامية، فإنّ ذلك يثبت لهم وجوداً، وهو الأمر الذي يبغونه، ومنه معاشهم، لندعْهم ينعقون ولــنمض قُدمــاً في سبيلنا المرسومة نتمّم ما بدأته أجيال قبلنا، ولنأخذ القدوة من أرقى أمم الحضارة التــي تعــتزّ بوجودهــا اللغوي الرفيع، وتتمسّك به على مافيه من عوج وعقبات وصعوبات و(لا منطقــية)[1]" وضــرب مثلاً من ألمانيا سبقت الإشارة إليه كما ضرب مثلاً حياً "بعدوٍّ مجاور عرف طــريق الحــياة والقوة فسلكه وخلق بإصترار وقوّة وعيه لغةً لم يكن لها وجود ملحوظ قبل خمسين ســنة والعــاقل مــن اســتفاد مــن عدوّه ولم يعمَ عن حسناته، هؤلاء اليهود كانوا مطلع هذا القرن (العشــرين) مبعثريــن في القارات الخمس تتكلّم جالياتهم لغات لا حصر لها، عرف علماؤهم أن لا ســبيل إلــى جمع كلمتهم إلا بلغة جامعة، فأخذوا أنفسهم جيلاً بعد جيل بإحياء العبرية القديمة الميتة يــتعلمونها إلــى جانب لغة الشعب الذي ينزلون بلاده، فكان صنيعهم هذا الذي بدا للناس حينئذ نوعاً من الجمود والجنون وإضاعة الوقت هو الذي خلق منهم أمة ودولة وجامعة انتزعت لها مقرّاً وسكناً مــن أعــزّ بلاد الناس، الناس الذين حباهم الله لغة جامعة لا مثيل لها في قوتها ورسوخها في الزمن والمكــان بين جميع لغات الأرض"[2] ويقول مستاءً: أما نحن فما زال فينا مَنْ يتساءل على ملأ منّا: أنكتب بالفصحى أم بالعامية؟!!.

ثانياً: الحرف العربي والحرف اللاتيني:

كــان عــبد العزيــز فهمــي[3] عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة من أكبر الذين أثاروا اللغط بدعوتــه إلى استبدال الحروف العربية بإحلال اللاتينية مكانها وذلك في 1943/5/3 لكنّ هذه الدعوة كــان لهــا أصــحابها من الإنكليز قبل عبد العزيز فهمي، وإنما ارتبطت به من حيث كونه عضواً مجمعــياً، له قدْره، مما جعل من دعوته المعلنة من رجل جليل في نظر الناس مثار لغط وأخذ وردّ وشغل بها الناس مدةً إلى أن تلاشت تلاشيَ الزَّبد[4].

وعرض الأستاذ الأفغانيّ في بحثه للسبب المباشر الذي جعل بعض المستشرقين يجأر بالشكوى مــن الحرف العربي فقال ما معناه: إن الضرورات الاستعمارية دفعت بنفر إلى تعلّم العربية، وتعلّم أي لغــة من اللغات يحتاج إلى جهد ومعاناة، فتوهم بعض هؤلاء صعوبات وأهوالاً في اللغة العربية دون أن يفكــروا أنّ هناك مثلها في لغتهم الأم حتى إنّ أحدهم قال: "إنني أوثر أن أجتاز إفريقية كلّها

---

(1) ــ حاضر اللغة العربية: 170.

(2) ــ المرجع السابق: 171.

(3) ــ عبد العزيز فهمي 1870 ــ 1951 من رجال القضاء بمصر، كان رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين 1924 سُمّي عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1942. عن الأعلام 4: 24.

(4) ــ تاريخ الدعوة إلى العامية: 208.

ماشياً من الاسكندرية إلى رأس الرجاء الصالح على أن أشرع ثانية في تعلّم اللغة العربية"[1]. وكانت هذه الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية تموت في مكان لتظهر في آخر. قال الأفغاني: "ولم ييأس الاستعمار بما أوتي من صلف وتسلط وقوة من محاولته مدة ستين سنة يغرر بمن لا خلاق له منّا، ويمهّد بأساليبه الخفيّة وييسر له منابر يدّعو من عليها إلى ما لقنوه إياه، ثم تكون بلبلة وتموت المحاولة وتقول: ذهبت إلى غير رجعة، فلا تمشي سنوات حتى تظهر في قطر آخر بمظهر جديد وهكذا دواليك. والغريب في الأمر أن هؤلاء الدعاة الأجانب ومَنْ حمّلوه دعوتهم يدّعون للغة العربية صعوبات ما منها واحدة إلا في لغاتهم الأجنبية مثلها أو أشدّ منها، يعلمونها هم حقّ العلم، لكنّ لغاتهم على عُجَرها وبُجَرها مقدسّة لا تمسّ، لأنّها لغات دول قوية ذات أساطيل ومدمرات، ولغتنا لغة شعوب مغلوبة على أمرها فعليها أن تزول تدريجياً من الحياة دعامة بعد دعامة حتى ينهار البناء كلّه"[2]. ويستغرب الأفغاني من هؤلاء الذين يبشرون فيما بيننا بمنافع الحرف اللاتيني لمَ لا يبشرون به بين أصحابهم اليهود الذين كانوا يحاولون إحياء حروف لغتهم الميتة ولم يستخدموا الحروف اللاتينية... ويرى أن السبب في ذلك هو أنّ "هذه الدول الاستعمارية أرادت للصهيونية القوة والحياة وأرادت للعرب الفشل والموت فصرفت عنها كل ما رمتنا به من المهدمات"[3] ولما كان المرحوم الأفغاني يؤرخ للعربية في الشام تأريخاً فإنه لم يسلك في بحثه سبيل الأخذ والردّ، بل دخل في الأمر من أقرب أبوابه فذكر أن جريدة "لاسيري" الفرنسية في بيروت كانت أوّل من تولّى الدعوة إلى الحرف اللاتيني منذ أول الاحتلال الفرنسي عام *1922*، وضربت له أمثلة من شعوب أعجمية حاولت هذه المحاولة في أذربيجان وأنقرة، وعرّبت جريدة "ألف باء" الدمشقية هذا المقال في 12/19 /*1922* وطلبت إلى المجمع العلمي العربي بدمشق رأيه بالموضوع، وذكر أن المجمع عهد بالجواب إلى الأستاذ الياس القدسي"[4] أحد أعضائه، فدرس الموضوع مفصّلاً ورفضه رفضاً باتاً. قال الأفغاني: "ولم تحاول الدعاية السيئة محاولة سافرة داخل الشام فيما بعد، ولهذا الردّ قيمته التاريخية فقد كان قبل أربعين عاماً والاحتلال العسكريّ على أشدّه في الشام ساحلاً وداخلاً، وله دلالته الظاهرة على إفلاس الدعوة، إذ كانت الحجج قبل أربعين عاماً هي هي التي يرددها نفرٌ قليلٌ من الكتاب الآن[5] (*1961*!) وسنورد آراء الأستاذ الياس قدسي كما لخصها الأفغاني:

I ـ الأذربيجانية والتركية والأرمنية... فروع من الأسرة الهندية الأوروبية (السنسكريتية) فضَرْبُ المثَل بها جمعٌ للمتباعدين كل التباعد، أما المعقول جداً فأن يقترح للغات السامية كلها أن تكتب بحروف عربية لأن اللغة العربية أتت بعدهنّ مصلحةً ومتممةً لما سبقها من فروع.

---

[1] ـ حاضر اللغة العربية: *176*.

[2] ـ المرجع السابق: *177*.

[3] ـ المرجع السابق: *177*.

[4] ـ الياس عبده القدسي *1850* ـ *1926* من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق مولده ووفاته فيها. الأعلام *2*: *10*.

[5] ـ حاضر اللغة العربية: *179*.

2 ـ صرح الاقتراح بأنه استهدف أمرين: التسهيلَ على الأوروبيين تعلّم العربية، والثاني تسهيلهم على المستشرقين والعوام أيضاً تعلم العامية كتابةً. وقد أجاب عن الأول بأن كل لغة أوروبية اصطلح مستشرقوها على كتابة العربية برموز لا تشبه رموز غيرها من اللغات. فلو ضبطت بالحروف اللاتينية لوقعت البلبلة ومثّل لذلك بالحرف (ش) فإن تصويره عند الفرنسيين يكون بحرفين معاً(ch) وهذان يُقرأان بالإنكليزية تارةً (شيناً) وتارة (تشيناً) وتارة (كافاً) ولا سبيل إلى ضبط ذلك بالدقّة. أما الثاني فإن العامية إذا كتبت بالأحرف العربية قرأها كلّ ذي لهجة بلهجته، فالصورة واحدة وطرق الأداء تختلف بالعشرات بل بالمئات فلهجة حمص في النطق لا تشبه لهجة حلب ولهجة طرابلس الشام لا تشبه لهجة صيدا، وكلتاهما لا تشبهان لهجة القلمون. ومع هذا فيتفاهم الجميع كتابةً لأن الصورة واحدة، فلو عملنا بالاقتراح وصورناها بالحرف اللاتيني لوجب أن تكتب بصور شتّى على عدد اللهجات، ولن يمضي زمن طويل حتى تتباعد هذه اللهجات لتصبح لغات متباينة، وهذا تصعيب لا تسهيل، والذي يمسك كل هذه اللهجات الآن في وحدة: تصويرها جميعاً بالحرف الذي تصور به اللغة الجامعة.

3 ـ الحروف اللاتينية غير ثابتة اللفظ: "لأن الشعوب التي تفرّعت لغاتها عن اللاتينية كالفرنسيّين والإنكليز والإسبان والإيطاليين والبرتغاليين والفلامان والرومان والدانماركيين والأسوجيين والنروجيين، كل منها يلفظ الحروف مختلفة عن لفظ اللغات الأخرى لها" وتأتينا رسالةٌ بالفصحى من مراكش أو الهند فنقرؤها كما كتبها وكما لفظها مرسلها، ونقرأ شعراً من شعر الجاهلية (قبل *1500* سنة) فنلفظ كلماته كما لفظها قائله. أما اللغة العامية فلا يضبط لفظ كلماتها، لا اللاتينية ولا سواها، وأقرب الطرق لضبطها حروفنا العربية وشكلها".

4 ـ للحروف العربية ميزة ليست في الحروف اللاتينية ولا في حروف اللغات السامية نفسها "إنّ حروف هذه اللغات مفككة بعضها عن بعض كأنها مسمارية بينما الكلمات العربية يلتصق أكثر حروفها بعضه ببعض، وهذا الالتصاق يجعلها كتلة واحدة يشملها النظر بالحال، كأنها كتابة اختزال.. فالكتب العربية والجرائد سطورها بعيدة بعضها عن بعض فلا تضرّ النظر، أما سطور اللغات الأوروبية فإنها قريبة بعضها من بعض، وأكثر الحروف قائمة ومتشابهة، وهذا ما يضرّ النظر، ويجعل أولئك القوم يستعينون بالنظارات لأن أكثرهم يصبحون قصيري النظر بهذا السبب".

5 ـ "إنّ اللغة ألفاظها وكتابتها تحفظ معانيها وقومية المتكلمين بها.. فهل يجوز أن نترك الكنوز المحررة بها لنرضيَ بعض المستشرقين وهل يقبل الأجانب أن نعرض عليهم ترك حروفهم واتخاذ حروفنا لتضبطَ ألفاظهم بها أو أي لغة مموجة كاللغة الإنكليزية مع أن حروفها لاتينية... والاختلاف بلفظ الكلمات لا نراه في لغتها العامية فحسب بل يشمل هذا

التموّج بالإنكليزية الفصحى"[1]

واستظهر الأفغاني بعد ذلك بردٌ قويٌ كتبه المستشرق الفنلندي يوحنا أهتنين كرسكو[2] ونشره في مجلة المجمع العلمي العربي[3] وعنوانه: "نفي أوهام الأوروبيين في صعوبة تعلّم العربية" قال الأفغاني: "أوصي بقراءته كاملاً فقد حوى مقابلة موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية أدباً ولغةً وصرفاً ونحواً ونطقاً وكتابةً، وعلى مقاله عدا علميته ومنهجيته سماتُ الإحاطة وعمقُ الدرس وجمال الإنصاف وهو الذي سمّى المشاكل المزعومة للغة العربية بالأوهام الهرمة فقد ذهب إلى "أنّ تحصيل اللغة العربية أسهلُ على الطالب الأوروبيّ من تحصيل غيرها من لغات العالم، وأنه يصرّ كلّ الإصرار على أنّ آراء الأوروبيين نتائج أوهام هرمة وبوادر خيالات شائخة" ثم ذكر رأي "كرسكو" في قضية الكتابة بالتفصيل وأورد طرفاً من ردّه على "مرجليوث"[4] الذي كان يدعو إلى وجوب اتخاذ اللغة الإنكليزية فقط وسيلة اتصال بين شعوب العالم كلّه أجمع. ولكي نصوّر حرص الاستعمار على إشاعة الحرف اللاتيني وإحلاله محلَ العربي نورد خبراً كتبه الأفغاني وكان هو شاهده قال: "ولقد حضرتُ أنا نفسي مسعىً من هذا الدبيب الخفيّ قبيل الحرب العالمية الثانية: كنت والأستاذ المرحوم محمد كرد علي في حديقة داره، فإننا لنتذاكر في بعض الأمور، وإذا بالأستاذ يقف ويتّجه نحو باب الحديقة ليستقبل زائراً طاعناً في السن يتقدّم بخطىً ثقيلة جداً ينقلها بصعوبة وبطء، وكلّما رفع رجْلاً وحطّها تقلقل كل عظم في بدنه، وبعد دقيقتين قطع العشرين متراً بين الباب والمجلس فقدّمه لي الأستاذ بقوله: (مرغليوث) وعرّفه بي فهزّ رأسه هزّ العارف. لم يطل مجلسه أكثر من نصف ساعة عرفتُ فيه أنّ حكومته أوفدته بمهمة من لندن ليبيت ليلةً في دمشق وثانية في القدس ليحطّ الثالثة في مطار طهران على موعدٍ مع الشاه. وعجبتُ: أما تجد حكومته غير هذا الشيخ المخلّع الفاني ليقوم بمهامّها ويدعم إمبراطوريتها، ثم زال عجبي حين رأيته يهجم على موضوعه دون تلبث، فيناقش الأستاذ كرد علي، ما الذي أبطأ بالبلاد العربية عن الاقتداء بتركية في اتخاذ الحروف اللاتينية؟ ولِمَ أضاعوا على أنفسهم هذا الرقيَّ الباهر؟.

فأجابه الأستاذ بلطف وصدرٍ واسع ــ على قلة صبره على سماع مثل هذه الدسائس ــ مشيراً إلى خطأ هذه الفكرة، وأنّ وراءها أضراراً على العرب لا تحصى، وأن الأتراك أنفسهم أضاعوا مركزهم في الشرق بتبديل حروفهم... فماري مرغليوث في كلّ ما سمع، وقال: إنّ أمله وطيد في أن يحذو الشاه حذو أتاتورك، وأنّ العرب لا يحملهم على تغيير كتاباتهم إلا حاكم قوي مثل أتاتورك أو الشاه (بهلوي) وأنه مسافر إلى طهران لدراسة أسباب تأخر الشاه عن المبادرة إلى فرض

---

(1) ــ حاضر اللغة العربية: 179 ــ 180 ــ 181.

(2) ــ يوحنا أهتنين كرسكو: من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

(3) ــ ذكر الأفغاني أن الرد المذكور في المجلد الرابع من مجلة المجمع ص 483 تشرين الثاني 1924.

(4) ــ دافيد صموئيل مرجليوث 1858 ــ 1940 إنكليزي، بروتستانتي. من كبار المستشرقين، كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق. مولده ووفاته بلندن. نشر عدداً من آثار العرب. له في لغته كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن فيها مخلصاً للعلم. الأعلام 2: 329.

الأحرف اللاتينية"[1]

أشار الأفغاني إلى أنّ أصحاب هذه الدعوات المشبوهة قد انحصروا في ساحل الشام (لبنان) وأنّ هذا الساحل "قد شهد من أبطال الحفاظ على اللغة في القرن الماضي ما لم يشهد مثلهم في الداخل، وكان يجب أن يكون هذا محطّ العجب لولا ظهور السبب، فالعرب في ساحل الشام (لبنان بلغة الإدارة) كالعرب في داخله دماً وأصولاً وآمالاً وآلاماً لكنّ حملة ذكية خبيثة قامت بها دول الغرب الطامعة في بلادنا خلقت من الساحل جواً قلقاً موبوءاً حتى اليوم"[2] ويذكر الأفغاني الفتنة التي افتعلها الاستعمار عام 1860[3] وما تلاها من تنازلات الدولة العثمانية، ثم يذكر تشجيع فرنسا لهذه الدعوات المشبوهة بعد احتلالها ساحل الشام (لبنان) عام 1919 ويشير إلى استمرار هذه الدعوات في ذلك الساحل إلى وقت قريب من الوقت الذي كان يكتب فيه كتابه وهو عام 1961 قال:

"إنّ هذه الدعوات التي ولدت ميتةً في داخل الشام وجدت في الساحل الهواء الذي تتنفسه ولو هواءً مخلخلاً وفي بيئات ضيقة قليلة أجنبية قلباً وقالباً أو قلباً فقط. فقد عرفت أنّ نشرتين صدرتا في الأعوام القريبة باللهجة العامية والحرف اللاتيني، الأولى للأب رافائيل نخلة والثانية بقلم سعيد عقل وأن رسالة عقبت عليهما وعلى الدعوة الهدامة من أساسها للدكتور سعيد شهاب الدين"[4] وهنا يثني الأفغاني على أطروحة الدكتور شهاب الدين ويرى أنها فنّدت وأبطلت حجج هؤلاء...

ويعرّج الأفغاني في آخر بحثه على "فتنة" عبد العزيز فهمي التي تركزت في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1943 وكنا أشرنا إليها، ويلخص الأفغاني تلك الواقعة بقوله: "واستمرّ الجدل شاغلاً المجمع عن أعمال ثلاث سنين كوامل انتهى برفض الدعوة" ويعلق قائلاً: "وكان حريّاً أن يكون هذا إخفاقاً لا نجاحاً، لكننا إذا عرفنا أن غاية هذه الدسيسة إما الهدم وإما عرقلة البناء وأنها آلت إلى الثاني أيقنّا أنّ عدونا نجح، وأنّ آلته إلى النجاح أعوان متطوعون منا عن سوء نية أو غفلة وسذاجة، ولو حسبنا ما أنفقت الدولة على المجمع هذه السنين الثلاث وما أضاع أعضاؤه ومتتبعو أخباره من جهد ووقت، وما شغلت الناس هذه الفتنة عن مصالحهم هالنا عظم الخسارة علينا وغنيمة أعدائنا منا. ولولا أنّ الشام شُغلت بأصداء هذه البلبلة في مجمع القاهرة، وهمّنا أمرها بل غمّنا أيضاً، ما عرضتُ له، ولكن البلاد العربية تعيش اليوم (1961) كالبلد الواحد، لا يُلقى في حيّ من أحيائه بقذيفة إلا تجاوبت الأصداء في كلّ الأحياء:

إذا ألمّت بوادي النيل نازلة … باتت لها راسيات الشام تضطرب"[5]

---

(1) حاضر اللغة 184-185.
(2) حاضر اللغة العربية: 185.
(3) انظر "تاريخ الدولة العلية العثمانية" 251 وما بعدها. و "التبشير والاستعمار": 137 وحاضر اللغة 185.
(4) حاضر اللغة العربية: 187
(5) حاضر اللغة العربية 189

ثالثاً: صعوبة القواعد والإعراب في اللغة العربية:

اقترنت الدعوة إلى العامية بالصراع بين دعاتها وبين حُماة الفصحى، وقام مَنْ يدعو إلى التجديد والإصلاح والتيسير في مجال اللغة والنحو، وانحرف بعض الدعاة فدعا إلى تمصير اللغة العربية كأحمد لطفي السيد[1] ومحمد تيمور [2] وعبد العزيز عبد الحق[3]، ودعا بعضهم إلى تيسير نَحْو العربية وكتابتها ومادتها وذلك لصعوبتها[4]. وقد اتّجه الأستاذ الأفغاني في بحثه إلى بيان الأسباب الكامنة وراء ما يظهر أنه صعوبات في اللغة العربية فرآها في طرائق التعليم وكتبه فقد "كانت قواعد اللغة العربية تدرّس حتى منتصف القرن التاسع عشر في الكتب القديمة الصفراء المثقلة بالحواشي والشروح والتقارير والردود، فإذا أضفت إلى ذلك عُقم التدريس وأخْذَ الطلاب باستظهار المتون في النحو والصرف أدركت العناء الذي كان يلقاه الصغار في تعلّم العربية، هذا شأن العرب فما بالك بالأجانب الذين يتعلمون لغتنا"[5]. لقد وضع الأستاذ يده على العلّة، إنها ليست في اللغة، لأنه يعرف أن اللغات الأخرى فيها من المشكلات مثل ما في اللغة العربية أو أكثر... وقد تم الاتجاه إلى التغلب على هذه الصعوبات أو المشكلات بأمرين:

1ـ أُلّفت كتب قواعد العربية بأساليب جديدة.

2ـ تمّ تغيير طرق التدريس.

"ونشأت أجيال الطلاب بعد ذلك على كتب حديثة ميسرة واضحة لا صعوبة في عباراتها ولا التواء، غنية عن الشرح والتعليق"[6]

إنّ الأمر لم يكن في حقيقته أمر صعوبة في القواعد، لكنه أمر من كان يسهر ويدبّر للكيد والتخريب. وما يرويه الأفغاني يؤكد صدق نظرية المؤامرة في هذا المجال، وقد مرّ بنا خبر "مرجليوث" وسننقل الآن خبر "ماسينيون" قال الأفغاني : "أول ما أعرف من محاولات الأجانب في هذا الموضوع ما حدثني به المرحوم الأستاذ محمد سليم الجندي[7] أيام الاحتلال الفرنسي قال: "هبط المستشرق المسيو ماسينيون دمشق في أوائل سنوات الاحتلال، فاتّصل به ــ بطبيعة الحال ــ زملاؤه من أعضاء المجمع الذين بينه وبينهم معرفة فألقى إليهم في جملة ما ألقى "أنّ إهمال

---

(1) أحمد لطفي السيد 1870-1963 رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة. كان يسمى أستاذ الجيل. ترجم بعض آثار أرسطو إلى العربية. الأعلام1: 200.

(2) محمد تيمور 1892-1921 كاتب قصصي مصري، مولده ووفاته بالقاهرة. الأعلام6: 22.

(3) عبد العزيز عبد الحق: لم أقع له على ترجمة. وانظر تاريخ الدعوة إلى العامية 149–123.

(4) انظر تاريخ الدعوة إلى العامية 144-146.

(5) حاضر اللغة العربية 192.

(6) حاضر اللغة العربية 192 وقد ذكر الأفغاني الكتب الميسرة وهي كتب الشرتوني والبستاني والغلاييني في ساحل الشام والنحو الواضح في مصر وخيرها جميعاً كتاب (الدروس النحوية) لحفني ناصف ورفاقه....

(7) محمد سليم الجندي 1881-1955، شاعر، مدرّس عالم بالأدب، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. الأعلام 6: 148.

الإعـراب ييسـر تعليم العربية على الأجانب ويكون في الوقت نفسه تجديداً يليق بمؤسسة كالمجمع" فناقشه بعض وسكت بعض، إلا أن أحداً لم يعر هذه المقالة اهتماماً ما"[1]

وذكر الأفغاني أنّ الفرنسيين أدركوا أنه لا جدوى من هذه المحاولة في الشام الداخلية (سورية) لكـنه أشار إلى أن أحد أعضاء المجمع ــ لم يذكر اسمه ــ تربّص قليلاً حتى نسي أعضاء المجمع دعايـة المستشرق الفرنسي، ودسّ في مجلة المجمع على غفلة من أهلها كلاماً عنوانه:"أقرب الطرق إلـى نشر الفصحى" "فردد ما كان ردده الأجانب على أسماع أجدادنا من تفضيل العامية، وزعم أنها اخـتزالٌ للفصـحى وعدول إلى ما هو الأنسب وأنّ إبدال الكلمات الفصحى والإعراب بالعامية غير ممكن لأنه مقاومة للطبيعة، وانتهى إلى أنه لا يصح التشاؤم بالعامية إلى حدّ إماتتها"[2]

وعلّق الأفغاني على المقال المشار إليه بقوله: "وكلّ هذا الباطل بليّ من كثرة الترداد الممجوج، لكنّ الجديد الذي أضافه الكاتب هو اللعب بالتاريخ والافتراء على حديث الرسول ﷺ حين حمله على نصـر هـذه الدسيسـة الأجنبية التبشيرية فقال: في نَهْي الرسول عليه الصلاة والسلام عن التشدّق والـتقعّر: "وماذا عساه يكون أسلوب التكلّف والتشدّق المنهيّ عنه سوى الذي يمط به المتكلم صوته ويحـرّك شفاهه بحركات الإعراب، وهذا تطوّع لتأييد الافتراء بتزييف التاريخ وتزوير المعاني على الألفـاظ ــ ومصـادمة البدائه عجيب غريب"[3] أقول: وكان الأعجب من ذلك بالنسبة لي أن يكون صـاحب المقـال الذي لم يذكر الأفغاني اسمه هو الشيخ عبد القادر المغربي[4] فمثل هذا الرجل في علمـه وفهمـه وإتقانه لم يكن له أن يورّط نفسه في مثل هذا الخطل. قال الأفغاني "ولا أشك في أنّ الكاتـب يعـتقد عكس ما كتب إذ هو على حظ من العلم والفهم، ولكنّ الذوبان وقابلية التسخير للقوّة المحـتلة يقيسـان ذراعاً كلما قاست هي إصبعاً، وأيّ استجابة أسرع من أن ينتهي الكاتب إلى الحكم الفاسـد الآتـي حين جلس مجلس القاضي من الإعراب فقال: " على أنّ في مراعاة قواعد النحو من إلحـاق علامـات الإعراب بالجمل التي تتألف منها أحاديثنا ومحاوراتنا تفريطاً في الوقت وتضييعاً لـه... وفي عدم مراعاتها توفيراً للوقت وحرصاً عليه"[5]

وقـد نـال الكاتـب الذي لم يذكر الأفغاني اسمه وسام "اللجيون دونور" الفرنسي مكافأةً له[6]. واختفـت هذه المحاولات بعد ذلك حتى تسلّم الكاتب نفسه إدارة المجمع والمجلّة فمرّر مقالاً فيه غمز للعربـية، فاستُعظم نشر مثله في مجلة المجمع واضطر الشيخ المغربي أن ينشر ردوداً كتبها بعض

---

[1] حاضر اللغة العربية: 192.

[2] المرجع السابق: 193 وعنه: مجلة المجمع العلمي العربي 3: 236.

[3] حاضر اللغة العربية 193-194.

[4] عبد القادر بن مصطفى المغربي الطرابلسي 1868-1956 نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق. أصله من تونس وولد باللاذقية ونشأ في طرابلس الشام ثم استوطن دمشق الأعلام 4: 47.

[5] حاضر اللغة العربية: 194.

[6] المرجع السابق 194.

الكتّاب الآخرين رداً على المقال المذكور وكان منهم سعيد الأفغاني[1].

ويبدو أنه حتى ذلك الحين كان هذا الصوت ـ صوت المغربي ـ نشازاً في بلاد الشام (سورية) ليس له ثان ولا ثالث، فقد جُوبه بردود صارمة وردّة فعل عرّفت الآخرين أنه لا مجال للدخول إلى إفساد اللغة في بلاد الشام مهما كان العنوان برّاقاً والدعوة مخادعة، وإذا كانت هذه الدعوة قد انتهت في بلاد الشام عند هذا الحدّ فإنها لن تلبث أن تطلّ برأسها في مناطق أخرى في ساحل الشام وفي مصر، فبعد ذلك بزمن سيعلو صوت الدكتور إبراهيم أنيس[2] في كتابه "من أسرار العربية" ليزعم أن حركات الإعراب لا صلة لها بالمعاني[3]، ويدعو إلى استخدام الوقف[4]، ويزعم أن هذه العربية هي من صناعة صنّاع الكلام[5] (النحاة) وقد ردّ عليه وفنّد مزاعمه الدكتور مازن المبارك[6] في كتابه "نحو وعي لغوي".

على كل فقد اكتفى الأستاذ الأفغاني بعرضه لادّعاء صعوبة الإعراب عند هذا الحد، ثم أفصح عن موقفه تجاهها، وكان موقفه موقف المتفائل، فإنه كان يعتقد أنّ مثل هذه الدّعوات لا مستقبل لها، وأن المشكلات المعلن عنها هي مشكلات حقيقية لكن حلولها عتيدة بل ناجزة، فمشكلة صعوبة المؤلفات تصدّى لها نفر من المخلصين، وأصبحت كتبهم هي المعوّل عليها في التعليم العام، ككتاب جامع الدروس العربية للشيخ مصطفى الغلاييني[7] وكتاب الدروس النحوية لحفني ناصف[8] ورفاقه. وكان الأفغاني شديد الإعجاب بكتاب حفني ناصف على وجه الخصوص، قال: "مهما يكن فقد أحسّ فضلاء بوجود صعوبة واندفعوا يطبّون لها: فكان لها من ذلك علاج ناجع منطقيّ هو الذي فعله الأساتذة الأجلاّء (حفني ناصف ورفاقه) في مصر بتأليف هذا الموجز المركز السليم لطلاب المدارس الابتدائية، بحيث لا يحتاج غير المختص طول عمره إلى أكثر من الحلقة الأخيرة في النحو والبلاغة وهي نحو مئة وأربعين صفحة من القطع الصغير، وفعل قريباً منهم بعض المؤلفين في الشام قبلهم وبعدهم. هؤلاء الفضلاء عرفوا أنّ العلاج في تيسير التأليف وتسهيله وحسن عرضه وباتّباع الأساليب التربوية الحديثة لا في القواعد ذاتها"[9]

---

(1) المرجع السابق.195
(2) إبراهيم أنيس 1906-1978 لغويّ من أهل القاهرة، كان عضواً في مجمع القاهرة اللغوي. إتمام الأعلام: 14.
(3) من أسرار اللغة: 225.
(4) المرجع السابق: 224.
(5) المرجع السابق: 183.
(6) مازن المبارك ابن عبد القادر ولد في دمشق 1930. درّس في كلية الآداب بقسم اللغة العربية وبجامعة قطر وكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبيّ. انظر معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين: 464.
(7) مصطفى بن محمد سليم الغلاييني 1886ـ 1944 نحوي شاعر، أديب. مولده ووفاته ببيروت. من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. الأعلام 7: 244.
(8) حفني ناصف 1856ـ 1919. قاضٍ أديب. تعلم في الأزهر. الأعلام 2: 265.
(9) حاضر اللغة العربية: 197.

إنّ دعـوات الدخلاء من الخارج والمخدوعين بهم أو المأجورين لهم في الداخل لم تذهب هباءً، بل فعلت فعلها وانتقلت إلى مجال وزارات التربية وجرت محاولات في التيسير والتبسيط كلّفت وقتاً ومـالاً ثـم انكشفت الحجب عن الخدعة "ونجح أرباب الخرافة في شيء واحد هو اهتمام الناس بها، فـثار حولهـا جدل ومعارك قلمية عوّقت الناس زمناً وشغلتهم عمّا ينفعهم وألهتهم عن المضيّ في الجـد. ولا يخفـى قـيمة هـذا على مكر العدوّ المتربص اليقظ"[1] وقد انتهى الأمر بهذه المشاريع المشبوهة إلى أن رفضها المدرسون في مصر وسورية.

لـم يعـرض الأفغاني لتأريخ الدعوة إلى العامية في ساحل الشام إلا لماماً وفي بعض حواشيه، وكـان علـى ثقة بالمخلصين الذين يتصدّون لهذه الدعوات. ومع ذلك فما زال هناك في ساحل الشام عملاء حقيقيون مأجورون مسخّرون إلى يوم الناس هذا يجأرون بدعواهم وينفقون المال ــ ليس من جـيوبهم ــ ليطـبعوا كتباً بالعامية بالحرف اللاتيني وقد رأيتُ واحداً منها وعانيت معاناة قاهرة في قـراءة صـفحة مـنه، ومنذ سنوات سمعت الشاعر سعيد عقل يقول للجمهور في أبو ظبي إنه ينظم قصائده بثلاث لغات هي: العربية والفرنسية واللبنانية، وهو يعني باللبنانية عامية منطقته التي يعرفها والتي تختلف عن عامية طرابلس وصيدا والبقاع؟!!!

ووضـع هـذه الفئة الآن أقل بكثير مما كانت عليه أيام كتب المرحوم الأفغاني كتابه (1961) وكان اجتزأ بتعليق موجز عن المشكلة في ساحل الشام: "أما في ساحل الشام فليس في الأمر انخداع، إن الذيـن تعرضوا لعيب اللغة العربية ونصبوا أنفسهم مصلحين لها مخادعون سخّرهم الأجانب في عـداوة اللغـة والكـيد لها، ومهدوا لهم منابر التدريس في كلياتهم وإرسالياتهم التبشيرية التعليمية، وأمدّوهـم بنفقات النشر والمكافآت، بقطر الكرة والحقد والتشفي من أقلامهم على الأسطر حيناً وبين السـطور أحياناً، فلنتركهم لما بهم، يقتلهم غيظهم بطيئاً، فالطبيعة ماضية لطيّتها، غيرُ عابئة بضغن ذوي الأهـواء الذين لا يشفيهم إلا أن تنقلب الأمة العربية الواحدة شعوباً بسبعين لغة، كلهنّ غير لغة القرآن، وهيهات..."[2]

هذا عرض لجانب هام من جهود الأستاذ الأفغاني في خدمة العربية والتأريخ لها، وقد آثرت أن أعـرض لدفاعـه عـن العربـية ضـد دعاة العامية وكتابة العربية بالحرف اللاتيني ودعاة إلغاء الإعـراب... ومَنْ لفّ لفّهمْ وانتهج سبيلهم، لأنهم على الرغم من هزيمتهم المحققة أمام تطور الحياة ونمـو التعليم لا يزالون يطلّون برؤوسهم في كل مناسبة تسنح ليطعنوا في العربية بحجّة العلم تارة وبحجـة المصطلحات تارة أخرى وبما يتراءى لهم. والمشكلة ليست في العملاء المسخّرين، فهؤلاء يُكشـف أمرهم سابقاً أو لاحقاً، وإنما المشكلة في أولئك المغرَّر بهم الذين يتبرعون بالجدل والمناقشة ليكونوا خدَماً بالمجّان لأغراض استعمارية هدّامة.

[1] المرجع السابق 198.
[2] حاضر اللغة العربية:198.

رحم الله أستاذنا الأفغانيّ الذي لم يأل جهداً في خدمة العربية وتاريخ العرب، وفي تعليم نحو اللغة وصرفها وأدبها طوال حياته في الشام ثم في بلادٍ عربية أخرى.

❑

مراجع البحث

1ـ أباطيل وأسمار: محمود محمد شاكر. ط2 ـ مط المدني. القاهرة 1972.

2ـ إتمام الأعلام: د. نزار أباظة ـ محمد رياض المالح. دار صادر. بيروت 1999.

3ـ الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت 1979.

4ـ بلوتولاند: لويس عوض. مط الكرنك بالفجالة ـ 1947.

5ـ تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. د. نفوسة زكريا سعيد. الإسكندرية 1964.

6ـ تاريخ الدعوة العلية العثمانية. محمد فريد بك المحامي. دار الجيل. بيروت 1977.

7ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية: د. مصطفى الخالدي. د. عمر فروخ ط2. المكتبة العصرية ـ صيدا 1957.

8ـ حاضر اللغة العربية في الشام. سعيد الأفغاني. معهد الدراسات العربية العالمية القاهرة 1961.

9ـ حياة اللغات وموتها؛ اللغة العامية. الخوري مارون غصن. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1925

10ـ ذيل الأعلام: أحمد العلاونة. دار المنارة ـ جدّة ـ 1998.

11ـ فهرس مجلة المجمع العلمي العربي. ج1. وضع عمر رضا كحالة. مطبوعات المجمع دمشق 1956.

12ـ معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين. عبد القادر عياش. دار الفكر ـ دمشق 1985.

13ـ من أسرار اللغة. د.ابراهيم أنيس. ط3 مكتبة الأنجلو ـ القاهرة 1966.

❑❑❑

سعيد الأفغاني
عالماً وإنساناً
(1327 – 1417هـ) – (1909 – 1997م)

جمانة طه

سعيد *الأفغاني حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها، هو عنوان كتاب من تأليف د. مازن المبارك، جاء في سلسلة علماء ومفكرون معاصرون (19)، من إصدار دار القلم بدمشق عام 2002م .*

يوثق الكتاب مسيرة الأستاذ الأفغاني علمياً وإنسانياً في فصلين يندرج تحتهما عدد من العناوين المختلفة، وخاتمة وملحق وثائق مصورة.

ولد سعيد الأفغاني عام 1909 من أم شامية وأب من كشمير التي كانت تابعة للأفغان في ذلك العهد، ومن هنا اكتسب هذا العَلَم لقبه (الأفغاني).

ويشير الكتاب، إلى أنه نشأ في أحياء البزورية والنوفرة والقيمرية والعمارة المحيطة بالجامع الأموي، لذا تفتحت عيونه على ما كان يشاهد في الجامع الأموي من دروس لا تنقطع.

ومن خلال هذه الدروس تتلمذ على الشيخ أحمد النويلاتي الذي بدوره تتلمذ على الشيخ طاهر الجزائري الذي كان يدعو إلى محاربة الفساد في جميع أشكاله ومواضعه.

وقد أفاد الأفغاني من الشيخ النويلاتي فوائد لا تقدر في علوم الدين واللغة وتأثر بدعوته الأخلاقية الإصلاحية.

أما مسيرته العلمية، كما وردت في الكتاب، فقد بدأها في مدرسة الإسعاف الخيري، هذه البداية التي يذكرها الأفغاني في كتابه (حاضر اللغة العربية في بلاد الشام)، فيقول: "كنت طفلاً في السابعة من عمري في مدرسة الأمينية والإسعاف الخيري، آخر العهد التركي. فأذكر أن المدير وبعض المدرسين يلتزمون الفصحى دأباً في حوارهم معنا، وفي إلقاء الدروس وفي التنبيهات العامة حين يجتمعون الطلاب صباحاً وقبل الانصراف مساء. وحين يقرأ التفقد صباحاً كان المقروء اسمه يجيب

بـــ (لبـيك)، وحيـــن يجيب الداخلون حديثاً في المدرسة بما ألفوا في مدارس الحكومة وهي كلمة (أفندم) يصرخ بهم المدير، وينظر إليهم الطلاب شزراً كأنهم كفروا بالله، فسرعان ما يستدركون بـــ (لبيك) وتمر العاصفة." ص16

أتـم دراسته الابتدائية في مدرسة التطبيقات، وتابع دراسته الإعدادية والثانوية في مكتب عنبر. ثـم الـتحق بمدرسـة الآداب العليا في الجامعة السورية، وكان مديرها الأستاذ شفيق جبري، ومن أساتذتها الأستاذ سليم الجندي والشيخ عبد القادر المبارك.

وبعـد تخرجه عين الأستاذ الأفغاني أستاذاً مساعداً في كلية الآداب. وفي عام 1946م أوفد إلى جامعـة فؤاد الأول في القاهرة للتحضير لدرجة الدكتوراه، لكنه لم يتابع الدراسة مفضلاً العودة إلى دمشق ومتابعة تدريس اللغة العربية في كلية الآداب.

امـتد نشاطه التدريسي إلى بعض الجامعات العربية، مثل الجامعة اللبنانية في بيروت والجامعة الليبية في بنغازي، وجامعة الملك سعود في الرياض وبقي يدرس فيها إلى أن بلغ الخامسة والسبعين من عمره.

وقـد أوفدتـه وزارة المعـارف في سورية إلى مصر وليبيا والجزائر والمغرب للاطلاع على طـرق تدريـس اللغة العربية في جامعاتها، وإلى إسبانيا وفرنسا وإنكلترا لزيارة معاهد الاستشراق فـيها. فـي عام 1970م انتخب عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي عام 1990م، انتخب عضواً عاملاً.

كـان الأستاذ الأفغاني جم النشاط العلمي محاضراً وباحثاً وكاتب مقالة ومؤلفاً ومحققاً، ألف في اللغـة والـنحو: حاضـر اللغة العربية في بلاد الشام، نظرات في اللغة عند ابن حزم، مذكرات في قواعد اللغة العربية، في أصول النحو، الموجز في قواعد اللغة العربية. وشواهدها، من تاريخ النحو.

وفي موضوعات أخرى ألف: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ابن حزم الأندلسي، الإسلام والمرأة، عائشة والسياسة.

ولـــه في التحقيق كتب عديدة نذكر منها: المفاضلة بين الصحابة لابن حزم، تاريخ داريا لعبد الجـبار الخولانـي، الإغراب في جدل الإعراب لابن الأنباري، حجة القراءات لابن زنجلة، ملخص إبطال القياس لابن حزم.

***

اتصـف الأفغانـي بالأنفـة والكبرياء، وبكرهه للمحاباة والنفاق. لم تفتنه يوماً سلطة قوي، ولم يأسـره مظهـر أو منصب. كان نبيلاً مع أصدقائه وفيا لهم، يخشى الله ولا يخشى الأذى من الناس. وفـي كـتاب عائشة والسياسة، يصف الأفغاني نفسه، فيقول: "في طبعي هيام بالحرية والصراحة، وكثـيراً مـا أنكب الطريق الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص متحملاً بصـبر وطمأنيـنة مـا أجر على نفسي من عناء وعداء. وهذا بلاء حتم لا مفر منه لمن خلق حراً

صريحاً، ولو حاول غير ذلك ما استطاع."

***

يعدد الدكتور مازن المبارك في كتابه الكتب التي ألفها الأفغاني أو حققها، وتوقف عند كل واحد منها. فلو أخذنا منها كتاب (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) لرأينا أنه يضم مقدمة وثلاثة أبواب. يتحدث في المقدمة عن معارض الشام في عصره ويمهد للكلام على الأسواق ثم ينقل القارئ إلى جو تلك الأسواق. وفي الأبواب فصل الحديث عن التجارة عند العرب، وبيوع الجاهلية وموقف الإسلام من هذه البيوع. ثم تحدث عن قريش وما عرف به القرشيون من مهارة في التجارة، وما عرفوه في حياتهم من أسفار واختلاط بأقوام آخرين.

وقد تحدث عن أسواق العرب في الجاهلية، ثم في الإسلام. وأشار بتفصيل إلى البصرة وسوق المربد، وما فيه من عادات وأشعار ومنافرات.

وفي (كتاب عائشة والسياسة) الذي يضم مقدمة وستة أبواب وخاتمة، يُعرّف الأفغاني بالسيدة عائشة منذ ولدت إلى بداءة خلافة عثمان. ويبحث في العصر الذي عاشت فيه والذي شهد أعنف نشاط سياسي شهدته الجماعة الإسلامية.

ثم يتناول موضوع المرأة والسياسة ويخلص إلى القول بأن المرأة لا تصلح للسياسة، وعدَّ مشاركتها فيها مشاركة ذميمة، لأنَّ "من شأن السياسة المزالق الخفية الخطرة، فهي على المرأة حرامٌ صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب".

ويتوقف عند أبطال الفتنة الحقيقيين ونصيب السيدة عائشة منها، ويرى أنها مؤامرة واسعة كان وراءها عبد الله بن سبأ. وأفرد الباب الخامس من الكتاب للحديث عن حياتها بعد حرب الجمل، مبيناً ندمها واستغفارها وانقطاعها إلى العبادة والصدقة ونشر العلم.

أما كتاب (في أصول النحو)، فيضم محاضرات كان الأستاذ قد ألقاها على طلابه في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، تناول فيها موضوعات الاحتجاج والقياس والاشتقاق والخلاف. ففي موضوع الاحتجاج أفاض الأفغاني في الحديث عن الاحتجاج بجميع القراءات القرآنية، وبيَّن مواقف النحاة من القراءات الشاذة، وحمل على مَن عدَّ الشذوذ في القراءة شذوذاً في العربية.

وحول القياس ذكر المؤلف نبذة من تاريخ هذا العلم، وتحدث عن أبرز القياسيين من النحاة، من أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جني.

أما الاشتقاق فعرفه وعدد أنواعه وذكر بعض ما يتعلق به من أحكام، ودعا إلى إعادة النظر في باب الاشتقاق للإفادة مما تتصف به العربية من مرانة وطواعية.

وفي موضوع الخلاف تحدث عن مدرستي البصرة والكوفة، وتناول نشأة الخلاف بين الكسائي والأصمعي، وأشار إلى أن رجال البصرة كانوا أكثر علماً في هذا المجال من رجال الكوفة. وتحدث عن أثر العصبية في الخلاف وانتهى إلى أن السياسة ليست عاملاً في تكوين النحو الكوفي، وأن

صـــورة الخـــلاف بين الكوفيين والبصريين وحدة التدافع بين مدرستيهما مبالغ فيها. ودعا الأفغاني رجال العلم والنحاة إلى تجنب المآخذ التي أخذت على القدماء ليستطيعوا إعادة بناء القواعد العربية.

وقد أعيد طبع هذا الكتاب مراراً لفائدته الكبيرة لدارسي اللغة والأدب.

***

ومـــن الكتب المحققة، كتاب (تاريخ داريا) للقاضي عبد الجبار الخولاني. فداريا التي تبعد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوباً، كانت حاضرة علم وأدب وكانت وقفاً لعامة فقراء دمشق توزَّع عليهم غلاتها.

ويضـــم الكـــتاب ســـبعاً وأربعين ترجمة موجزة نادرة لمن نزل بداريا من أصحاب رسول الله (ص) والتابعين وتابعي التابعين، وأهل العلم على طبقاتهم وأزمانهم.

وإذا كان القاضي الخولاني لم يرتب التراجم على حروف المعجم، فقد استدرك المحقق الأفغاني هـــذا الـــنقص وأثبـــت فـــي آخـــر الكتاب مسرداً بأعلام الناس والأماكن والكتب والأيام مرتباً على الحروف.

هـــذا غـــيض مـــن فيض العلم الذي تركه لنا الأستاذ الأفغاني، غير ناسين المقالات التي كتبها وأغـــنى بهـــا المكتبة العربية والباحثين ونشر معظمها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ومجلة الـــتمدن الإســـلامي ومجلـــة دعوة الحق. وأشير في هذا السياق إلى أن كتب الأستاذ الأفغاني غير مـــتوفرة في المكتبات لنفاد طبعاتها القديمة، ونتطلع إلى يوم تتبنى فيه إحدى الجهات الثقافية مشروع إعادة طبع هذه الكتب القيمة التي هي حاجة ضرورية للأجيال على مر العصور.

هـــذا هو أستاذ الأساتيذ الذي قضى عمره في خدمة اللغة العربية وتخرجت على يديه عشرات الأجـــيال. هـــذا هو الأستاذ سعيد الأفغاني الذي أمضى حياته منافحاً عن الحق ملتزماً به وداعياً إلى كلمة سواء.

وهـــذا هـــو الوفـــاء الذي دفع الدكتور مازن المبارك إلى تأليف هذا الكتاب عن أستاذه، موثقاً معلوماته بصور ورسائل ومصدقات رسمية.

رحم الله أستاذنا الأفغاني، وحفظ الله أستاذنا المبارك.

□□□

خطأ مشهور و صواب مهجور *

سعيد الأفغاني

***لعل** من أغلى الحكم التي يتناقلها العامة في مجالسهم وأشباههم في بعض الوجوه قولهم: "خطأ مشهور خير من صواب مهجور"، يواجهون به من يتصدى لإصلاح غلط شائع بين الناس في فعل أو قول أو تصرف ما؛ فيبوء المصلح الناصح المتحمس الغيور بالاستنكار والخجل، ويفوز مرتكب الخطأ بنعت الحكمة والتعقل. وأمثّل بأربع كلمات مما يشيع اليوم:*

1ـ نشر قبل سنوات الشيخ محمد هاشم رشيد الخطيب رسالة في منكر كان شاع جديداً مدة بدمشق وأنهى جملته بقوله ".. فلا حول ولا قوة إلا بالله." على ما يشيع عادة عند أكثر الناس. فعلق الشيخ محمد الكافي من العلماء المقيمين بالشام وتوفي وكان تونسي الأصل:

"قوله هنا (لا حول ولا قوة إلا بالله) خطأ، والصواب أن يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون" فقوبل قول الناقد بالاستغراب من الجمهور مع أنه هو الصواب، لكن الشيوع جرى بالخطأ.

2ـ كلما ذكر ذاكر القطر السوري مال لسانه غالباً إلى الخطأ فشدد الياء ولفظها بالألف المقصورة (سوريّ)، فإذا نبّه إلى الصواب في نطقها بالتخفيف وإبدال التاء بالألف هكذا (سورية) استغربوا قوله.

3ـ كانت وسائل الإعلام في الشام تقول (ميزانية الدولة) أو (ميزانية المؤسسة) بهذين المصطلحين الواضحين العربيين، فغابا هذه الأيام في بعض المناطق العربية، وحل محلها (كادر وكوادر) الفرنسيّان حين كثر في موظفيها خريجو المدارس الأجنبية.

4ـ كانت بعض الصحف تحذّر الكتاب من استعمال كلمة (أخصّائي) بدل (اختصاصي في جراحة القلب مثلاً) أو (في الهندسة).. إلخ لأن معناها شنيع رديء فزادت لوحات المكاتب من هذا

* مقال لغوي كتبه الأستاذ سعيد الأفغاني بخطه قبل رحيله عن الدنيا ولم ينشر، وتنشره مجلة "التراث العربي" للمرّة الأولى.

الغلط، كأن الدعوة كانت إلى استبدال الأدنى بالذي هو خير، ظناً أنهم يتفاصحون... إلخ ما هنالك.

***

ليست كلمتي اليوم في شيء من هذا، بل في زلة سها فيها رواة قدماء فضلاء حين أثبتوا في تآليفهم لكتب النصوص الأدبية المختارة، أخطاء، نقلها خالف عن سالف، صارت هي التي نأخذ تلاميذنا باستظهارها على خطئها، ونبه بعضهم إلى خطئها فأخذته العزة بالإثم فافتعل تعليلات صناعية لا أساس صحيحاً لها، ولو اعترف بخطئه وبادر إلى التصحيح كان أفضل، اعترافاً بالحق وحماية للغة من الإفساد.

تلك التي في أكثر طبعات ديوان امرئ القيس، حيث ضُبطتْ مطلعها بالفاء وهو خطأ فاضح:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وجمهرة المشتغلين بالأدب حتى اليوم يروونها بالفاء خطأً: (بين الدخول فحومل) التي لقنونا [إياها] في الحداثة كما في أكثر النسخ المطبوعة منذ حياة الشيخين الإمام الشنقيطي والزوزني، أول من عُني بطبع شروح المعلقات فيما أعلم. والظاهر أن ما آمن به الاقتصاديون اليوم، أن (البضاعة الرديئة تطرد من الأسواق البضاعة الجيدة) ليس قاصراً على الاقتصاد، بل تسرب إلى ميادين شتى. ومسألتنا اليوم من أشهرها عند أهل اللغة.

***

معروف عن الأصمعي رحمه الله أنه يتحرى في السماع، ولا يعتمد من الروايات إلا ما خلص عنده من الشوائب، ووثق بضبط راويه وعدالته. وهنا نراه مستمسكاً بعلمه وملكته في العربية؛ فقد ابتدأ أولاً بمحفوظه بشأن (بين)، ما طبيعتها اللغوية؟ ما استعمالاتها المختلفة في كلام العرب؟ فلما لم يظفر بشاهد صحيح عنده عن العرب يشبه ما ورد في رواية الفاء لم يقف عندها قط.

أرجع إلى شروح المعلقات، فأبدأ بشرح المعلقات وأخبار شعرائها للشنقيطي، فقد جاء فيه:

(... وقوله "بين الدخول فحومل" على رواية الفاء أنكره الأصمعي، لأنه لا يقال هذا بين زيد فعمرو) وقد صحت الرواية (!) بالفاء وإن كانت رواية الواو أشهر.

قال ابن السكيت: إن رواية الفاء على حذف مضاف، والتقدير (بين أهل الدخول فحومل)

وقال خطاب: إنه على اعتبار التعدد حكماً، والتقدير [بين أماكن الدخول فحومل]، وهما موضعان).

والذين نصروا هذا القول اصطادوا له علة (مفتعلة) لا أساس لها، فزعموا أن (الدخول) مواضع عدة. ولا بأس بالبدء بنظرة الأصمعي في ردّ رواية الفاء:

1ـ المعـروف المألوف من كلام العرب أن (بين) تفصل بين شيئين أو أشياء متجاورة، وهذه المتعاطفات في هذه الأبيات الثلاثة بالفاء بالترتيب المذكور أسماء لأعلام أماكن معروفة.

2ـ ومعناها نص على الترتيب المتتابع، والمعطوف بالواو نص على وجود مصحوبها في هذا الموضع فقط.

3ـ والعطف بالواو نص على وجود مصحوبها في هذا الموضع فقط.

فظهـر أن روايـة الفـاء لا تصـح إلا على تأويل المفرد بالجمع. وأزيد: أنه لا بد ليصح هذا الاحـتمال الضعيف أن يكون بيدنا مصور يبين أماكن المواضع التي إلى يمين (سقط اللوى) وأخرى إلى شماله، وهو ما لا سبيل إليه. ولأذكر كلمة الأصمعي بحروفها:

قال الأصمعي[1] في كتاب (التصحيف):

"... تكلـم الناس في قوله "بين الدّخول وحومل"، ولا يكون (فحومل) لأنك لا تقول (رأيتك بين زيـد فعمـرو) وهـذا سـمعه الـزيادي من الأصمعي، فسألت ابن دريد عن الرواية فحكى ما قال الأصـمعي ولم يزد عليه، فسألت أبا بكر محمد بن علي بن إسماعيل فقلت: قال الأصمعي: لا يجوز أن يقال: (رأيته بين زيد فعمرو) وكان ينكر (بين الدخول فحومل)، فأملى عليٌّ الجواب فقال:

"إن لكـل حـرف من حروف العطف معنى، فالواو تجمع بين الشيئين نحو (قام زيد وعمرو) فجائـز أن يكون كلاهما قاما في حال واحدة، وأن يكون قام الأول بعد الثاني، وبالعكس. والفاء إنما هـي دالة على أن الثاني بعد الأول، ولا مهلة بينهما، فقال الأصمعي ـ وكان ضعيفاً في النحو ـ، غير أنه كان ذا فطنة... انتهى.

ثـم جاء شارح آخر للقصائد العشر (المعلقات) للتبريزي فكان ممن اختار رواية الفاء في مطلع قصيدة امرئ القيس:

قفـا نـبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بسـقط اللـوى بيـن الدّخول فحومل

ومشى على أذيال من قبله فقال:

اعـتراض الأصـمعي علـى رواية الفاء يمكن أن يجاب عليه بأن (الدّخول) هو عدة مواضع، فسـقط[2] اللوى هو هذه المواضع، وبذلك حُلّ الإشكال!! وقد ردّ هذا الجواب الذي مر آنفاً ولم يحلّ إشكالاً، ثم جاء شارح آخر فلم يزد شيئاً على أنصار رواية الفاء فعلق على هذا الموضع محاولاً ما حاولوا فقال:

"مبـنى الاعـتراض على شيئين: الأول أن (بين) لا يضاف إلا إلى متعدد، وهذا التعدد إما أن

---

[1] كـذا نخـط الأسـتاذ الأفغاني في مقاله هذا: وهو سهوٌ منه، والصواب "العسكري" وذلك في كتابه "شرح ما يقع فيه التصحيف والـتحريف" والـنصّ المنقول منه هو في ص 269 (ط المجمع) وقد رجعنا إليه لتقويم النص الذي اختصره الأفغاني اختصاراً شديداً- هيئة التحرير.

[2] شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ط دمشق 4/ 21.

يكون بالتثنية، نحو (جلست بين الرجلين) أو بعطف مفرد على مفرد، بحرف يقتضي مصاحبة أولهما لثانيهما أو ثانيهما لأولهما نحو (جلست بين زيد وعمرو).

الثانـــي: أن واو العطف قد تقتضي مصاحبة المعطوف للمعطوف عليه وفاء العطف لا تقتضي ذلك.

الجواب عن هذا الاعتراض التأويل في (الدخول) بجعله ... إلخ فبقي الإشكال حيث هو[1].

***

ولأذكّـر بشـــيء من مكانة الأصمعي وقيمة حفظه وأمانته عند أهل الحديث خاصة، فقد عرف عنه امتناعه عن تفسير ما يتعلق بهما تورعاً فلذلك ضرورة في مثل بحثنا:

ســأل أبو قلابة الأصمعي عن كلمة (سَقَب) في قول رسول الله "الجارُ أحق بسقب جاره" فقال: "أنا لا أفسر حديث رسول الله" ولكن العرب تقول: (السقب: اللصيق).

وسئل عن قول النبي ﷺ "جاءكم أهل اليمن وهم أبخع نفساً" قال: "يعني أقتل نفساً" ثم أقبل على نفسه كاللائم لها: من أخذني بهذا؟ وما علمي به؟"

وكان يتقى أن يفسر القرآن على طريق أهل اللغة.

وأكثر سماعه عن الأعراب وأهل البادية..[2]

وكان المبردّ يقول: كان الأصمعي أسد الشعر والغريب والمعاني.

أما المحدثون فقد قال التوّزي: كنا عند الأصمعي وعنده قوم قصدوه من خراسان، وأقاموا على بابـــه، فقـــال له قائل منهم: "يا أبا سعيد إن خراسان ترجف بعلم البصرة، وعلمك خاصة، وما رأينا أصحّ من علمك".

فقـــال الأصـــمعي: لا عـــذر لي إن لم يصح علمي، دع من لقيت من العلماء والفقهاء والرواة والمحدثيـــن، لقيت من الشعراء الفصحاء (فعدّهم...) ثم قال: وأولاد الفصحاء وما عرف هؤلاء غير الصواب، فمن أين لا يصح علمي؟ وهل يعرفون أحداً له مثل هذه الرواية؟" وكان الأصمعي صدوقاً في الحديث. عنده ابن عون وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وغيرهم، وعنده القراءات عن أبي عمرو ابن العلاء ونافع و و إلخ.

وسئل عنه أبو داود فقال: "صدوق" بل مذهبه أن من روى حديثاً فيه لحنٌ فقد كذب لأن الرسول لم يكن يلحن".

ومـــن قـــول الشافعي فيه: "ما رأيت في ذلك العسكر أصدق لهجة من الأصمعي" وما عثّر أحد

---

[1] أخبار النحويين البصريين ص 59.

[2] مختصر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر 15/210، و206 ط1 دار الفكر بدمشق سنة 1988.

عن العرب بأحسن من قتادة والأصمعي."[1]

وأخـــبر أبو أمية الطرسوسي: سمعت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يثنيان على الأصمعي في السـنّة ويروون قولته المشهورة: "مَنْ روى لحناً في حديث فقد كذب" وليس بعد هذا التوثق والتشدد احتياط. وزكى الأصمعيَّ من المحدثين خاصة أكابر.

ولأختم بمجلس قصير كان في حضرة الرشيد بين الكسائي والأصمعي:

سأل الأصمعي.. إلخ [2]

***

وبعد، فقد كان هدف هذا البحث الوصول إلى طمأنينة في جزئية ضئيلة:

هل قال امرؤ القيس في مطلع معلقته (بين الدَخول وحومل) أو (بين الدَخول فحومل) كما يرويه خطأً ناشرو الأخطاء والمتسرعون؟

□□□

(1) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. 15/ 206.

(2) لم يذكر الأستاذ الأفغاني هذا المجلس وكان على نية ذكره

قراءة
في كتاب "من تاريخ النحو"
لسعيد الأفغاني

د.أحمد عزوز

مقدمة

***إذا** كان العلاّمة النحوي سعيد الأفغاني يقول في مقدمة كتابه "من تاريخ النحو": "إذا وجد المختصون في علم ما فائدة ومتعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجم من سبقهم في هذا العلم، فإنّ متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم" (1)، فإنّه يمكنني أن أدلي بهذه الشهادة العلمية قبل العرض والتحليل فأقول: إنه مؤلّف في أصول النحو العربي، لا غنى عنه للطالب والأستاذ والباحث الذي يودّ التطرّق إلى نشأة هذا العلم وعلمائه الأوائل.*

وقد كان هذا الكتاب دوماً من المراجع التي أعتمدُ عليها حين أكلّف بتدريس النحو ومدارسه ومذاهبه على الرغم من اختصاره لمسيرة العلم، لا لشيء -حسب رأيي -سوى أنّه يعطي الأسس الدقيقة لمنطلقات هذه المسيرة الثرّة والمباركة.

وهو كتاب موجز في موضوعاته، متشعّب في جزئياته وعناصره، سهل الأسلوب، واضح الرؤية، آراؤه مدعمّة بالحجج والنصوص، فيه تعليل للظواهر التي يستوعبها الذهن، فقد لخص علماً لا يلخص، ومع ذلك فمن يقرأهُ يفهم تاريخ النحو ومراحل تطوّره.

وبعد:

لقد وسم العلاّمة كتابه بـ "من تاريخ النحو -تاريخ ونصوص -" وطبعته دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت في لبنان سنة 1398هـ /1978م، ويقع في مائتين وخمس عشرة صفحة.

---

(1)- سعيد الأفغاني، ص: 3.

تناول فيه بعد المقدّمة محورين أساسيين:

-الأول: عنونه بـ "مسرد البحوث"، واحتوى على:

-توطئة تاريخية تضمّنت بوادر اللحن، ونشأة النحو.

-والمدرستين الأوليَيْن، وهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وتطرق إلى الطبقة الأولى من البصريين ثمّ الثانية منهم، ونشأة الخلاف واحتكاك المدرستين، والفروق بين المذهب البصري والمذهب الكوفي، وأعطى نماذج من هذا الخلاف كما أشار إلى المذهب البغدادي والمدرسة الأندلسية، ثمّ خاتمة.

-وذكر في المحور الثاني الذي عنونه بـ "كتب ونصوص" المصادر التي استقى منها ما يؤرّخ للنحو العربي، وهي كثيرة ومتعدّدة.

وقد أطلق على فهرس الموضوعات "مسرد البحوث" وهو ما يكشف للقارئ أنّ العمل تطلّب منه البحث والتفتيش والتنقيب والتروي لتجلية الغموض من المسائل التي عالجها.

أسباب تأليف الكتاب

يذكر المؤلّف في مقدّمة كتابه أنّ الثناء منصب دوماً حيال من يؤلّف كتاباً في حياة وترجمة عالم، فتعرف عائلته، ويتمتّع الناس بفضائله، ويتّخذ أسوة في تذليل صعاب الدنيا التي يتعرّض لها، وكيف يقاوم الحساد والخصوم والجاهلين الذين يسعون إلى تعكير صفو حياته مع من اتخذهم عشيرة وأصدقاء وأقرباء.

وهو يقول: "إنّ في حياة كلّ عالم من هذا لنصيبا" [1]، لكن سعيد الأفغاني كرّس بعضاً من حياته للتأليف في تاريخ العلم، وهو عمل ليس هيّناً ولا يسيرا لأنّه يتطلّب الجهد وطول العمر، "ومن ظنّ أنّ حياة باحث تفي بتاريخ علم فقد ظنّ باطلاً" [2]، لأن تاريخ العلم لا يقدر عليه عالم واحد أو شخصية بمفردها، وإنما يحتاج إلى تضافر جهود الباحثين والعلماء خلال عصور متعاقبة، وأجيال متتالية، "يتسلّم كل جيل تراث من قبله ويعمل في دأب ورويّة ليتقدّم به قليلاً أو كثيراً" [3].

أهداف تأليف الكتاب

إنّ أول سؤال يضعه كلّ عازم على تأليف كتاب هو ما الغايات والأهداف التي من أجلها سيسهر الليالي ويراجع المصادر والمراجع لتأليف مؤلّف، والسؤال نفسه يطرحه من يقرأ هذا الكتاب أو ذاك، ويصرّح الباحثون بذلك -في أغلب الأحيان -في مقدّمة ما يكتبون، وهو ما نلمسه لدى سعيد الأفغاني حين سجّل: "فماذا يراد من كلمة "مذهب" أو "مدرسة"، حين يقال في علوم اللغة العربية،

(1)-سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، ص: 3.
(2)-المرجع نفسه، ص 3.
(3)-المرجع نفسه، ص 3.

مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين؟" [1].

إنّهـا مصطلحات جديرة بتوضيحها والتفرقة بينها وبخاصة عندما نؤلّف في تاريخ العلم. ومن هنا قال: "هذه الصفحات محاولة في وضع الأمور في نصابها حيال ما يسمّى بالمدارس أو المذاهب النحوية من جهة، ووقفة تاريخية فاحصة متروية عند نشأة هذا الفنّ من جهة أخرى" [2].

إنّـه يطلـق على عمله "المحاولة" وهذا من تواضعه، وهو حكم يدلّ على اجتهاده في تصحيح بعـض مـا علـق بأذهان القرّاء الكرام والدارسين، كما يجعل وقفته "فاحصة متروّية" وهما صفتان تـبرزان عدم تسرّعه في إطلاق الأحكام على إسناد نشأة النحو لهذا العالم أو ذاك، أو لهذه المدرسة أو تلك، ولكنّه سيعالج المسائل بموضوعية وبما تتطلّبه المنهجية العلمية.

وللبرهـنة علـى هذا التاريخ الطويل للنحو العربي يسرد مجموعة من النصوص من مصادر أساسـية لعلمـاء أجلاّء يشهد لهم كلّ من جاء بعدهم بالشموخ والإسهام في بناء صرح مملكة النحو العربي.

بحوث الكتاب

تعرّض في التوطئة التاريخية إلى مكانة اللغة العربية في العصر الجاهلي والإسلامي في نفوس العـرب وقلوبهم، واعتبر "اللحن الباعث الأوّل على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها" [3].

ويتـتبّع تطـوّر اللحن منذ ظهوره على عهد الرسول –صلّى الله عليه وسلّم –حين لحن رجل بحضرته فقال: "أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ" مروراً بعهد صحابة الرسول الكريم ثمّ الخلفاء الأمويين.

وقـد وضع الكاتب الخارطة اللغوية للاحتجاج بالكلام العربي فعدّد القبائل التي يستشهد بلغتها، وكذلـك الزمان الذي ينبغي عدم تجاوزه في الاستشهاد، ويقرّر: "أنّ إحداث اللحن حمل القوم على الاجـتهاد لحفظ العربية وتيسير تعلّمها للأعاجم، فشرعوا يتكلّمون في الإعراب وقواعده حتّى تمّ لهم مع الزمن هذا الفنّ" [4].

ويرى أيضاً أنّ المصادر تجمع على "أنّ النحو نشأ بالبصرة، وبها نما واتّسع وتكامل، وتفلسف، وأنّ رؤوسه بنزعتيه السماعية والقياسية كلّهم بصريون" [5].

وهـو لا يخـالف من عدّ أبا الأسود الدؤلي (ت 67هـ) واضعاً للنحو العربي بدليل أنّه يقول: "ومـن يقـرأ بإمعـان ترجمة أبي الأسود الدؤلي في (تاريخ دمشق لابن عساكر) مثلاً، ثمّ يفكّر في

[1]-المرجع نفسه، ص 3.
[2]-المرجع نفسه، ص 4.
[3]-سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص: 8.
[4]-المرجع نفسه، ص: 26.
[5]-المرجع نفسه، ص: 27.

توارد أكثر المصادر على جعله واضع الأساس في بناء النحو لا يستبعد ذلك، فالرجل ذو ذكاء نادر، وجواب حاضر، وبديهة نيّرة، ثمّ هو بعد بليغ أريب، مرن الذهن، وحسبك اختراعه الذي عرف بنقط أبـي الأسـود للدلالة على الرفع والنصب والجرّ والتنوين، وهو ما أجمعوا عليه قديماً ولم يشك فيه حديثاً أحد" [1].

ثـمّ يضع المؤلّف عنواناً فرعياً كالآتي: المدرستان الأوليان: وهما البصرة والكوفة، فيشير إلى الطـبقة الأولى من البصريين، ومنهم عنبسة الفيل، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وكذلك إلى الطبقة الثانية ومنهم أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي.

أما الطبقة الثالثة فمنها الخليل، وأبو زيد الأنصاري، وسيبويه، وأبو جعفر الرؤاسي الذي صار إمام الكوفيين، وخلفه تلميذاه الكسائي والفرّاء.

وتأسّست المدرسة الكوفية على ما تعلّمه العلماء عن البصريين مثل أبي جعفر الرؤاسي.

وقـد نشـأ خلاف بين المدرستين فكان علمياً في بدايته، وكما يقول سعيد الأفغاني: "ولم تدخل الدنـيا بيـن المشهورين من رجال هذه الطبقة، فالخليل والرؤاسي مثلاً كلاهما صالح عفيف، ومتى خلـت المناقشات العلمية ممّا يؤرّثها من حوافز المادّة أو الجاه، بقيت هادئة جميلة صافية" [2]، ولكن تغيّرت الأمور بعدما قرّب العباسيون الكوفيين، "فوقفوا بالمرصاد للبصريين الذين يفوقونهم علماً" [3].

ويحصـر الكاتب الفروق بين المذهبين البصري والكوفي في أمرين مهمّين وهما: السماع الذي عرفـت بـه الكوفة، والقياس الذي اشتهرت به البصرة، ويعلّل كلّ ذلك بالأمثلة والشواهد. وقد قال يحيى بن المبارك اليزيدي وهو بصري:

كـنّا نقـيس الـنحو فـيما مضـى ... علـى لسـان العـرب الأولِ

فجاءنـا قـوم يقيسـونه ... علـى لغـى أشـياخ قطْـربُلِ

فكلّهـم يعمـل فـي نقـض مـا ... بـه يصـاب الحـق لا يأتلـي

إنّ الكسـائي وأشـياعه ... يـرقون بالـنحو إلـى أسـفل [4].

ويدلـي العلاّمـة برأي طريف في المذهبين حيث يقول: "وبهذا لا يكون من الدقة –في رأيي– إطـلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفي، والنزعة القياسية على المذهب البصري. والدقة التي يؤيّدهـا التاريخ والإمعان فيه وفي أقوال الكوفيين والبصريين ألاّ يكون مذهب بصري يقابله مذهب كوفي، بل نزعة قياسية. ويختلف حظّ كلّ منها صحّة وحالاً ومقداراً بين البلدين، بل بين نحاة كلّ بلد

[1]-المرجع نفسه، ص27 -28.
[2]-المرجع نفسه: 45ص.
[3]-المرجع نفسه: 46ص.
[4]-المرجع نفسه، ص: 72.

على حدة. على ذلك الأساس يصحّ أن نعيد النظر في النحو وتاريخه ورجاله، بهذا التصنيف الجديد، بعدما علمنا أنّ النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة" [1].

وختم ما سبق برصد بعض المسائل الخلافية بين المدرستين.

كما أعطى ملامح المدرسة البغدادية والأندلسية وذكر بعض أعلامهما ومؤسّسيهما.

أمّا في خاتمة هذا المحور فيرى الباحث "بعد التقصّي أنّه قد تضمّ البلدة الواحدة نحاة من منازع مختلفة، يطغى عليها أحياناً مذهب أهل البصرة، وأحياناً مذهب الكوفة تبعاً لنزعة العالم ذي الأثر فيها" [2].

وقد كان المحور الثاني موسوماً بـ "كتب ونصوص"، فاعتمد فيه على ستة علماء وهم سيبويه وابن جني والزمخشري وابن الأنباري وابن مالك وابن هشام، وكان يسجل حياة العالم ومؤلّفه وطبعاته وموضوعاته، ثمّ يأخذ منه نصّاً أو نصّين، ويضع له شرحاً بسيطاً في الهامش أو تعليقاً.

*مكتبة العلامة النحوي سعيد الأفغاني

نقصد بالمكتبة في هذا المقام المصادر والمراجع التي كانت المنهل الذي استقى الكاتب منه معارفه وأفكاره، وقد وجدناها غنية وثرية، وتظهر جلية في التوثيق والهوامش التي جاءت شارحة لكثير من القضايا الواردة في المتن، ونذكر منها: القرآن الكريم –الكتاب لسيبويه –البيان والتبيين للجاحظ –الخصائص لابن جني –الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس –عيون الأخبار لابن قتيبة –الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني –المزهر والاقتراح للسيوطي –الأضداد لابن الأنباري –تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر –الفهرست لابن النديم، بالإضافة إلى بعض المراجع الحديثة والمجلات المتخصّصة مثل مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، وغيرها من مصادر اللغة والنحو والتفاسير والموسوعات الأدبية التي تنمّ على ثقافة الكاتب وسعة اطلاعه، وهي ثقافة أصيلة تراثية عريقة ممتدّة الجذور في فكر الحضارة العربية الإسلامية ونهضتها وبنيانها. ويفهم منها أنّه متابع لما ينشر في واقعه، سواء في الكتب أو المجلات، ومؤمن بالحداثة التي لا تؤدّي إلى انسلاخ عن هذا التراث، بل تغنيه ليتقوّى، وتثريه ليتطلّع به المرء إلى مستقبل أفضل ممّا هو عليه.

ولا غرابة في ذلك، فقد كان هذا دأب علماء الأمّة الأجلاء، الذين خدموها وضحوا من أجلها، فما ثاروا على قديمهم ورموه خلف ظهورهم، ولا عابوا جديد حياتهم وانطووا على أنفسهم، بل مزجوا بين هذا وذاك، فكانت حياتهم سوية متّزنة معتدلة تسير برجلين قويتين: تراث كنز من ذهب، وحداثة تصنع منه العجب.

[1]-المرجع نفسه، ص: 76.

[2]-المرجع نفسه، ص: 108.

**منهج تأليف الكاتب

*يقوم تأليف سعيد الأفغاني في كتابه "من تاريخ النحو" على منهج متكامل يجمع بين التاريخ والاستقراء والتحليل.

*يتوسع في الهامش حتّى يحافظ على إيجاز المتن، ولا يثقل القارئ بالمعلومات والأفكار حتّى يشدّ انتباهه.

*لغته واضحة وسهلة بعيدة عن الابتذال والغموض، لأنّ صاحبها في مقام التدقيق العلمي والتأريخ.

*له معجم لغوي واضح ليس فيه كلمات صعبة، وهو ينم عن قدرته على نسج الأسلوب العلمي الدقيق الذي إن حذفت منه مفردة واحدة اختلّ المعنى والتبس.

*يستشهد بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والشعر العربي، ويوظّف نصوص علماء اللغة والنحو أحسن توظيف لأنّ الموضوع يتطلّب منه التعليل والتحليل والبرهنة على الأفكار لتعليم الأجيال وترسيخ الآراء وإقناع المتلقين.

*المصادر اللغوية والنحوية الموظّفة في الهامش موثوق بعلْميتها فجاءت متعدّدة وغنية.

*يدلي بآرائه في هدوء وتواضع واحترام بعدما يذكر آراء غيره وهو بذلك يخالف الأفكار دون أن ينتقد العلماء والدارسين.

*يعتمد في هذه الدراسة على الباحثين المعاصرين مثل إبراهيم مصطفى، والسيد محمد الخضر حسين، وأحمد أمين، دون أن يتأثر بآرائهم، وهو أمر طبيعي لأنّه في مقام التأريخ لعلم النحو.

خاتمة

وفي الأخير إنّ هذا العرض الوجيز لكتاب عالم، ورجل باحث، ومعلم جيل من المفكرين والباحثين، لا يفي بالثناء أو الشكر على مفكر خدم الأمّة، وأجلّها، وإنمّا حسبنا أن نكون قد أسهمنا بشيء يسير في التعريف بهذه الشخصية التي تظلّ أعمالها بمكتباتنا العمومية والخاصة شاهدة على ما بذله من جهد لخدمة اللغة العربية والتراث العربي الإسلامي.

□□□

من ذكرياتي
عن العلاّمة سعيد الأفغاني[1]

محمود الأرناؤوط

(1)

مقدمة:

في مطلع عام 1402هـ ـ 1982م كان لقائي العلمي الأول بالعلاَّمة سعيد الأفغاني رحمه الله، عقب انتهائي من العمل في تحقيق كتاب "إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين" للإمام محمد بن طولون الدمشقي بطبعته الأولى المحقَّقة[2] وبإشارة من والدي وأستاذي الشيخ عبد القادر الأرناؤوط حفظه الله بعرض مقدمتي المطولة التي كتبتها للكتاب آنذاك عليه، بحكم خبرته الطويلة في شؤون البحث والتأليف، فقد كان عميداً لكلية الآداب بجامعة دمشق ورئيساً لقسم اللغة العربية في الكلية المذكورة سنوات عديدة، وأسهم بتخريج عدد كبير من الباحثين والأدباء على مدى سنوات طويلة.

وحين دخلت داره في حي المهاجرين على سفح جبل قاسيون بدمشق وجلست إليه، بعد السلام والتحية، شعرت أنني أمام رجل كبير من طراز نادر، فقد سحرني للوهلة الأولى بعمق شخصيته وبريق

---

(1) - هذه ليست المرة الأولى التي أكتب فيها عن العلاّمة سعيد الأفغاني، فقد سبق لي نشر مقالة موجزة عنه في العدد (594) من صحيفة الأسبوع الأدبي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ثم كتبت ترجمة مختصرة له في الصفحات (206 ـ 208) من كتابي "أعلام التراث في العصر الحديث" الصادر عن مكتبة دار العروبة بالكويت عام 2001م، وهذه الذكريات لا تمثل سوى نزر يسير مما سيحتوي عليه كتابي القادم "أنا والتراث".

(2) - الصادرة عن مؤسسة الرسالة ببيروت سنة (1403هـ ـ 1983م) ثم أعادت إصداره مرة ثانية في منتصف عام 1407هـ ـ 1987م، وتصدّره تقديم قيم تفضل بكتابته أستاذنا الجليل الدكتور مازن المبارك، جزاه الله تعالى خيراً، نزولاً عند رغبتي، وكان الكتاب قد صدر بطبعته الأولى غير المحققة عن مكتبة القدسي والبدير بدمشق سنة 1348هـ ـ 1929م. فكان لتلك الطبعة فضل التعريف بقيمة الكتاب أوّلاً.

عينـيه، وبادرني بالسؤال عن صحة والدي وآخر أعماله العلمية، وكان والدي محلّ تقديره العظيم، ثم سـألني عـن سـبب قدومـي لزيارته، فأخرجت كتاب "إعلام السائلين" من الحقيبة التي كنت أحملها وعرضته عليه، وبيّنت له أن والدي أشار عليّ بعرض مقدمتي للكتاب عليه، فأخذ يقلّب صفحات الكتاب صـفحة صفحة ويهز رأسه مع كل صفحة ينظر فيها، ثم نظر إليّ وقال: سلّم على أبيك وبلّغه شكري علـى ثقته الغالية بي، وحدّد لي موعداً لزيارة ثانية أتسلّم فيها الكتاب بعد أن ينظر في مقدمتي له، وفي الموعـد المحدّد كنت بين يديه مرة أخرى، وبادرني بالترحاب والثناء والإشادة بما قمت به من تحقيق للكـتاب وتقديم له، وأذكر أنه قال لي مبتسماً: فرْخ البَطّ عوّامٌ يا عمّي، وأشار عليَّ ببعض الملاحظات الـنافعة فشـكرته علـيها شـكراً جزيلاً، وقدّم لي نسخة من كتاب "الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة" للزركشي من تحقيقه لأحمله هدية لوالدي، وقال لي: أبلغ والدك مني السلام وانقل له رغبتي بـأن ينظر في أحاديث الكتاب وأن يُخرّجها تخريجاً مفصلاً إن أمكن، فحملت الكتاب وكتابي وانطلقت إلـى والـدي على عجل، وحين دخلت الدار بادرني مستفسراً، وقال لي: أخبرني ما وراءك؟، فأجبته بقولي: الذي يسرّك يا سيدي، وحدّثته عما كلمني به العلاّمة الأفغاني وعما قاله لي بشأن كتاب "الإجابة" فـردّ علـيَّ بقوله: الأفغاني عالم كبير وأستاذ جليل، ورغبته في أن أنظر بأحاديث كتابه تشريف لي يا بنـي، فالـرجل في مقام شيوخي وإن لم يكن شيخي، ولم أنقطع بعد ذلك عن زيارة الأفغاني بين الفينة والأخرى إلى آخر حياته رحمه الله، وكان يتفضل عليَّ بزيارة مكتبي[1] كلما سنحت له الفرصة. وكنت كلمـا زرتـه وحاورته وجدته لديه شيئاً جديداً واكتشفت سَعَة دائرته وبُعد غوره وإحاطته بأمور كثيرة تخـص تـاريخ سـورية الحديث بجميع جوانبه، وسأسرد فيما يلي بعض ما سألته عنه وأجابني عليه كشواهد على ما ذكرت، وبعض انطباعاتي عنه على مدى سنوات طويلة.

(2)

الأفغاني ومحمد كرد علي

وفـي يوم من الأيام زرت الأستاذ الأفغاني في داره مساء، فرحب بي ترحيباً عظيماً وراح يعبّر عـن سعادته بزيارتي ــ وهو الصعب المراس في نظر الكثيرين ــ وأخذ يتحدث عن نشر النصوص ومهـنة الوراقـة وأن الكثير ممن يعملون في هذين المضمارين قد أصبحوا من الدُخلاء، وأن أخلاقية المهنة لدى الطرفين قد بدأت تتلاشى إلا عند من رحم الله، فما كان مني إلا أن حوّلت الحديث إلى أمر يهمنـي لأكسب الوقت، ولكي لا أطيل الزيارة لعلمي أنه لا يحب السهر إلى وقت متأخر، فقلت له: يا أستاذنا الجليل: لقد اقترن اسمكم في أذهان الكثيرين بكتابكم "أسواق العرب" فهلا حدثتموني عن غايتكم مـن تأليفه وعن تاريخ صدور طبعته الأولى؟ فأجابني بقوله: "لقد كانت غايتي من تأليف الكتاب إعادة جـزء من أجواء تاريخنا الغابر إلى أذهان علمائنا ومثقفينا وناشئتنا في ذلك الحين، لما كانت تمثله تلك

[1] - أقصد مكتب ابن عساكر لتحقيق وتصحيح كتب التراث الذي أسسته في بناء برج دمشق ببداية عام 1991 وأغلقته مع نهاية عام 1995م.

الأسواق من أجواء يختلط فيها الجد بالهزل، وتغتنم الفرصة من قبل الأدباء والشعراء لعرض إبداعاتهم كعـرض التجار بضائعهم، ولما كان يسببه ذلك من سرور وحبور، ناهيك عما يمثله الكتاب من جانب تاريخـي ثقافي للحقب التاريخية التي ورد فيه الحديث عن أسواقها، وبالمناسبة فهناك حادثة جرت لي تخـص كـتاب "أسـواق العرب" يحسن بي ذكرها لك، فقد زرت مرة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي رئـيس المجمـع العلمـي العربي وبيدي تجربة الطبع الأخيرة للكتاب وكنت قد تسلّمتها للتو من إدارة المطـبعة الهاشمية، وكانت في آخر سوق الحميدية والمجمع العلمي قريب منها آنذاك، فسألني الأستاذ كـرد علـي عما أحمله بيدي، فقلت له: تجربة الطبع الأخيرة لكتابي "أسواق العرب" فقال لي: أرنيه، فناولـته إيّـاه، فأخذ يقلّبه وينظر في بعض ما كتبته بأماكن متفرقة، ثم التفت إليَّ وقال لي: ما رأيك لو كتبت مقدمة لكتابك هذا؟ فأجبته على الفور: الكتاب يقدم نفسه بنفسه[1]، وكان ذلك عام 1936م[2].

(3)

الأفغانيّ والزِّركلي

لقـد ربطـت الأفغاني علاقة طيبة بالعلاّمة الشاعر المؤرخ خير الدّين الزركلي صاحب كتاب "الأعـلام" الذي انتشر ذكره على كل شفة ولسان[3]، وكانا يلتقيان ــ غالباً ــ على هامش اجتماعات مجمـع اللغـة العربـية بالقاهـرة فقد كانا من أعضائه، وكانت أحاديثهما غالباً ما تدور عن كتاب "الأعلام" وما يتصل به، وكان الزركلي ــ على جلالة قدره وبعد شهرته ــ يحرص على سماع رأي الأفغانـي في كتابه، وكثيراً ما كان يسأله عن بعض الأعلام الذين يود الكتابة عنهم فيجيبه الأفغاني بمـا لديه، وقد ذكر لي الأفغاني يوماً أنه رأى الأستاذ خير الدين الزركلي، في بهو الفندق الذي كان يـنزل فـيه أعضـاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة من البلدان العربية، وإلى جواره الأمير مصطفى الشـهابي، وكانا يتبادلان الحديث، فجلس إلى جوار الأستاذ الزركلي بعد السلام عليهما، فرأى الأمير مصـطفى الشـهابي يشير إلى هامش صفحة من الطبعة الثالثة من كتاب "الأعلام" كانت بيد الأستاذ الزركلـي يُطلع عليها الأمير الشهابي وكان الزركلي قد ذكر كعادته أنه استفاد من الأمير مصطفى الشـهابي فـي تدوين تلك الترجمة، فقال له الزركلي ما تقصد من الإشارة إلى مكان ذكر اسمك في هامش الصفحة؟ فقال الأمير مصطفى الشهابي: أرجو أن تكتب العلاّمة الأمير... فردّ عليه الزركلي

---

(1) - وكان الأفغانيّ دون الثلاثين من عمره. انظر كتابي "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (207).

(2) - وكنـت قد قلت في مقالتي عنه بصحيفة الأسبوع الأدبي العدد (660): ولعل ذلك كان من وراء عدم اختيار الأفغانيّ عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق يومئذ.

(3) - وقد أفاد الأستاذ الزركلي من "مذكرة الأفغاني" التي تحدث فيها عن بعض ما رآه من نفائس المخطوطات في رحلته إلى المغرب والأندلس سنة 1956 وذكرها في قائمة مصادره (8/ 336).

ولم تقتصـر صداقته من آل الزركلي على الأستاذ خير الدِّين، بل كانت تربطه علاقة صداقة لا تقل عنها أهمية ومتانة بالشاعر الكبير سليم الزركلي رحمه الله، وربطني أنا صلة طيبة به. وتفضل بالتقدم لكتابي الأول "الكشكول الصغير" الصادر في طبعته الأولى عن مؤسسة الرسالة ببيروت عام 1981، ثم عن مكتبة دار العروبة بالكويت سنة 1992.

بقوله: أنت أميرٌ ولكن لستَ بعلاّمةٍ!.

(4)

الأفغانيّ البصير بأهل عصره

وفــي يــوم من الأيام زرت الأفغاني في بيته برفقة صديقي وزميلي الأستاذ رياض عبد الحميد مــراد، وجلسنا إليه طويلاً وسألناه عن عدد كبير من أهل العلم الذين عرفهم من أهل الشام وسواها، فلمســنا مــنه معــرفة عمــيقة بالرجال وبعد غور في تقييمهم، وحدثنا بأشياء كثيرة تتصل بالتاريخ المعاصر لبلادنا العربية عامة وسورية منها خاصة، وأخذ الواحد منا يلتفت إلى صاحبه ليعبّر له عن دهشته لما كان يسمع، وكم ناشدته أن يكتب مذكراته، فكان يقول لي: لا وقت لدي لكتابتها.

وفــي يــوم مــن الأيام اغتنمت فرصة زيارة صديقي العزيز العالم الكويتي الدكتور خالد عبد الكــريم جمعــة لدمشق، فقصدت الأستاذ الأفغاني بمعيته وجلسنا إليه طويلاً وتحدثنا بأمور مختلفة، وطــال الحديــث، وكــان السرور واضحاً على وجه كل منهما، كيف لا وبينهما رباط الاختصاص المشــترك، فالدكتور خالد من سدنة العربية بالكويت، والأستاذ الأفغاني شيخ شيوخها بالشام، وحين خرجنا من زيارته سألت صديقي الدكتور خالد عن رأيه في الأفغاني، فقال: عالم كبير وأستاذ جليل.

(5)

الأفغانيّ والشيخ سعيد الكَرْميّ

فــي يــوم من الأيام شرّفني الأفغاني بزيارته لي في مكتب ابن عساكر لتحقيق وتصحيح كتب التراث، الذي كنت أدير العمل به، فسعدت بزيارته جداً، وكنت على وشك الانتهاء من تحقيق المجلد العاشــر والأخــير من كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد الحنبلي، وكان قد وقع نظــري على الكلمة المطوّلة التي نشرها العلاّمة الشيخ سعيد الكَرْميّ[1] للتعريف بمخطوطة الكتاب المعــتمدة من قلبي في التحقيق حين انضمت إلى محتويات المكتبة الظاهرية، وعلى صفحات المجلد الأول مــن مجلــة المجمع العلمي العربي بدمشق[2]، وكنت عازماً على إعادة نشرها في صدر ذلك المجلد لقيمتها الكبرى، فاغتنمت فرصة زيارة الأفغاني لي يومها وجلست إليه برفقة من كان حاضراً من الأساتذة الذين كانوا يعملون معي في المكتب آنذاك، ورحت أسأله عن الشيخ الكَرْميّ وعن رأيه بــي، فأشــاد به إشادة عظيمة، وأثنى على علمه وفضله، وذكر لي أنه كُني بأبي الأشبال لأن أولاده جميعاً طلبوا العلم وأصبحوا من ذوي الشأن فيه[3].

---

(1) - انظر ترجمته ومصادرها في كتابي "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (58 ــ 59) طبع مكتبة دار العروبة بالكويت.

(2) - وفي الصفحات (65 ــ 75) منه.

(3) - وقد ذكرت ذلك في حاشيتي على الصفحة (هـ) من مقدمة الجزء العاشر من "شذرات الذهب" الصادر بتحقيقي عن دار ابن كثير بدمشق وبيروت.

(6)
الأفغانيّ والطبعة الأخيرة من أسواق العرب

فـي يـوم من الأيام اقترحت على صديقي الدكتور خالد عبد الكريم جمعة أن يتولى نشر طبعة جديدة من كتاب الأفغاني "أسواق العرب"[1] فرحب بالفكرة وقال لي: أفوضك تفويضاً كاملاً بالاتفاق معـه حول إخراج طبعة جديدة من الكتاب، فقلت له: فلتكن إذن طبعة منقّحة مزيدة، فقال لي: الذي تـراه، فقصدت منزل الأستاذ الأفغاني وكلمته بالأمر فسُرَّ بذلك وطلب أن أمهله بعض الوقت لحين ينتهـي مـن قـراءة الكتاب قراءة تدقيق وتنقيح واستدراك، ثم هاتفني بعد شهر من ذلك وقال لي: الكـتاب جاهـز عندي للطبعة الجديدة ومعه ملحق ومقدمة جديدة مختصرة[2]، ثم حضر إلى مكتبي وسلّمني الكتاب وتسلّم الحقوق المتفق عليها معه، وصدر الكتاب بعد ذلك عن الدار المذكورة بطبعته الرابعة المزيدة المنقّحة[3].

(7)
انطباعاتي عن الأفغانيّ

كان الأفغاني فاضلاً متديناً مخلصاً للعلم ورسالته، منصفاً لأحبائه وخصومه على السواء، وكان أبعد ما يكون عن المصانعة والتقرب من الآخرين.

وكـان فـي البحث والتأليف أفضل حالاً منه في الضبط والتحقيق على كثرة علمه وبعد صيته. وكـان علـى درايـة بخفايـا أخبار أهل العلم في سورية ومعظم الأقطار العربية، بصيراً بشؤونهم وأحوالهم يتابع الصغيرة والكبيرة من شؤون فنّ النحو وأربابه، فقد كان في عداد فرسانه الكبار على الساحة العربية[4].

وكـان مدرسة قائمة برأسها يعترف بفضله كل من أتيح له الأخذ عنه، وقد خالطت شدته رحمة خفـيفة تعمّـد إخفاءهـا عـن الطلبة لحرصه على بناء أجيال من العلماء المخلصين للعلم الحاملين للأخلاق الحميدة والمنصرفين للعمل على الوجه الصحيح.

رحم الله الأفغاني بقدر إحسانه للعلم وطلبته في هذه الدّيار، وأعلى مقامه في علّيين يوم الدّين.

□□□

(1) - في مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع بالكويت التي يملكها.
(2) - وقد أشار الأستاذ الأفغاني إلى ما ذلك في المقدمة المذكورة باختصار.
(3) - وذلك سنة 1416هـ ـــ 1996م.
(4) - انظر كتابي "أعلام التراث في العصر الحديث" ص (207).

الأفغاني وكتابه
حاضر اللغة العربية في بلاد الشام

د.نزار أباظة

***كان** أستاذنا في النحو سعيد الأفغاني أحد أساتذتنا المتميّزين في جامعة دمشق أواخر ستينيات القرن الفائت. كنّا نحسّ إزاءه بهالة من الرّهبة ممزوجة بالإعجاب والتعجب. وقد تلقينا في دروسه التي كنّا نحرص على حضورها توجيهات عرفنا منها أنه كان صاحب رسالة ومبادئ رفيعة رسم من خلالها حياته كلها.*

قال لنا في الدروس الأولى: ثلاثة أمور يرتبط بعضها ببعض، لا ينبغي أن يغفل عنها طالب اللغة العربيّة، وهي القواعد (النحو والصرف) والقرآن الكريم، والتاريخ.

وعجبنا يوم ذاك على جهلنا وقلّة معرفتنا من حشر التاريخ مع القواعد والقرآن ولكننا آمنّا بما قاله الأستاذ، وعرفنا فيما بعد أن الثقافة العربية كلٌّ واحد، لا يحسن بأحدنا أن يجيل فرعاً منها إن أراد أن يرتقي في تخصصه.

وكان أستاذنا يعرف تمام المعرفة ما كنّا نعانيه من ضعف في مادته، ومن ضعف أدواتنا وقلّة خبرتنا فنصح لنا بأمرين اثنين؛ أحدهما أن ننخرط في حلقات العلم بالمساجد ونقرأ في الكتب القديمة ونصبر عليها وثانيهما أن نرمم معلوماتنا بكتب النحو المبسطة، وأشار علينا بكتاب "قواعد اللغة العربية" لحفني ناصف ورفاقه.

وأذكر أنني اشتريت ذلك الكتاب من سوق المسكيّة بدمشق[1] مطبوعاً على ورق رخيص وأفدت منه فائدة جلّى؛ فقد راجعت ما كنّا تلقيناه عن أساتذتنا، واستدركت ما فاتني أو أسأت فهمه آنذاك.

كما أفدت من جلسات العلم عند عدد من جلّة الشيوخ، قرأت عليهم في شروح الألفيّة وسواها،

[1]-وكان السوق الذي تباع فيه الكتب قبل أن تنتشر المكتبات في أرجاء المدينة اليوم وقبل أن تهدم دكاكينه في مشروع هدم الأسواق حول الجامع الأمويّ لإظهاره.

مما أمدني بركيزة فيما تلا من أيامي، فرحم الله أستاذنا وجزاه عنّا خيراً.

ولم تكن دروس أستاذنا دروساً معقدة، كان يميل إلى البساطة في كل شيء في تبسيط البحوث، وفي لغته وجمله وتعابيره، حتى ليظن الجاهل أنّه يتحدّث حديثاً عادياً، لا أنه يتكلم الفصحى مع صحة كلامه وخلوه من اللحن بله الهفوات، ولم يكن مع كل هذا ليرفع صوتاً ولا ليجهد حلقاً، بل ينساب كلامه بهدوء بالغ، والطلاب منصتون كأن على رؤوسهم الطير، لا تسمع لهم حسًّا ولا همساً.

كان يدخل مع بداية الوقت ويخرج مع نهايته، لا تضيع لحظة واحدة من درسه في كلام خارج عن الموضوع ولا في حديث شخصي. يدخل ومعه وريقات يصحبها دوماً، فيكتب منها على السبورة خطوط البحث العريضة وشواهده، وقد يتطوع بكتابتها أحد طلابه. ثم يبدأ بشرح نقاط الدرس نقطة نقطة تسلمه كل واحدة إلى التي تليها برابط منهجي.. وهكذا حتى يفرغ من البحث المطلوب مع انتهاء الدرس.

ومن الجدير بالذكر أن أستاذنا نبهنا –على خلاف ما اعتدنا عليه مع كثير من أساتذتنا –أنه إذا اعترضتنا مشكلة خلال شرحه ألا نرجئ سؤالنا عنها إلى ما بعد الفراغ من الشرح. بل أن نلقي به فوراً.

ولكن بعضنا كان يخشى السؤال، لئلا يكون سؤالاً غبياً، أو في غير مكانه، فيجابهه الأستاذ بتعليق ساخر، قد يضحك عليه زملاءه الطلاب والطالبات معاً.

وكنا في استراحاتنا بين الدروس نتداول قصصاً طريفة كانت تجري في دروس الأستاذ أبطالها شخصيات من الطلاب والطالبات، ممن ساقهم سوء طالعهم إلى تعليقات لا يوفرها الأستاذ، حفظها بعضنا عن ظهر قلب، وتناقلنا بعضها الآخر من الطلاب قبلنا.. ثم خرجت لطرافتها من بين جدران الجامعة إلى مجالس المثقفين في دمشق وما حولها وسارت على الأفواه.

لقد جئنا أستاذنا الأفغاني بأخرة من الزمان حين أشرف على الستين ثم وافاها.. وكانت المفاجأة الكبيرة لنا نحن طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربيّة في اليوم الأخير تقريباً أو في الأيام الأخيرة من عام 1968 حين فرغ أستاذنا من درسه قبل الوقت بعشر دقائق أو نحوها على غير عادته، والتفت إلينا يقول: هذا هو الدرس الأخير لي عندكم.. وتمنى لنا التوفيق. وكان مما قال: إن غالبكم سيكون في المستقبل القريب ضمن سلك التدريس وأنتم أصحاب مسؤولية.. وأنا أنصح لكم ألا تدخلوا على طلابكم إلا بعد تحضير الدرس.. ورفع إلينا أوراقه، وقال: لقد أمضيت أربعين سنة في التعليم، نصفها في المدارس ونصفها في الجامعة، لم أدخل يوماً من الأيام إلى الصف من غير أن أراجعه وأثبت منه ما يلزم للطلاب.

وأسفنا بعد خروجه كل الأسف، وأحسسنا أننا فقدنا أشياء كثيرة، وتساءلنا: ماذا كان من الجامعة لو أنها مددت لأستاذنا خدمته أشهراً لينتهي العام الدراسي، ونكمل معه منهاج القواعد الذي نفرغ منه في آخر السنة الثالثة.

ومع الأيام عرفنا أي أستاذ رحل، وبقينا على ذكرى دروسه التي انقضت سريعاً. ولئن كنّا آخر تلامذته في جامعة دمشق لقد كان أساتذة مدارس دمشق لأجيال مضت قبلنا من تلاميذه.

كـان أسـتاذنا الأفغاني يؤمن بالعربيّة إيمانه بدينه، يتحمس لها، لأنها عنوان أمته التي يخشى عليـها من أعدائها. ولعل الذي يمثل عقيدته في لغته حق تمثيل كتابه حاضر اللغة العربية في الشام ولعله أهم ما كتبه في حياته على ما أزعم.

هـذا الكـتاب الـذي صدر في أول ستينيات القرن العشرين يؤرخ لحقبة هامة من تاريخ اللغة العربـية فـي بـلاد الشام عموماً وفي عاصمتها دمشق خصوصاً؛ بدءاً بنهايات الحكم العثماني أيام الاتحاديين الذين حكموا البلاد برئاسة الملك فيصل بن الحسين، وما كان فيه من نهوض ناجح باللغة والتعلـيم، وانـتهاء بفترة الانتداب الفرنسي التي امتدت أزيد من ربع قرن.. ليصل الكتاب إلى أيام إصداره وما جرى قبيله في زمن الاستقلال من عناية بالعربية..

صوّر أستاذنا في الباب الأول الحالة التي آلت إليها العربية زمن الأتراك الاتحاديين من ضعف شديد على حساب التركية؛ حرموا الكلام بلغة القرآن، وعاقبوا في المدارس الطلاب الذين تسوّل لهم أنفسـهم الكـلام بهـا.. وبيّن أنه لولا المساجد وما فيها من دروس ولولا المدارس الأهلية والمعاهد الشرعية لقضي على لغة أمتنا تماماً في هذا الجزء من الوطن العربي.

وقـال: والغريب أن المدارس التبشيرية الأجنبية في بدايات نشأتها وخصوصاً في لبنان اهتمت باللغـة العربـية اهتماماً متميزاً، ظهر أثره الإيجابي في الطلاب، مما أخافها فتراجعت عن خطتها، وعدلت إلى الفرنسية والإنكليزية.

وأضـاف إلـى ما فعلته هذه المدارس عناية بعض علماء لبنان من النصارى بالعربية وتأليفهم الكتـب والمعجمات من أمثال اليازجي والبستاني والشرتوني وكذلك بعض المستشرقين الذين حذقوا العربية وأسهموا في خدمتها.

ثـم تحـدث الأستاذ عن الخطر الذي اكتنف العربية إثر إعلان دستور عام 1908 حين برزت نوايـا مـن الأتراك ضد العرب لم تكن معلنة من قبل، فخاب أمل العرب الأحرار؛ إذ لم يجدوا أثراً لتنفـيذ الوعـود التـي أعطيت لهم من قبل الحزب الحاكم، فلجأ هؤلاء إلى إنشاء الجمعيات العربية السريّة لرعاية اللغة وبث روح العروبة وتنبيه الغافلين العرب مما يُحاك ضدهم.

وبقيـت الحال كذلك حتى أعلنت الحرب العالمية الأولى عام 1914، ودخل الترك والعرب في دوامتها لتتجلى نتائجها عن خروج الأتراك من بلاد الشام إلى غير رجعة، وبذلك انتقلت العربية إلى حال أخرى خصص لها الأستاذ الباب الثاني من كتابه.

وكان كلامه عن هذه الفترة التي حكم فيها الملك فيصل يثلج الصدور إذ قفزت العربية خلالها وفي أقـل مـن سـنتين قفزات ناجحة، ورأينا كيف ألغت الدولة اللغة التركية واعتمدت العربية في الدوائر الرسمية والمدارس، وكيف تأسس المجمع العلمي العربيّ، ليكون القلعة الحصينة الحامية للعربية.

ولكــن العربية دخلت في منعطف جديد مع دخول الفرنسيين سورية ولبنان أرخ له أستاذنا في الـباب الثالـث مــن الكتاب؛ فأشار إلى الهجوم الذي شنّه الفرنسيون على اللغة في سبيل إضعافها، ونشــر الفرنسـية عوضاً عنها واستعمال سياسة الترغيب والترهيب في المدارس، إضافة إلى حشر المعلمين الفرنسيين الاستخباريين ومحاربة معلمي العربية والوطنيين.

ومــع هــذا الوضــع الذي فرضه الانتداب فإنّ ثلاث قلاع حصينة قامت في وجهه تبث النور والعــروبة توقف عندها أستاذنا توقفاً مباركاً ليتناولها بإسهاب ويذكر مآثرها؛ تلك هي ثانوية دمشق (مكتب عنبر)، والمجمع العلمي العربي، والجامعة السورية.

أمــا مكتــب عنبر الذي كتب عنه ثلّة من الباحثين[1] تناولوه من الذكريات والتاريخ، فقد توقف أستاذنا عند أثره في اللغة فأشار إلى جهود الرعيل الأول من أساتذته الذين رسخوا العربية الفصحى وما زالوا يؤثرون في تلامذتهم حتى ظهر منهم خطباء وشعراء اشتهروا على صغر سنهم[2].

وهــذا الــنجاح الذي أحرزه مكتب عنبر على خلاف تدهور العربية في المدارس التي يرعاها الاحــتلال أزعج سلطات الانتداب، فعملت على محاربته، فعينت للتدريس أساتذة جهلة أضروا باللغة التــي انتكسـت بعدئــذ في كثير من المدارس، إلى أن أحدث نظام الشهادة الثانوية (البكالوريا) عام 1927 وأدرجت العربية فيها مادة أساسية، فلقيت شيئاً من العناية.

وتوقف أستاذنا بعدئذ عند عمل المجمع العلمي ثاني القلاع في خدمة اللغة وأثره في ذلك، وذكر إسهامه في:

1)-تــزويد دوائــر الدولة بالمصطلحات اللازمة (الأوقاف، الشرطة، المجلس البلدي، الصحة، المصرف الزراعي).

2)-تلبية رغبات الصحف والجمعيات غير الرسمية.

3)-النظر في صيغ القوانين قبل أن تصدرها الدولة.

4)-النظر في لغة الكتب المدرسية، وعدم السماح بطبعها إلاّ بعد إقرار المجمع لها.

5)-تتبع أخطاء الصحف بعد صدورها وتصحيحها.

6)-نشر بحوث للمختصين تتضمن إحياء مئات الكلمات التي كانت ميتة أو غريبة في مجالات مختلفة من الحياة.

7)-إلقاء محاضرات عامة وإقامة مهرجانات وحفلات تأبينية لمشاهير الأدباء.

---

(1)-ممــن كتــب عنه الأستاذ ظافر القاسمي رحمه الله في كتابه "مكتب عنبر" والأستاذ مطيع المرابط في كتابه "النور والنار في مكتب عنبر" وتحدث عنه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في مذكراته. أما الدكتور خالد قوطرش رحمه الله فقد أعطاه حيــزاً هاماً في كتابه "نشأة التعليم في سورية" وهؤلاء كلهم من طلابه.

(2)-وقد كرّم المجمع بعض طلاب مكتب عنبر في حفل أقامه لهم إذ ظهرت شاعريتهم مبكرة وهم زكي المحاسني وأنور العطار وجميل سلطان وعبد الكريم الكرمي.

8)-نقد الكتب الهامة وتقديم تقارير عنها.

أمـــا ثالـــث القلاع التي تناولها أستاذنا في كتابه الهام فهي الجامعة السورية، فأشار إلى جهود أساتذة الأساتذة الأُول بعد خروج الأتراك، وما صنعوا من أجل جعل العربية لغة التدريس، وذكر ما واجههـــم من عقبات في سبيل ذلك، كان من أهمها تشكيك العدو بصلاحية لغة البداة في التعبير عن مـــنجزات القـــرن العشـــرين ومكتشفاته-فاستطاع الأساتذة في معهد الطب أن يثبتوا مقدرة العربية. وبقيـــت العربية أكثر من أربعين عاماً في ذلك المعهد، تشرح بها مواد التدريس، وتخرج طلاباً على قـــدر عـــالٍ من الكفاية في علمهم التخصصي اشتهروا به، وفي العربية.. فكان منهم خطباء وكتاب وأدباء أيضاً.

وقـــد استطاع أساتذة الطب في معهد دمشق بالجامعة السورية أن يؤلفوا كتباً بالعربية في جميع التخصصـــات، طبعتها الجامعة المذكورة، وكثير منها تنتهي بمعجم للمصطلحات بالعربية وما يقابلها بالفرنسـية أو الإنكلـيزية، وكـل هـؤلاء تعلمـوا في مدارس أجنبية وحذقوا أكثر من لغة، كانوا يستطيعون أن يحاضروا بها لو أرادوا، ولكنهم أصرُّوا على العربية، ونجحوا بها بسبب الغيرة على أمنهم، فخدموا العربية خدمة جلّى تحمد لهم.

وذكـــر أستاذنا أن الغيرة تجاوزت معهد الطب إلى الجماهير؛ فنشر الدكتور محمد جميل الخاني سلسـلة مقالات في مجلة المجمع بدءاً بسنة 1924 تحت عنوان "اللغة العلمية" تتبع فيها ما شاع على ألسنة العامة والمتعلمين في العهد التركي، وأرشد إلى الصحيح، فأفاد بها المتعلمين والمثقفين كثيراً.

ثـــم توّج معهد الطب جهوده لخدمة العربية في إصدار مجلة "المعهد الطبي العربي" لغايات كان إحداهـــا خدمـــة العربية، فخرجت حافلة بالمصطلحات النافعة بالعربية (أعدادها 21 مجلداً 1924-1947).

ونقـــل أستاذنا عن الدكتور شوكة الشطي قوله في معهد الطب: "إن رجال المعهد الطبي العربي بمجلـــتهم، ومحاضـــراتهم، ومؤلفاتهم، ومقالاتهم قاموا بنهضة لغوية، تبعها انتصار للغة العربية في عالم العرب وبلادهم الشاسعة".

أمـــا بقية الكليات فقال أستاذنا فيها: إنّ الحديث عن عروبتها، وخصوصاً كلية الآداب والشريعة هو من فضول القول.

ثم شفع أستاذنا الحديث عن الجامعة بالكلام على مؤسسات ليست لها علاقة بالتدريس أو التعليم عُنيـــت بســـلامة اللغـــة، وهـــي دار الآثار العامة والجيش، أما الآثار فمن خلال مجلتها ونشراتها والمؤلفـــات الـــتي أصدرتها، وأما الجيش فعن طريق إدخال المصطلحات العربية في كل ما يتصل بالسلاح والآلات والشؤون الإدارية، ومنذ وقت مبكر، يعود إلى عام 1920.

وذكـــر أستاذنا أشياء أخرى عملت على إحياء العربية مثل الحفلات العامة التي كانت تلقى فيها الخطب بالفصحى وكذلك الصحافة واللافتات على المخازن والمحال والمؤسسات التي أوجبت الدولة

أن تكون بالعربية وكذلك الإذاعة التي أسهمت في نشر الفصحى.

وتوقف أستاذنا عند باب خصصه في الكتاب لمشكلات مزعومة، أثارها خصوم العربية، حصرها في ثلاث قضايا: تباين العامية والفصحى، والحرف العربي، والقواعد، فبيّن الملابسات التي قامت لإثارة هذه المشكلات، ثم دفع برأيه ضد الخصوم بالحجة والبرهان.

على أنّ هذه القضايا قامت حولها كتابات كثيرة في الشام ومصر والعراق، وعقدت لها مؤتمرات. وقد أضاف أستاذنا في هذا المجال إضافات مستحسنة وقدم تاريخاً موجزاً مهماً للدعوة إلى العامية في بلاد الشام، وذكر ما فعلوا في ساحل الشام (لبنان) من أجل هذا، وتوقف عند سعاية العدو تلقاء دعم الحرف اللاتيني وذكر حججاً دحض بها آراء من زعم صعوبة القواعد العربية والإعراب.

وختم أستاذنا كتابه بحديث عن مستقبل العربية في الشام، فجاء حديثه هذا مملوءاً بالآمال ورأى أن المستقبل للعربية الفصحى، مستنداً في ذلك إلى التاريخ في الخمسين سنة التي مضت على صدور كتابه فوجدها مضيئة خطت فيها اللغة إلى القمة متجاوزة كل صعوبة وعقبة، على شدة الحملات ضدها.

*

وبعد

فهذه عجالة عمّا جاء في كتاب أستاذنا سعيد الأفغاني، لا تغني عن قراءته قراءة متأنية، وإنما تصفه، لأن في كل صحيفة منه إضاءة وفكرة.. وقد قدم فيه مادة غنية وهامّة على صغر حجمه. هذا وإن قارئ الكتاب يخرج بجملة انطباعات لا بد أن نسجّل هنا:

1)-تسربل الكتاب بلغة فصحى علمية ميّزت أسلوبه الأنيق الجميل على بساطته وبعده عن التقعر.

2)-بدت الغيرة الواضحة على اللغة العربية في كل جملة من جمله، من خلال النبرة العالية في الكتابة.

3)-يستحوذ التشويق على قارئ الكتاب من خلال المفاجآت التي تطلع عليه في ثنايا الحديث والأسلوب الجذّاب.

4)-يخلّف الكتاب في النفس الاطمئنان في النهاية لما آلت إليه العربية، ويرسم آمالاً حساناً.

5)-يشعر العربي المخلص من قراءة الكتاب بالاعتزاز بلغته ومسؤوليته تجاهها في آن معاً ضد ما يدبر لها.

6)-ويفخر بالعلماء الذين كانوا جنوداً غيورين، خدموا اللغة بما عاد على الأمة بالخير.

رحم الله أستاذنا الأستاذ سعيد الأفغاني شيخ العربيّة في عصره وبقيّة السلف الصالح كفاء ما قدم للعربية تدريساً وكتابة طوال عمره المملوء بالعطاء والسهر على لغة القرآن الكريم.

□□□

وللأفغاني
رأي في الاحتجاج بالقراءات

د.إبراهيم محمد عبد الله

الملخص:

يتناول ***هذا البحث رأي الأستاذ المرحوم سعيد الأفغاني في الاحتجاج بالقراءات القرآنية في مضمار بناء القاعدة النحوية واللغوية، وقسمته إلى الفقر التالية:***

1ـ المقدمة: ألمحت فيها إلى أضرب القراءات القرآنية وموقف النحويين البصريين من الاحتجاج بها.

2ـ منهج الأستاذ الأفغاني في الاحتجاج بالقراءات في بناء القاعدة النحوية.

3ـ موقفه من الاحتجاج بالقراءات المتواترة والصحيحة.

4ـ موقفه من الاحتجاج بالقراءات الشاذة.

5ـ الخاتمة

6ـ النتائج

المقدمة:

ظهرت أمارات اللحن على الألسنة منذ أيام الرسول ﷺ، وذلك في روايات منها أنه [سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل][1]، وظهر اللحن في قراءة القرآن الكريم، وهذا ما جعل الرسول ﷺ يقول: [رحم الله امرأً أصلح من لسانه]، وقال ابن جني معقباً: [وذلك لما علمه

[1] الخصائص: 2/ 8.

رسول الله ﷺ ممّا يُعقبُ الجهلُ لذلك من ضد السداد وزيغ الاعتقاد][1]، ثم توالت حوادث اللحن بعد ذلك في أيام عمر بن الخطاب وأبي الأسود الدؤلي إلى أن وُضع علم النحو[2].

ومن أجل صون العربية والحفاظ عليها من اللحن هبت ثُلّة من المخلصين، وبدأت بوضع قواعد كليةٍ تَضبَط العربية في ضوئها، فالتمسوا الحجج لإثبات سداد قواعدهم، فيمَّموا وجوههم شطر كلام العرب والقرآن الكريم.

والذي يعني هذا البحث هو احتجاجهم بقراءات القرآن الكريم، الكتاب الذي يُعَدُّ النص الموثوق به، والذي أجمع العلماء على الاحتجاج به، لأنه وصل إلينا بالتواتر عن التابعين، عن الصحابة، عن رسول الله ﷺ، وهؤلاء الرجال كلهم يحتج بكلامهم العادي، فكيف برواياتهم للقراءات القرآنية التي محضوها حبهم وأخلصوا لها جهدهم، فضلاً عن أن أئمة القراء أكثرهم من النحويين كأبي عمرو والكسائي ويعقوب الحضرمي؟

إلا أننا نرى فريقاً من النحويين، ولا سيما البصريون منهم، يتمسكون بأصولهم وقواعدهم التي أقاموها على استقراء ما وردهم وما سمعوه من كلام العرب، ويُخضعون القراءات القرآنية لتلك القواعد، فما اتفق من هذه القراءات مع قواعدهم أخذوه، وما اختلف تأوّلوه أو ردُّوه، أو عدُّوه شاذاً.

وكان للمتقدمين[3] والمعاصرين رأي في مذهب البصريين هذا، فمن المعاصرين الذين أدلوا دلوهم في الاحتجاج بالقراءات القرآنية، في مضمار صوغ القاعدة النحوية، الأستاذ المرحوم سعيد الأفغاني، وسيجري الكلام فيما يلي على موقفه من العلاقة ما بين القراءات القرآنية والقواعد النحوية[4].

ولعل من المفيد، قبل الشروع في تبيان رأي الأستاذ، الإشارة إلى الشروط التي وضعها العلماء للقراءات المتواترة والصحيحة والشاذة.

1ـ القراءة المتواترة: هي ما توفر فيها الشروط التالية:

1ـ التواتر: أي أن ينقل القراءة جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم.

2ـ موافقة الرسم العثماني.

3ـ موافقة قواعد العربية[5].

---

(1) الخصائص: 3/ 246.

(2) انظر الخصائص: 2/ 8ـ 9.

(3) انظر الاقتراح: 15، وستجري الإشارة إلى النحويين الذين خالفوا البصريين في موقفهم من الاحتجاج بالقراءات على القاعدة النحوية.

(4) أقمت هذه الدراسة على ما كتبه الأستاذ الأفغاني في الاحتجاج بالقراءات في كتابه "في أصول النحو"، ومقدمته لكتاب "حجة القراءات" لأبي زُرعة عبد الرحمن بن أبي زنجلة، وبحث له بعنوان "الاحتجاج للقراءات" نشر في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجلد 34، عام 1974 (عن كتاب سعيد الأفغاني حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها، تأليف الدكتور مازن المبارك).

(5) انظر الإتقان في علوم القرآن: 1/ 213، 1/ 215.

2ـ القراءة الصحيحة:

1ـ صحة السند إلى رسول الله ﷺ.

2ـ موافقة العربية ولو بوجه.

3ـ موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً[1].

3ـ القراءة الشاذة: هي القراءة التي اختلّ فيها ركن من الأركان المذكورة في شروط القراءة الصحيحة[2].

منهج الأستاذ الأفغاني في الاحتجاج بالقراءات:

يرى الأستاذ الأفغاني أن المنهج المستقيم الذي ينبغي للنحويين أن يسلكوه في تعاطيهم للاحتجاج بالقراءة القرآنية يتمثل في أن ينظروا في قواعدهم ومقاييسهم، فما وافق منها القراءات المتواترة والصحيحة والشاذة أبقوه، وما خالفها فعليهم أن يبادروا إلى تصحيحه وضبطه على هدي هذه القراءات، ويتطلبوا له وجهاً إذا كانت القراءة شاذة، ويستأنسوا في ذلك بما ورد من كلام العرب، لا أن يجعلوا من قواعدهم وأقيستهم فيصلاً في النظر إلى القراءة القرآنية، لأن في ذلك ــ كما يرى ــ تحويلاً للحقيقة عن وجهها، وصرفاً للعقل عما يقتضيه التفكير السليم.

فهذه القراءات حظيت بقسط وافر من الضبط والوثوق والدقة والتحري، لم تحظ به قواعد النحو والصرف واللغة، وقارئوها تابعون ثقات في رواياتهم فصحاء في عربيتهم حقيقون على أن يُتّخذوا أسوة صالحة في الفصاحة والبيان والنأي عن اللحن، قال: "والمنهج السليم في ذلك أن يمعن النحاة في القراءات الصحيحة السند، فما خالف منها قواعدهم صححوا به تلك القواعد ورجعوا النظر فيها، فذلك أعْوَد على النحو بالخير، أما تحكيم قواعدهم الموضوعة في القراءات الصحيحة التي نقلها الفصحاء العلماء فقلب للأوضاع وعكس للمنطق، إذ كانت الروايات الصحيحة مصدر القواعد لا العكس"[3].

ويوجه نقداً شديداً إلى النحاة بأنهم احتجوا للقراءات المتواترة بقواعدهم، ويَعُدُّ عملهم هذا قلباً للحالة القويمة السليمة، ويرى أن السداد أن يحتج لقواعد النحو بالقراءات المتواترة لما أحيطت به من عناية وضبط، قال: "إن المؤلفين القدامى يحتجون للقراءات المتواترة بالنحو وشواهده وهذا عَكْسٌ للوضع الصحيح، وإن السلامة في المنهج والسداد في المنطق العلمي التاريخي يقضيان بأن يحتج للنحو ومذاهبه وقواعده وشواهده بهذه القراءات المتواترة..."[4].

---

(1) انظر النشر: 1/ 9، والإتقان في علوم القرآن: 1/ 210.

(2) انظر المحتسب: 1/ 32، والنشر: 1/ 9، والإتقان في علوم القرآن: 1/ 210.

(3) في أصول النحو: 32ــ 33.

(4) مقدمة كتاب "حجة القراءات": 18ــ 19.

ويمضي الشيخ يخطِّئ النحويين الذين ردُّوا بعض القراءات، ويظهر تنكُّبهم سبيل الحق والصواب، وينعتهم بقلة الدراية بعلم القراءة، وسنرى ذلك فيما يأتي من هذا البحث.

موقفه من الاحتجاج بالقراءات المتواترة والصحيحة:

نستبين موقف الأستاذ الأفغاني من الاحتجاج بالقراءات المتواترة والصحيحة إذا عرضنا لبعض هذه القراءات التي كان للنحويين موقف منها لمخالفتها قواعدهم التي صاغوها، ونظرنا في رأي الأستاذ في هؤلاء النحويين.

فممَّا أُثر عن أكثر النحويين البصريين أنهم منعوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وغيره في سعة الكلام، وخالفهم الكوفيون فأجازوا الفصل بينهما بغير الظرف والجار والمجرور، واحتجوا بحجج منها قراءة ابن عامر قوله تعالى: ﴿وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قَتْلُ أولادَهم شركائهم﴾[(1)]، ببناء الفعل "زين" للمفعول، ورفع "قَتْلُ" ونصب "أولادَهم" وجرّ "شركائهم"[(2)]، ولم يسوِّغ البصريون الاحتجاج بهذه القراءة "لأن الإجماع واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول في غير الضرورة"[(3)]، وهم "يذهبون إلى وَهْي هذه القراءة ووهم القارئ"[(4)]، ومنهم مَن نبذ هذه القراءة ورماها، متعلِّلاً بقلَّة الفصل بين المتضايفين، وفي ذلك يقول أبو علي الفارسي معقِّباً عليها: "ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به، والمفعول به مفعول المصدر، وهذا قبيح قليل في الاستعمال"[(5)] ومنهم ابن جني إذ قال بعد أن ساق قراءة ابن عامر السالفة: "وهذا في النثر وحال السَّعة صعب جداً، لا سيما والمفعول به مفعول لا ظرف"[(6)].

إلا أن الزمخشري كان من أشدِّهم توهيناً لهذه القراءة إذ قال: "وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم.... فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً.. فكيف به في القرآن المعجز؟..."[(7)].

وكان للشيخ الأفغاني رأي في المسألة، إذ وقف منافحاً عن القراءة وقارئها متَّهماً البصريين بالتسرُّع في الحكم والتعصب لقواعدهم النحوية الناقصة، وقلة درايتهم بعلم القراءات، فقال: "ولكن البصريين من النحاة تسرَّعوا فوهَّوا هذه القراءة تعصُّباً لمقاييسهم النظرية، ومع أن القراءة ليست فَنَّهم، فقد حملهم التعصب على القطع في مسألة من غير فهم، لتسلم لهم قواعد وضعوها دون

---

(1) الأنعام: 6/ 137.

(2) انظر كتاب السبعة: 270.

(3) الإنصاف: 435.

(4) الإنصاف: 436.

(5) الحجة للقراء السبعة: 3/ 410- 411.

(6) الخصائص: 2/ 407.

(7) الكشاف: 2/ 42.

استقراء وافٍ"[1].

ثم نظر إلى الزمخشري، فأظهر لــه زلَّتين كَبيرتيْن في كلامه، فقال بعد أن ساق كلامه: "وفي هــذا الكلام زلّتان كبيرتان، يَتَنزَّه عنهما الشادي في علم القراءات، فأما الأولى ففي جملته: الأخيرة المشــعرة بــأن ابن عامرٍ حُرٌّ في اختراع القراءة... وأما الثانية فظنُّه أن القارئ أسير الرسم"[2]، ثم خلــص إلى أن القراءة "تُتلقّى مشافهة بالإسناد، وهي عادةً توافق الرسم، وليس لقارئ أن يقرأ قراءة لم يتلقّها، وإن وافقت الرسم"[3].

وبعد أن فرغ الأستاذ من الرد على الزمخشري وإظهار مجانبته للصواب، التفت إلى ابن عامر صــاحب القراءة، فرأى فيه إماماً ثقة تابعياً عربياً من الخُلَّص الذين يحتج بكلامهم، فكيف بقراءتهم؟ وانــتهى إلى أن قراءته السالفة حجة دامغة على جواز الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجــرور، وإن كانت قواعد البصريين لا تبيحه، وفي ذلك يقول: "وعبد الله بن عامرٍ هذا إمام من أعــلام القــراء وكبار التابعين (11ــ 118هــ) أحد القراءة السبعة وإمام الشاميِّين، تلقى قراءته عن كــبار الصحابة، كعثمان بن عفان وغيره من كبار التابعين، وهو بعد من صميم العرب الذين يحتّج بكلامهم... وعلى هذا تكون هذه القراءة حجة قوية على الفصل بين المتضايفين بغير الظرف والجار والمجرور"[4].

ثــم وجه نقده إلى البصريين لتعصبهم لقاعدتهم النحوية التي تمنع الفصل بين المتضايفين بغير الظــرف والجــار والمجــرور، ونبه على أن المنهج السديد يوجب عليهم أن يصحِّحوا هذه القاعدة ويجــيزوا الفصل بالمفعول ويوافقوا الكوفيين بناء على قراءة ابن عامر، ويكفوا عن تضعيف القراءة المــتواترة، قــال: "وكــان المنهج السليم يقضي أن يصحح النحاة البصريون قاعدتهم محتجّين بهذه القراءة كما فعل الكوفيون، لا أن يضعِّفوا قراءة متواترة..."[5].

ومــن المتقدّميــن الذين أجازوا الفصل بين المتضايفين بمعمول المضاف في سعة الكلام، بناء على قراءة ابن عامر، ابن مالك، إذ رأى فيها دليلاً ساطعاً على جواز المسألة، قال: "الفصل بمعمول المضاف إذا لم يكن مرفوعاً جدير بأن يكون جائزاً في الاختيار، ولا يختص بالاضطرار،... وأقوى الدلالــة علــى ذلــك قراءة ابن عامر رضي الله عنه ﴿وكذلك زُين لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شــركائهم﴾ لأنهــا ثابتة بالتواتر"[6]، ثم استدل على حجيّة هذه القراءة بجلال قدر صاحبها في العدل والعربــية، وانتهى إلى أن جواز ما قرأ به في النحو أمرٌ قوي، فقال: "ومعزوّة إلى موثوق بعربيته

---

(1) في أصول النحو: 40 ــ 41.
(2) في أصول النحو: 42ــ 43.
(3) في أصول النحو: 43.
(4) في أصول النحو: 43ــ 44.
(5) في أصول النحو: 45.
(6) شرح التسهيل لابن مالك: 3/ 276ــ 277.

قبل العلم بأنه من كبار التابعين، ومن الذين يُقتدى بهم في الفصاحة"[1]، ثم أتى بشواهد شعرية على المسألة[2].

وصحَّح أبو حيان الأندلسي جواز المسألة أيضاً مستشهداً بقراءة ابن عامر فقال: "وأما الفصل بالمفعول بين المصدر والمخفوض كقراءة ابن عامر: ﴿قتلُ أولادَهم شركائِهم﴾ فقد جاءت نظائره في أشعار العرب، والصحيح جوازه"[3].

ومما يجلّي موقف الأستاذ الأفغاني في وجوب تحكيم القراءة المتواترة في القاعدة النحوية وأن السير على هذا السنن اتباع للسداد ونصرة للحق ـ كما يرى ـ ما صحّحه من جواز عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور دون إعادة الخافض مستنداً إلى قراءة حمزة ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ﴾[4] بجرّ الأرحام[5].

فمن حديث الخلاف بين البصريين والكوفيين: أن أكثر البصريين والفراء أوجبوا إعادة الخافض في الاسم الظاهر إذا عطف على ضمير مخفوض، وخالفهم الكوفيون فأجازوا العطف بلا إعادة الخافض، واحتجوا بقراءة حمزة السالفة، إلا أن البصريين ردوا هذه القراءة، وذكروا وجهين في تخريجها[6]، وكان لمتقدّميهم موقف متشدّد منها، لأنها مخالفة لأقيستهم، وكان على رأسهم أبو العباس المبرد، إذ لم يأخذ بقراءة حمزة متعللاً بأن كلام الله لا يخرَّج إلا على أقوى المذاهب النحوية، قال: "والقرآن إنما يحمل على أشرف المذاهب، وقرأ حمزة ﴿الذي تساءلون به والأرحامِ﴾، وهذا مما لا يجوز عندنا، إلا أن يضطرّ إليه شاعر"[7].

غير أن هذا من البصريين لم يَرُق للأستاذ الأفغاني، فساق نصاً للسيوطي[8] وآخر للفخر الرازي[9]، ليظهر وجوب الأخذ بالقراءة المتواترة السالفة، وطرح القاعدة النحوية التي صاغها نحاة البصرية وعوّلوا عليها، واتخذ من كلام الرازي والسيوطي برهاناً ظاهراً على ما يدعو إليه من وجوب بناء القاعدة النحوية على القراءة القرآنية وتحكيمها فيها، ولا سيما المتواترة.

وسار ابن مالك من المتقدمين في ركب يونس والأخفش والكوفيين في إجازتهم العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، واستند إلى قراءة حمزة وأشياء أخرى من كلام العرب، فقال: "ومن مؤيدات الجواز قراءة حمزة ﴿تساءلون به والأرحامِ﴾، وهي أيضاً قراءة ابن عباس

---

(1) شرح التسهيل لابن مالك: 3/ 277.
(2) انظر شرح التسهيل: 3/ 277ـ 278.
(3) ارتشاف الضرب: 1845ـ 1846، والبحر المحيط: 4/ 657.
(4) النساء: 4/ 1.
(5) انظر كتاب السبعة: 226، وقرأ هذه القراءة من غير السبعة إبراهيم وقتادة، انظر التيسير: 93.
(6) انظر الإنصاف: 467. وانظر معاني القرآن للفراء: 1/ 252.
(7) الكامل: 3/ 39. وانظر الكتاب: 2/ 381، والخصائص: 1/ 285.
(8) انظر في أصول النحو: 39، والاقتراح: 15.
(9) انظر في أصول النحو: 39ـ 40، والتفسير الكبير للرازي: 3/ 193.

والحسن وأبي رزين ومجاهد والنخعي والأعمش..."[1] ثم روى شواهد تشهد بجواز المسألة[2].

واختار أبو حيان جواز المسألة مطلقاً[3].

ويربط الأستاذ الأفغاني بين أصل من أصول النحويين ـ وهو السماع ـ وبين الأخذ بالقراءة المتواترة، ويرى العلاقة بينهما وثيقة، لأن كليهما سماع، بل سماع القراءة المتواترة أصح أضرب السماع، لذا يوجب على البصريين تعديل قواعدهم لتتفق وما ورد في متواتر القراءات وصحيحها، فممَّا اتفق عليه البصريون والفراء أن الواو والياء إذا وقعتا زائدتين في اسم رباعي فإنهما تقلبان همزتين في الجمع، نحو عجوز وعجائز وصحيفة وصحائف، فلما وردهم الهمز في الياء وهي أصلية في قراءة نافع قوله تعالى: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾[4] بهمز الياء في معايش[5]، رفضوه، وردُّوا هذه القراءة، فالمازني خطأ قراءة نافع بهمز معايش، وقال: "فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة "معائش" بالهمز فهي خطأ، فلا يلتفت إليها"[6]، وشكَّك المبرد في نسبة القراءة إلى نافع ورماها بالغلط، فقال: "فأما قراءة من قرأ "معايش" فهمز فإنه غلط، وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع بن نعيم، ولم يكن له علم بالعربية"[7]، وغير هذين البصريين ممّن ردَّ هذه القراءة كثير كالأخفش[8] والنحاس[9]، والزجاج[10]، ومن الكوفيين الفراء[11].

والأستاذ الأفغاني حمل هذه القراءة وتوجه بها إلى النحويين وألزمهم أن يعدلوا قاعدتهم الصرفية، ويضيفوا إليها أن العرب قد تعامل الحرف الأصلي معاملة الحرف الزائد في الاسم الرباعي بناء على ما ورد في قراءة نافع، لأنها من أرقى أنواع السماع وأصحّه، وهم الذين يُعوِّلون على السماع في نحوهم وصرفهم، ثم خلص إلى خلع القدسية والعصمة عن مذهب البصريين في النحو، وإبداء إعجابه بعبارة قالها أبو حيان الأندلسي في هذا المذهب، والتذكير بالقاعدة الذهبية التي تتعلق بمنهج النحاة، وهي أن قواعدهم الكلية قامت على استقراء ناقص لكلام العرب، وأن السماع هو الأصل في إثبات اللغة، فقال: "وكان على نحاة البصرة تصحيح قواعدهم وتذييلها بأن العرب ربما حملت الحرف الأصلي على الزائد، فعاملته معاملته، إذ كان شبيهاً به في اللفظ، ثم عليهم أن يستشهدوا بقراءة نافع هذه، وبذلك يزيد مذهبهم إحكاماً وانسجاماً مع أصوله التي أهمها البناء على

---

(1) شرح التسهيل لابن مالك: 3/ 376ـ 377.

(2) انظر شرح التسهيل: 3/377ـ 378.

(3) انظر ارتشاف الضرب: 2014، والبحر المحيط: 3/ 500.

(4) الأعراف: 7/ 10.

(5) قراءة نافع بالهمز مروية عن خارجة في كتاب السبعة: 278.

(6) المنصف: 1/ 307.

(7) المقتضب: 1/ 123.

(8) انظر معاني القرآن له: 1/ 373.

(9) انظر إعراب القرآن له: 2/ 115.

(10) انظر معاني القرآن وإعرابه: 2/ 321.

(11) انظر معاني القرآن له: 1/ 373.

السماع الصحيح، وأيُّ سماع أصحُّ من قراءة نافع وابن عامر... وتعجبني كلمة أبي حيان في تفسيره... "ولسنا متعبّدين بأقوال نحاة البصرة" لأن اللغة تثبت بالنقل لا بالمقاييس المبنية على الاستقراء الناقص"[1].

ولا بدَّ من التنبيه على أن الأستاذ نسب قراءة "معائش: بالهمز إلى نافع وابن عامر ووصفها بالتواتر إذ قال: "فلما تواترت القراءة عن نافع وابن عامر الدمشقي، وهما إمامان عظيمان من أئمة القراء في قوله تعالى: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ بالهمز ــ وهي غير قراءة الجمهور ــ قرَّروا أنها خطأ.."[2].

فالأستاذ يصف قراءة نافع بأنها متواترة، وحسبنا أن نعلم أن ابن مجاهد قال: "كلُّهم قرأ "معايش" بغير همز، وروى خارجة عن نافع "معائش" ممدودة مهموزة، قال أبو بكر: وهو غلط"[3].

فأبو بكر خطأ قراءة نافع المروية عن خارجة، ولم يَرْوها عن ابن عامر، وهو من السبعة الذين تكفَّل أبو بكر بذكر قراءاتهم، ولم أرَها مروية عنه في "الكشف عن وجوه القراءات السبع"[4]، ولا في "إعراب القراءات السبع وعللها"[5] ولا في "الحجة للقراءة السبعة"[6]، ولا في "النشر"[7]، ولا في التيسير في القراءات السبع[8]، ولعل مصدر الأستاذ في نسبة هذه القراءة إلى ابن عامر أبو حيان الأندلسي إذ قال: "وابن عامر في رواية"[9]، ونسب الطبري قراءة "معائش" بالهمز إلى عبد الرحمن الأعرج[10]، ونسبها ابن خالويه إليه وإلى خارجة عن نافع[11].

موقفه من الاحتجاج بالقراءات الشاذة:

لم يختلف موقف الأستاذ الأفغاني من الاحتجاج بالقراءات الشاذة عن موقفه من الاحتجاج بالقراءات المتواترة والصحيحة، فقد اعتدَّ بها على أنها أصل يحتجّ به ويبنى عليه قواعد العربية، قال: "وقد ظهر لك إذاً أن القراءة الشاذة لا يقدح في الاحتجاج بها عربيةٌ قادح"[12]، وبناء على هذا الرأي الذي صرح به الشيخ اعترض على النحويين الذين اطّرحوا الاحتجاج بالقراءة الشاذة، فمما

---

[1] في أصول النحو: 37. وانظر كلمة أبي حيان التي نقلها الأستاذ في البحر المحيط: 3/ 500.
[2] في أصول النحو: 36.
[3] كتاب السبعة: 278.
[4] 1/ 460ــ 461.
[5] 1/ 176.
[6] 4/ 7.
[7] 2/ 267ــ 268.
[8] 109ــ 610.
[9] البحر المحيط: 5/ 15.
[10] انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: 5/ 125.
[11] انظر مختصر شواذ ابن خالويه: 42. وإعراب القرآن للنحاس: 2/ 115.
[12] في أصول النحو: 30. وانظر مقدمة الأستاذ الأفغاني لكتاب "حجة القراءات: 13".

قــالوه أن الماضي والمصدر من الفعل "يَدَع" مُماتان، استغنت العرب عنهما بالفعل "ترك" ومصدره، هذا مع أنهم ذهبوا إلى أن "ودع" مطّردٌ في القياس، لكنه شاذ في الاستعمال، كما ورد على لسان ابن جني[1]، ولم يلتفتوا إلى قراءة قوله تعالى: ﴿ما وَدَعَك ربك وما قلى﴾[2] بتخفيف الدال في "وَدَعَك"[3] وعدّوها شاذة في الاستعمال[4]، وتعقّبهم الأستاذ الأفغاني في توقفهم عن هذه القراءة، ودحض أقوالهم لأنهم ــ كما يرى ــ ناكبون عن أصولهم التي نسجوا قواعدهم وفقها، وضعفاء لا يثبت لهم رأي في هــذه المسألة، وعوّل في نقده لهم على قضية تعَدُّ ركناً أصيلاً في الاحتجاج بالقراءات، وهي أن أهل اللغــة والنحو لم يصل إليهم من كلام العرب إلا قليله، ولو جاءهم كثيره لظفروا بعنم جَمٍّ وافر، قال: "مــن المتفق عليه عند اللغويين والنحاة أنه لم يصل إلينا من كلام العرب إلا القليل، ولو جاءنا وافراً لجــاء علم كثير"[5]، وما قاله الأستاذ قاله أبو عمرو بن العلاء في مقالته المشهورة: "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقلُّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"[6].

ثــم يشــير الأســتاذ إلى أن اللغة التي جاءت في كتاب الله تُعَدُّ أفصح مما جاء في غيره، قال: "ومن المتفق عليه أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن"[7].

ونــبه علــى أن اللغويين يجيزون استعمال الكلمة إذا وجدوا لها شاهداً واحداً من كلام العرب، علــى أن تندرج تحت قياسهم، ثم تصدّى لابن جني، فوهّن قوله: إن "ودع" مطّرد في القياس شاذ في الاستعمال[8] بأن قواعد النحاة أُصِّلت على استقراء ناقص كما يقولون، وأنهم لم يقفوا إلا على القليل مــن كــلام العرب، قال: "والعلماء يثبتون استعمال الكلمة بشاهد واحد إذا لم تخالف القياس، وكلمة "وَدَع" علــى ما مر بك من كلام ابن جني مطّردة في القياس، أما قوله: شاذة في الاستعمال فيحبطها اعــتراف الــنحاة بضــآلة ما انتهى إلينا من كلام العرب، وأن أحكامهم عامة مبنية على الاستقراء الناقص"[9].

وبعــد أن اعــتمد على الأصل اللغوي في إبطال قول من لم يحتج بقراءة التخفيف، التفت إلى تَوْثــيقها مــن حيث السند فقال: "نأتي الآن إلى قراءة التخفيف في قوله تعالى: ﴿ما وَدَعَك ربك وما قلــى﴾، فقد قرأها كذلك عروة بن الزبير وابنه هشام، وهما مَن هما، بل إن الغريب في ذلك أن ابن

[1] انظر الخصائص: 1/ 99، وانظر أيضاً الكتاب: 14/ 67. 4/ 99.
[2] الضحى: 92/ 3.
[3] انظر المحتسب: 2/ 364، وإعراب القرآن للنحاس: 5/ 249، ومختصر شواذ ابن خالويه: 175.
[4] انظر ما ورد في الحاشية (56)، وانظر توجيه القراءة الشاذة في البرهان في علوم القرآن: 1/ 491ــ 492.
[5] في أصول النحو: 34.
[6] طبقات فحول الشعراء: 1/ 25.
[7] في أصول النحو: 34.
[8] انظر الخصائص: 1/ 99.
[9] في أصول النحو: 34.

جني نفسه نصّ في كتابه "المحتسب" على أنها قراءة النبي ﷺ"[1].

وساق الأستاذ شاهدين على تخفيف الفعل ودع، الأول هو قول الشاعر:

وثَـمَّ وَدَعْـنا آل عمـرو وعامـر فـرائس أطـراف المـثقفة السُـمر

والشـاهد الثاني على مصدر الفعل، وهو قول الرسولﷺ: [لينتهينّ قومٌ عن وَدْعِهم الجُمعاتِ أو ليختمنَّ الله على قلوبهم][2].

وقد ذكر البغدادي بضعة شواهد على استخدام "وَدَعَ" ومصدره واسم فاعله[3].

والمـتداول المعروف عند النحويين أن الغالب في لام الأمر أن تجزم فعل الغائب نحو لِيقُمْ، أو المـتكلم مع غيره، نحو قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُم﴾[4]، وأن جزمها الفعل المسند إلى المخاطب قلـيل عند قوم منهم حتى إنه رديء عند بعضهم[5]، إلاّ أن الأستاذ الأفغاني رأى أن جزم المضارع الـذي للمخاطـب بلام الأمر سائغ في العربية وأن حكم النحاة على دخولها عليه بالقلة ليس ذا بال، وساق كلاماً للسيوطي احتج فيه بقراءة شاذة لقوله تعالى: ﴿فبذلك فلْتفرحوا[6]﴾ بالتاء وقال: "لا تدخل لام الأمـر علـى المضارع الغائب في الأعم الأغلب، وأنكر قوم دخولها على غيره، ولم يكن لهذا الإنكـار قـيمةٌ ما "إذ احتج على جواز إدخالها على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بالقراءة الشاذة ﴿فبذلك فلْتفرحوا[7]﴾"[8].

واسـتجاد المـبرد دخول لام الأمر على الفعل المخاطب واستشهد بالقراءة السالفة، وقال: "ولو كانت للمخاطب لكان جيداً على الأصل، وإن كان في ذلك أكثر، لاستغنائهم بقوليهم: افعلْ عن لتفعل، وروي أن رسول الله قرأ: ﴿فبذلك فلتفرحوا﴾ بالتاء"[9].

وذهـب الزجاجـي إلى أن أمر فاعل الفعل المضارع المخاطب بلام الأمر لغة جيدة، قال أبو حـيان: فإذا كان مسنداً للفاعل المخاطب فلغتان إحداهما: قالوا: رديئة قليلة، وهي إقرار تاء الخطاب واللام، نحو: لتقم، وزعم الزجاجي أنها لغة جيدة"[10].

---

(1) في أصول النحو: 35، وانظر المحتسب: 418/2، ومختصر شواذ ابن خالويه: 175.
(2) انظر في أصول النحو: 34-35.
(3) انظر الخزانة: 3/120-121.
(4) العنكبوت: 12/29.
(5) انظر شرح التسهيل لابن مالك: 60/4، وشرح الكافية للرضي: 252/2، وارتشاف الضرب: 1856.
(6) يونس: 58/10، وانظر معاني القرآن للفراء: 469/1، والمحتسب: 313/1، وإعراب القرآن للنحاس 259/2، ومختصر شواذ ابن خالويه: 57.
(7) الاقتراح: 15.
(8) في أصول النحو: 38.
(9) المقتضب: 45/2.
(10) ارتشاف الضرب: 1856.

وجدير بالذكر أن قراءة قوله تعالى: ﴿فلْتفرحوا﴾ بالتاء قرأ بها النبيﷺ وعثمان بن عفان وأُبيّ بن كعب وغيرهم[1].

ويرى الأستاذ أن القراءة الشاذة إذا اتصل سندها بقارئ عربي سليقي عاش في عصر الاحتجاج فعلى اللغوي أن يأخذ بها في احتجاجه، قال: "ولئن طرح القراء القراءات الشاذة لمخالفتها الرسم العثماني، إن على اللغوي أن يتمسك بها كل التمسك متى صح سندها إلى عربي سليم السليقة في عصور الاحتجاج"[2].

ويبدو الشيخ حريصاً على الاحتجاج بالقراءات غيوراً عليه داعية إليه، فمما ينبغي أن يغري أهل اللغة -في مذهبه- بالاحتجاج بالقراءات أنها لقيت من الاهتمام والاجتهاد في طلب الدقة والضبط ما لم يلقه الشعر والنثر، قال: "إن هذه العناية البالغة في تحري القراءات تحمل اللغويين على العض عليها بالنواجذ، والاحتجاج بها، وتحكيمها في القواعد، إذ أُتيح لها من الضبط ما لم يتح للشعر ولا للنثر"[3].

والشيخ في منهجه الذي رسمه للاحتجاج بالقراءات يهتدي بسنّة جماعة مَنْ سبقه من النحويين والمفسرين المتقدمين، من مثل الفخر الرازي[4]، وابن مالك وأبي حيان الأندلسي[5]، والسيوطي[6].

نتائج البحث:

هذا البحث رصد رأي الأستاذ الأفغاني في الاحتجاج بالقراءات القرآنية ومفاده أن تحكم القراءات بالقواعد النحوية لا العكس، وأظهر أدلته التي استند إليها، وفيما يلي تعدادها:

1- القراءة القرآنية توفر لها من صحة السند والضبط والتحري ما لم يتوفر للقاعدة النحوية.

2- الرجال الذين رووا القراءات ثقات راسخون في العربية، يحتج بكلامهم العادي، فلأن يحتج بالقراءات التي رووها عن الرسول أحق وأجدر.

3- الروايات الصحيحة مصدر للقواعد النحوية لا العكس.

4- النحويون واللغويون أقاموا قواعدهم على استقراء ناقص لكلام العرب، لأن الذي وصل إليهم من كلام العرب قليله، وهذا الدليل من أهم ما عوّل عليه الأستاذ الأفغاني في الردّ على النحويين الذين لم يأخذوا بالقراءات.

---

(1)- انظر المحتسب: 1/313، والنشر، 2/285، ومختصر شواذ ابن خالويه: 57.

(2)- مقالة للأستاذ بعنوان: "الاحتجاج بالقراءات" عن كتاب "سعيد الأفغاني حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها: 117.

(3)- عن كتاب "سعيد الأفغاني حامل لواء العربية": 117.

(4)- انظر التفسير الكبير: 3/193.

(5)- انظر ما سلف ص: 7-8.

(6)- انظر الاقتراح: 14-15.

5- الربط بين أصل من أصول النحويين عظيم، وهو السماع، وبين الاحتجاج بالقراءات، لأنها من أرقى أنواع السماع.

6- قواعد النحويين، ولا سيما البصريون منهم، ليس لها صفة القدسية. وبناء على هذه الأدلة انتهى الأستاذ إلى ما يلي:

1- إبطال بضع قواعد وتعديل شيء منها استناداً إلى القراءات القرآنية.

2- النحويون الذين لم يأخذوا بالاحتجاج بالقراءات في قواعدهم حرموا النحو من مئات الشواهد التي تضبط قواعدهم وترقى بها إلى درجة أعلى من الإحكام والدقة.

3- القراءات القرآنية كلُّها حجة.

7- الأستاذ الأفغاني سار على نهج نفَرٍ غير قليل من النحويين الذين حكَّموا القراءة بالقاعدة النحوية.

***

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن- للسيوطي- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1987.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق د.رجب عثمان محمد، مراجعة د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي- القاهرة.
- إعراب القرآن- للنحاس، تحقيق د.زهير غازي زاهد، عالم الكتب.
- إعراب القراءات السبع وعللها، لابن خالويه، تحقيق د.عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- الإنصاف في مسائل الخلاف للأنباري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، بعناية الشيخ زهير جعيد- دار الفكر.
- البرهان في علوم القرآن- للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- التفسير الكبير- للرازي- دار الكتب العلمية- بيروت.
- التيسير في القراءات السبع، للداني.
- جامع البيان عن تأويل القرآن، للطبري، تحقيق محمود محمد شاكر- دار المعارف بمصر.
- الحجة للقراء السبعة، الفارسي، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي- دار المأمون للتراث.
- حجة القراءات، لابن زنجلة، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، ط1 بنغازي عام 1974.
- خزانة الأدب، للبغدادي، دار صادر.
- الخصائص، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى- بيروت.
- سعيد الأفغاني حامل لواء العربية وأستاذ أساتيذها، تأليف د.مازن المبارك دار القلم- دمشق.
- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د.عبد الرحمن السيد، د.محمد بدوي مختون، ط1، 1990.
- شرح الكافية للرضي، دار الكتب العلمية- بيروت.
- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام، شرحه محمود محمد شاكر- مطبعة المدني- القاهرة.
- في أصول النحو، لسعيد الأفغاني- دار الفكر.
- الكامل- للمبرد- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر.

- الكتاب- لسيبويه- تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة العامة للتأليف والنشر.
- كتاب السبعة لابن مجاهد، تحقيق د.شوقي ضيف- دار المعارف.
- الكشاف- للزمخشري، دار المعرفة- بيروت.
- الكشف عن وجوه القراءات السبع، للقيسي، تحقيق د.محيي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- المحتسب- لابن جني، تحقيق علي النجدي ناصيف، د.عبد الفتاح شلبي، القاهرة- 1999.
- مختصر في شواذ القراءات، لابن خالويه، نشره برجستراسر.
- معاني القرآن للفراء، عالم الكتب- بيروت.
- معاني القرآن للأخفش، تحقيق عبد الأمير الورد، عالم الكتب، ط1.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق د.عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، ط1.
- المقتضب، للمبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب بيروت.
- المنصف، لابن جني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط1، 1954.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري- دار الفكر.

الأفغاني محققاً

من خلال تحقيقه لكتاب تاريخ داريا للخولاني

رياض عبد الحميد مراد

من *الكتب التي اهتم بها أجدادنا العرب ـ وألّفوا فيها فأكثروا ـ* **كتب تواريخ المدن** *من مثل:*

ـ تاريخ واسط لبحشل (ت292هـ)
ـ وتاريخ جرجان للسهمي (ت427هـ)
ـ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (463هـ)
ـ وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (571هـ)
ـ وتاريخ دنيسر لابن اللمش الطبيب (640 ؟.هـ)
ـ والمعزة فيما قيل في المزة لابن طولون (953هـ)
ـ والروضة الريا فيمن دفن بداريا للعمادي (1051هـ)

ويحتلّ كتاب "تاريخ داريا" الذي ألفه عبد الجبار الخولاني (ق4هـ) مكاناً هاماً بين هذه الكتب.

وقد حققه أستاذنا الأفغاني رحمه الله، وقدم له وفهرسه ونشره في مجمع اللغة العربية[1] بدمشق في مطلع سنة 1395هـ/1975م.

واسم الكتاب كما ورد في المخطوطة (جزء فيه تاريخ داريا ومن نزل بها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين رحمهم الله أجمعين) تصنيف القاضي أبي علي عبد الجبار بن عبد الله الخولاني.

(1) ـ ثم طبع بعد ذلك مرتين: الأولى في ليبيا ضمن منشورات جامعة بنغازي، والثانية في دار الفكر بدمشق.

رواية أبي الحسن علي بن محمد بن طوق الداراني عرف بالطبراني عنه.

رواية أبي محمد عبد العزيز بن أحمد بن محمد الكتاني عنه.

رواية الأمين أبي محمد هبة الله بن أحمد بن محمد الأكفاني عنه.

رواية الحافظ الإمام أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي عنه.

وهذا ما يوضح اهتمام ابن عساكر بالكتاب، فقد استوعب كل تراجمه في كتاب تاريخ مدينة دمشق، فكان أحد مصادره الكثيرة. وترجم لصاحبه في هذا التاريخ ترجمة تكاد تكون الترجمة الوحيدة التي وصلتنا عن هذا الرجل. ومع ذلك فما فيها من معلومات لا يدل على المعالم الكبيرة في حياته كالولادة والوفاة، ولا على شيء من الأحداث التي تبين شيئاً من حياة هذا الرجل، ولا يخرج أكثرها عن نطاق المشايخ الذين روى عنهم والذين رووا عنه، وتنتهي ترجمته بنموذج من روايته.

وعالج الأستاذ الأفغاني رحمه الله شح المصادر عن الخولاني باستقراء ما ورد في تاريخ داريا، فوجد أنه حدّث بتاريخ داريا في المحرم من سنة خمس وستين وثلاثمئة، فاستنتج منها أنه من رجال المئة الرابعة.

وأما الكتاب فقد ترجم فيه مؤلفه لسبعة وأربعين من أهل الحديث في داريا، واعتمد أستاذنا الأفغاني في تحقيقه على نسختين؛ إحداهما من المكتبة الأحمدية بتونس، والثانية من المتحف البريطاني بلندن.

وقال الأفغاني في مقدمته ص15: "وبعد ففي تاريخ داريا مزيتان تسترعيان الإعجاب:

أما الأولى فتفرده – على صغر حجمه وإيجازه – بروايات ومعلومات ودقائق لا نجدها في أطول المطولات كتاريخ دمشق لابن عساكر، فبعض أخبار أبي قلابة الجرمي الواردة هنا ليست في تاريخ دمشق، وكذا أخبار النعمان بن المنذر الغساني ليس منها شيء عند ابن عساكر، هذا مع أن تاريخ داريا، كله يقصر عن حجم جزء من ترجمة مطولة واحدة عند ابن عساكر، بل لعل ترجمة ابن عساكر لبلال وحده تعدل في الحجم تاريخ داريا إن لم تزد عليه. وبذلك كان هذا التاريخ شاهداً جيداً على قولهم المشهور "لا يغني كتاب عن كتاب، مع أن ابن عساكر قرأ كتاب الخولاني هذا على شيوخه وأقرأه تلاميذه: فرووه عنه، وهو قد سرد معظم تاريخ داريا في كتابه "تاريخ مدينة دمشق ولم يَجُد على صاحبه بترجمة تشفي غليل الباحث المتعطش.

وأما الثانية فإلمام مؤلفه الشامل بداريا وأحوال أهليا وأصولهم وأنسابهم وجماعاتهم إلماماً محيطاً فهو ينصّ آخر أكثر التراجم على ذراري أصحابها فيقول مثلاً: "ومن ولده جماعة بداريا إلى اليوم، فنعم أن صحابياً كأبي راشد الخولاني الذي سماه النبيﷺ وكناه بقي ولده يتناسلون بداريا حتى سنة 365هـ، وهو عام قراءة تاريخ داريا على مؤلفه، أو يقول: "وما علمت أن النعمان بن المنذر الغساني عقب بداريا عقباً..".

ولمعرفته التامة بسكان داريا وقبائلهم وأجدادهم الأعلين نجده يطلق بعض الأحكام إطلاق المعتدّ

بعلمه، الواثق من قلمه، فيقول في أبي راشد الخولاني: "وليس بداريا رحبي غيره وغير ولده" يعني من ولد (رحب بن بكر بن حلوان). ويقول في آخر ترجمة عثمان بن مرة: (وليس بداريا غرس غيره وغير ولده) يعني من ولد (غرس بن خولان)، فاطلاعه على الأصول الأولى للأسر التي عايشها بداريا وما تناسل منها إلى زمنه وما انقطع التناسل منها اطلاع جيد.

وقد عرفنا من تاريخه هذا أن سكان داريا بقوا في عقابيل قبلية حتى المئة الرابعة للهجرة فمسجد لغسان، ومسجد لخولان، ومقبرة لخولان، وقد أمّ أبو مسلم الخولاني الخولانيين في مسجد خولان ستين سنة.

كما عرفنا بعض المعلومات الاجتماعية؛ فقد استدلّ على نزول الأسود بن أصرم المحاربي داريا بـ"قطائع له بها تعرف به إلى اليوم" كما أن القوم ألفوا إلى جانب القطائع نظام الأوقاف؛ فهذا سليمان بن حبيب المحاربي قاضي الخلفاء (ـ 126هـ) وقف أوقافاً على مساكين أهل داريا تجري غلتها إلى زمن المؤلف".

وفي محاولة لاستقراء منهج أستاذنا الأفغاني في التحقيق أقول:

إنه يهتم بكل ما في المخطوط من إشارات وكلمات وحروف توزعت هنا وهناك، تارة في الهوامش، وأخرى فوق الأسطر، وثالثة في مقدمة المخطوط أو في آخره، وكان ينقل كل ذلك في هامشه، فقد نقل لنا في ص49 سماعاً وجده على صفحة غلاف الكتاب. فإن غمض عليه من الكلمات المكتوبة شيء وضع مكانها... نقاطاً ليدل على هذا الغموض، ويشير كذلك إلى الأسطر الفارغة كما في ص51، وإلى قراءات الكتاب إن وجدت كما في ص62.

وأما مقابلة النسخ فهو أمر هام وأساسي عنده، فهو ينقل فروق النسخ ويثبتها في هامش المطبوع، بل ويبين بداية كل نسخة ونهايتها ص51.

وهو رحمه الله لا يرمز إلى النسخ برموز، بل يسميها باسمها فيقول (في نسخة لندن) أو (في الأصل)، أو (في النسختين)، وهذا غير ما درج عليه المحققون في عصرنا من تسمية كل نسخة بحرف للتخفيف على الحواشي.

ودقته في مقارنة النسختين وإثبات ذلك في الحواشي أمر واضح في تحقيقه، فإذا وجد نقصاً في الأصلين استدركه بين حاصرتين وأشار إلى ذلك في الهامش انظر ص58 ـ59، وإن وجد أن النسختين أجمعتا على خطأ، ترك الخطأ في المتن وأشار في الهامش إليه وإلى وجه الصحة فيه.

وقد أولى الأعلام عناية خاصة، فهو يترجم لهم ذاكراً المصدر الذي نقل الترجمة منه، فإذا أعيته الترجمة ولم يجدها أشار إلى ذلك في الهامش قائلاً: (ولم أعثر على ذكر له في كتب الرجال لا في ترجمة خاصة ولا في ذكر من روى عنه...الخ) انظر ص60.

وقد أدرك العلاقة بين هذا الكتاب وكتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وتحدث عن ذلك في مقدمته، ولكنه أضاف إلى ذلك أمراً آخر وهو مقارنة نصوص الخولاني على نصوص ابن عساكر،

فإن وجد خلافاً أثبته في هامش مطبوعه، وهذا الأمر واضح في كل الكتاب (انظر ص61).

ولا يجد حرجاً في أن يذكر في حواشيه فائدة أفادها من شخص بعينه أو كتب له مشيراً بالصواب، كما فعل في ص90 فقد مرّت به عبارة: (الشايم إحدى المرايش) في نسخة تونس، وفي نسخة لندن (السايم إحدى للراليس). قال: ولم أهتد إلى الصواب مع بحثي في كتب الرجال والأنساب والاشتقاق.... ثم كتب إلي المستشرق سالم الكرنكوي (فريتز كرنكو) في 1950/11/21 بعد اطلاعه على الطبعة الأولى يرى أن صوابها (أحد بني الرائش) يعني من نسل الحارث الرائش أحد ملوك اليمن القدماء.

وحين تقرأ تعليقاته تشعر أنك أمام عمل عالم كبير، وتقف على علم غزير لا يحده اختصاص.

اقرؤوا معي إذا شئتم هذا التعليق في ص94:

(5) في الأصل: (المزني) فأثبتنا ما في نسخة لندن. هذا وقد استدرك ابن عساكر على البخاري ومسلم خطأهما في ضبط هذا العلم. قال: "حديث لا تزال عصابة بدمشق ظاهرين..." كذا أخرجه البخاري في باب (حسان) وأخطأ فيه في ثلاثة مواضيع:

1 ـ في قوله (حسان) وهو (حيان)

2 ـ وفي قوله (النمري) وهو (المري) كما ترجمناه وهو الموفق...

أو كقوله في ص100:

(3) هما مكحولان....

وهو يشرح الألفاظ الغريبة بأسلوب سهل بسيط يصل إلى فهم من يقرؤه. ولكنه لا يوثّق نُقوله، لا عن تقصير منه، وإنما لأنها كانت هي العادة المتبعة بين المحققين في تلك الأيام على عكس أيامنا.

وهو كذلك يعرّف بالبلدان، ويحدّد مكانها، معتمداً على كتب البلدان، وبخاصة معجم البلدان لياقوت الحموي وغوطة دمشق لمحمد كرد علي. بل إنه يضيف إلى ذلك ما هي عليه اليوم. كقوله في ص96 عن (أذرعات): "مركز محافظة حوران اليوم وقد خففت في اللفظ مع مرور الزمن إلى (درعا) لكن الحوارنيين يلفظونها (درعات) تقع إلى الجنوب من دمشق".

وهو يوثّق مصادره في الهوامش مكتفياً بذلك لعدم وجود قائمة بالمصادر والمراجع في آخر الكتاب:

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الفهرس الذي أعده الأفغاني رحمه الله للكتاب، فقد جعله في مسردين: أما الأول فأسماه "المسرد العام بأعلام الناس والأماكن والكتب والأيام، فقد ضم بذلك أربعة فهارس جعلها في فهرس واحد، فخفف على الناس مؤونة تقليب الصفحات والتفتيش عن المطلوب في أكثر من فهرس.

ورغم أنه عدد في عنوان مسرده أربعة فهارس هي الأعلام والأماكن والكتب والأيام، فإنه أضاف إلى ذلك ــ في الحقيقة ــ أشياء أخرى لم يذكرها في العنوان كفهرس الأقوام والقبائل، وفهرس آخر لا يدخل في هذه الفهارس، وأورد منه قوله: (روايات ساكني داريا) فيما أسميته بعد ذلك في فهارسي بفهرس الفوائد ولعل هذه بذرته.

والمسرد الثاني (مسرد الكتاب) وهو عبارة عن فهرس لموضوعات الكتاب: أبوابه وفصوله وفقراته، وهذا المسرد هو آخر الكتاب ونهايته.

رحم الله أستاذنا سعيداً الأفغاني رحمة واسعة، وغفر له وجعل الجنة مثواه.

□□□

عبقريَّة العلاَّمة المُجتهد
سعيد الأفغانيّ
في الاحتجاج

عدنان عمر الخطيب*

المُلخّص: *أردنا في هذا المقال أن نقف القارئ الكريم على* **مفهوم الاحتجاج عند** *الأستاذ العلاّمة سعيد الأفغانيّ، وذلك من خلال كتابه: "في أصول النَّحو"، مُسلِّطين الضَّوء بشكل خاصّ على ما أوضحه الأستاذ بقوَّة؛* **ألا وهو ضرورة الاحتجاج** *بالحديث الشَّريف والقراءات القرآنيَّة؛ لأنَّهما أوَّلاً وآخراً أعلى رتبة* **من كلام العرب** *عُمدة علماء النَّحو في الاحتجاج، مهما بلغ هذا الكلام بياناً وضبطاً... وكذا إضافته لجملة من القواعد النَّاجعة في الاحتجاج، يمكن أن يكون لها دورها في تطوير بعض القواعد النَّحويَّة أو تهذيبها أو حذفها...*

***

لا أنكر باديء ذي بدء أنَّني حين وقفت على دعوة مجلّة التُّراث العربيّ الغرّاء في عددها: 88/ 2002م للسَّادة الكُتَّاب إلى أن يكتبوا عن علاّمة النّحو سعيد الأفغانيّ- أقول: لا أنكر أنّني تشوَّفت بداية للحديث عن سيرة هذا العلم الفذّ وآثاره الجليلة المطبوعة، ولا سيّما أنّني قرأت في كثير منها، سواء أكانت المؤلّفة أم المُحقّقة، فعرفت فيها صورة العالم بالنّحو واللّغة والأدب والتّاريخ والقراءات... وحقّاً شرعت في البحث عن الكتب التي تناولت الأفغانيَّ علماً من أعلام القرن العشرين، شأنه في هذا شأن أعلام سالفين، كتب عنهم أهل التَّراجم ما كتبوا، فوقفني البحث على غير كتاب في هذا المضمار، كـ: غُرَر الشّام لعبد العزيز الخطيب الحسني، ومعجم المؤلّفين السُّوريّين لعبد القادر عيّاش، وإتمام الأعلام للدكتور نزار أباظة ومحمّد رياض المالح... والناظر

* مدرس ومحقق في التراث.

في هذه الكتب أدنى نظر يجد الحديثَ المُوجز المُحكم عن هذا الرَّجل وآثاره، ولا غَرْوَ في الإيجاز؛ ذلك أنَّ هذه الكتب لا تضمّ بين دفَّتيها الأفغانيَّ فحسب، بل أعلاماً آخرين كُثراً، لهم نصيبهم أيضاً في هذه الكتب، فرأيت -والحالة هذه- أن أُدلي بدلوي، فأُعرِّف بالرَّجل حقَّ التّعريف، مُستدركاً على السَّابقين ما أرى وجوب استدراكه، بحيث تكون ترجمة هذا العلم ضافيةً، هذا مع استمرار البحث عن مزيد من الكتب يمكن أن تقفنا على جديد في سيرة هذا الرَّجل الذي كان له في حياة العلم والعلماء ما كان، فأُضيفه إلى ما شرعت في كتابته، وحقّاً قادني استمرار البحث إلى غيث عَميم، غيث غيَّر مسار البحث كلّه، إنّه كتاب أستاذنا الفاضل الدُّكتور مازن المبارك[1]: "سعيد الأفغانيّ حامل لواء العربيَّة وأستاذ أساتيذها" المطبوع في دار القلم بدمشق طبعة أولى سنة 1423هـ/ 2002م، والواقع في 150 صفحة من القطع الصَّغير. فلقد قرأت هذا الكتاب برُمَّته، فوجدته حقّاً الكتاب كلّ الكتاب في الأفغانيّ سيرةً وآثاراً، كيف لا؟ وقد قال مؤلّفه في المقدّمة: "وأنا اليوم أكتب عن رجل علَّمني علماً، ولقَّنني حكمة، وأفادني تجربة. أكتب عن رجل علَّم، وألَّف، وحقق، ونشر، ونثر عاطفته وشعوره في كثير ممَّا كتب. أكتب عن رجل كان هواه مع العربيَّة والإسلام لغةً وثقافةً وعقيدةً وسلوكاً. أكتب عن رجل صحبته نصف قرن تلميذاً وصديقاً وزميلاً، فما آذتني منه كلمة، ولا آذاني منه سلوك. إنّني أكتب اليوم عن أستاذي (سعيد الأفغانيّ) رحمه الله وأجزل مثوبته. وسأكتب مُتمثّلاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذا قلتم، فاعدلوا، ولو كان ذا قُربى﴾ (الأنعام: 152).."[2].

وحقّاً صدق الرَّجل فيما كتب، فوقفنا بداية على ولادته ونشأته، ثمّ رحلته العلميَّة، فحياته الاجتماعيَّة، فحديث خاصّ عن رفيق عمره وعديله عليّ الطّنطاويّ[3] صاحب كتاب الذّكريات الواقع في ثمانية أجزاء، وفيها كتب عن الأفغانيّ الكثيرَ الكثيرَ، وقد أفاد الدُّكتور المبارك ممَّا كتب؛ ذلك أنَّ في الذّكريات عن الأفغانيّ ما يجهله كثير من النَّاس، كذا الفصل الأوّل. وفي الثّاني تعريف بمؤلّفاته وتحقيقاته وبحوثه ومقالاته وأحاديثه الإذاعيَّة، ذاكراً أماكن طبع هذه الآثار بداية، ثمّ تعريفاً موجزاً بها، مُنهياً الفصلين بخاتمة فملحق بالوثائق الهامَّة التي لا يقع عليها إلّا من عرف الأفغانيّ حقّ المعرفة، كتلميذه المبارك الذي وقفنا على كثير ممَّا نجهله في حياة هذا الرَّجل الكبير الذي عاشره كما قال خمسين سنة.

إنَّ هذا الكتاب معضوداً بذكريات الطّنطاويّ دفعاني إلى تغيير وجهة الدّراسة والبحث، فلا مجال للحديث عن الأفغانيّ سيرةً وآثاراً بعد أن قدّم لنا الرَّجلان الفاضلان عنه ما لا أستطيع أن

---

[1] أستاذ جامعيّ. وباحث ومُحقّق معروف من دمشق. ترك لنا آثاراً نافعة في التأليف والتّحقيق، فمن تواليفه: نحو وعي لغويّ، والنّحو العربيّ، والموجز في تاريخ البلاغة، والرُّمّانيّ النحويّ في ضوء شرحه لكتاب سيبويه... ومن تحقيقاته: مُغني اللّبيب لابن هشام (بالمشاركة)، ورسالة المباحث المرضيّة لابن هشام، واللّامات للزّجّاجيّ...

[2] سعيد الأفغانيّ/ 5-6.

[3] هو عليّ بن مصطفى بن أحمد الطّنطاويّ. العالم الفقيه، الأديب الخطيب، المحدّث الثّائر، المدرِّس القاضي الرّحّالة. ترك لنا آثاراً، نذكر منها: الهيثميّات (مقالاته وأبحاثه في مطلع شبابه)، وصور وخواطر، وفصول إسلاميّة... مات سنة 1419هـ/ 1999م. (سعيد الأفغانيّ/ 38-46، وعبقريّات وأعلام/ 281-293).

أقدّمه، فرأيت –والحالة هذه– أن أعود أدراجي إلى كتاب طالما قرأت فيه قبلُ وأفدت منه، إنّه كتاب سعيد الأفغانيّ الموسوم بـ: "في أصول النحو" واقفاً ودارساً لظاهرة وجدت فيها شخصية الأستاذ الأفغانيّ المُجتهدة المُتفرّدة بآراء جهر بها بقوّة دونما وَجَل؛ إنّها الاحتجاج أحد أصول النّحو الهامّة والأولى؛ فللأفغانيّ مواقف ثابتة في الاحتجاج، ولا سيّما في القراءات والحديث النّبويّ، تكشف لنا النّقاب عن عبقريّة فذّة واجتهاد علميّ يقوم على المنهج السّديد في البحث والدّراسة وطرح الأدلّة.

على أنّ تغيير وجهة الدّراسة والبحث إلى ما ألمعت إليه قبلُ لا تعفينا منهجيّاً من التّعريف بداية بالرّجل وآثاره عامّةً التّعريف الموجز المُحكم الذي يقف القارئ على أدنى ما يجب معرفته عن هذا العلم الكبير الذي خدم في القرن العشرين الثّقافة العربيّة عامّةً واللّغة العربيّة خاصّة؛ على أنّ من أراد الإفاضة عليه بكتابي الدّكتور المبارك وعليّ الطّنطاويّ.

1–سعيد الأفغانيّ: حياته، وآثاره: هو محمّد سعيد بن الحاجّ محمّد جان الأفغانيّ[1]، ولد في حيّ من أحياء دمشق القديمة، هو حيّ العمارة الجوّانيّة سنة 1327هـ/ 1909م، وبدأ تعليمه الرّسميّ منذ طفولته في مدرسة الأمينيّة والإسعاف الخيريّ، وكانتا مدرسة واحدة آخر العهد التّركيّ، ثمّ دخل مدرسة التّطبيقات، حيث أتمّ دراسته الابتدائيّة، فمدرسة التّجهيز فدار المعلمين (مكتب عنبر)، متابعاً فيهما دراسته الإعداديّة والثّانويّة، ثمّ التحق بمدرسة الآداب العليا في الجامعة السّوريّة سنة 1928م، وهو العام الذي عيّنه فيه وزير المعارف الأستاذ محمّد كُرد علي[2] مُعلّماً في مدرسة منين الابتدائيّة، ثمّ انتقل إلى غير مدرسة، حتّى استقرّ عام 1941م مُدرّساً في مدرسة التّجهيز الأولى بدمشق (ثانويّة جودة الهاشميّ اليوم).

وفي عام 1946م أُرسل الأستاذ سعيد الأفغانيّ إلى القاهرة للتّحضير لدرجة الدّكتوراه، وعنوان رسالته التي وافقت عليها جامعة فؤاد الأوّل عام 1948م: "أدب الشّام السّياسيّ في عصر الأمويّين" كذا بعد أن وافقت الجامعة المذكورة على أبحاث له سابقة، ورأت فيها أنّها تُعادل الماجستير، ولكنّ الأستاذ الأفغانيّ لم يتابع العمل في بحث الدّكتوراه، وعاد إلى دمشق، مُنقطعاً لتدريس اللّغة العربيّة في كلّية الآداب، وتدرّج في وظائفها: أستاذاً مُساعداً (1948م)، ثمّ أستاذاً بلا كرسي (1950م)، ثمّ أستاذ كرسي اللّغة العربيّة (1957م)، ثمّ عميداً لكلّية الآداب (1961م–1963م). وأُحيل على التّقاعد آخر سنة 1968م.

---

[1] انظر سعيد الأفغانيّ في: معجم المؤلّفين السّوريّين /37-38، وغُرَر الشّام 925/2، وإتمام الأعلام/ 109، وموسوعة أعلام سورية 139/1، والذّكريات لعديله ونسيبه الطّنطاويّ في غير جزء من أجزاء الكتاب، وسعيد الأفغانيّ للدّكتور مازن المبارك. وانظر كذلك مقال: "ورحل الأستاذ سعيد الأفغانيّ" للدّكتور محمود الرّبداويّ في: مجلّة الفيصل- ع: 246/ ص: 98-99.

[2] هو محمّد بن عبد الرّزّاق بن محمّد كُرد عليّ، أحد كبار الكُتّاب في عصره أدباً ولغةً وتاريخاً وفكراً إسلاميًّا واضحاً. ولي غير منصب: رئاسة المجمع العلميّ العربيّ بدمشق، وتحرير جريدة الشّام الأسبوعيّة وجريدة الرّائد المصريّ وجريدة الظّاهر... مات سنة 1372 هـ/ 1953م، بعد أن ترك لنا آثاراً نافعة، ومنها: خطط الشّام، وغابر الأندلس وحاضرها، وأمراء البيان... (الأعلام 202/6-203، وأعلام دمشق في القرن الرّابع عشر الهجريّ /387-388).

وهنا تحسن الإشارة إلى أنَّ الأفغانيّ -رحمه الله- كان قد كُلِّف بالإضافة إلى عمله الجامعيّ القيام بدروس التَّطبيقات العمليَّة في المعهد العالي للمعلِّمين لعدَّة سنوات، كما دعته بعد تقاعده غير جامعة للتَّدريس فيها ولرئاسة القسم ووضع المناهج، وكان آخر هذه الجامعات جامعة الملك سعود بالرِّياض، حيث درَّس فيها حتَّى بلغ الخامسة والسَّبعين من العمر، ثمّ عاد إلى دمشق، مُخلداً إلى الرَّاحة بعد رحلة علميَّة طويلة، توزَّعت بين التَّدريس والتَّأليف، ولكنّ ابنته المُقيمة مع زوجها في السُّعوديَّة اصطحبته من جديد إليها، وفيها توفِّي -رحمه الله- سنة 1417هـ /1997م عن عمر قارب ثمانية وثمانين عاماً.

نعم رحم الله رجلاً فذّاً كلَّ الرَّجل، درَّس وألَّف، وليت هذا فحسب، بل شارك في غير ندوة ومؤتمر، مُلقياً فيهما غير محاضرة، كما كانت له اليد الطُّولى في غير مجمع لغويّ: المجمع العلميّ العراقيّ، ومجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة.

ولا شكَّ بعدُ أنَّ أستاذاً جليلاً كالأفغانيّ لم يكن ليبلغ هذه المراتب العليَّة، لولا علماء أجلّاء كان لهم الدَّور في صنع هذا الرَّجل الفذّ، وحسبنا أن نذكر منهم: أبا الفلاح صالحاً الشَّريف التُّونسيّ[1]، ومحمَّد نجيب بن حسن كيوان[2]، وبدر الدين محمَّد بن يوسف بن عبد الرَّحمن المغربيّ المَرَّاكشيّ السِّبْتيّ الحَسَنيّ[3]، وأحمد النّويلاتيّ[4]، وعبد الله المُنجِّد[5]، وعبد القادر بن محمَّد سليم الكيلانيّ الشّهير بالاسكندرانيّ[6]، وأحمد بن أحمد سليم قُوَيْدر العَرْبِينيّ[7]... وغيرهم كثير.

وأمَّا آثاره المطبوعة في التَّأليف والتَّحقيق ومقالاته وأحاديثه الإذاعيَّة فقد عرض لها الدُّكتور مازن المبارك في كتابه القيِّم عن أستاذه بما فيه المقنع والكفاية، وحسبنا في هذا المقام أن نجتزئ

---

[1] عالم كبير ومُجاهد. درَّس وقرأ الكتب العالية، وصار من أعيان شيوخ الطَّبقة الأولى. ثمّ رحل إلى المشرق، وطاف البلاد. وأقام بدمشق، وفيها ظهر علمه وفضله. مات سنة 1338هـ/ 1919م. (أعلام دمشق في القرن الرَّابع عشر الهجريّ/ 141).

[2] إمام في جامع نور الدِّين الشَّهيد. العالم الفقيه، الحنفيّ الحافظ. الوَرِع المتوفّى سنة 1352هـ/ 1934م. (أعلام دمشق/ 299-300).

[3] المُدرِّس، والعالم بالفقه والمنطق والنَّحو والبلاغة والأدب. والمُحدِّث الأكبر، وشيخ الشَّام، وإمام المسلمين في عصره، ومُجدِّد القرن الرَّابع عشر للهجرة. آثاره غزيرة، ومنها: حاشية على تفسير الجلالين، وشرح على صحيح البُخاريّ، وشرح على شذور الذَّهب، وحاشية على الشَّمسيَّة في المنطق، وحاشية على المُطَوَّل في علم البلاغة... مات سنة 1354هـ/ 1935م. (الأعلام 7/157-158، وأعلام دمشق /243-246).

[4] عالم واعظ، ومُصلح فاضل، ومُدرِّس في جامع بني أميَّة، حفظ القرآن الكريم، والقراءات العشر. مات سنة 1357هـ/ 1938م. (أعلام دمشق /28-29، وسعيد الأفغانيّ/ 15).

[5] شيخ قرّاء البلاد الشَّاميَّة في عصره، الثِّقة المُتقن، الحافظ الضَّابط، صاحب كتاب: نزهة النَّظر في القراءات الأربعة عشر. مات سنة 1359هـ/ 1940م. (أعلام دمشق/ 194).

[6] العالم بالأدب والبلاغة والعروض والعقيدة والمعقولات، نذكر من آثاره: مورد الصَّفا في شمائل المُصطفى، والتَّرصيع في علم المعاني والبيان والبديع، والجوهر المعروض في علم العَروض... مات سنة 1362هـ/ 1943م. (أعلام دمشق/190).

[7] العالم بالفقه والعربيَّة، العفيف الورع، الحافظ للقرآن، المُدرِّس والإمام في دار الحديث بدمشق. مات سنة 1390هـ/ 1970م. (أعلام دمشق/ 7).

بذكر أشهر كتبه في التَّأليف والتَّحقيق، على تقدير أنَّ من أراد التَّوسُّع يمكن له أن يجد ضالَّته في كتاب المُبارك المُلمَع إليه[1]:

1. أسواق العرب في الجاهليَّة والإسلام.
2. الإسلام والمرأة.
3. عائشة والسِّياسة.
4. في أصول النَّحو.
5. نظرات في اللُّغة عند ابن حزم.
6. الإغراب في جَدَل الإعراب. ولُمَع الأدلَّة لابن الأنباريّ. (تحقيق).
7. حُجَّة القراءات لابن زَنْجَلَة. (تحقيق).
8. مُغني اللَّبيب عن كُتُب الأعاريب لابن هشام الأنصاريّ. (تحقيق بالمُشاركة).

... وهكذا.

2-مفهوم الاحتجاج عند الأستاذ العلاَّمة سعيد الأفغانيّ: الاحتجاج أحد أصول النَّحو المُهمَّة، وقد عرض له الأستاذ العلاَّمة الأفغانيّ في كتابه الموسوم بـ: "في أصول النَّحو" بشيء من التَّفصيل القائم على المنهج العلميّ السَّديد، المشفوع بالأمثلة الكثيرة التي تجعل البحث على درجة عالية من الصَّواب، فضلاً عن تفرُّده بنظرات خاصَّة في الاحتجاج بالحديث الشَّريف والقراءات القرآنيَّة، ولا سيَّما الشَّاذَّة منها. فماذا عن هذا الأصل من أصول النَّحو عند الأفغانيّ؟

أقام الأستاذ الأفغانيّ بحثه القيِّم في الاحتجاج على جملة من النِّقاط الهامَّة التي استوفت هذا الأصل النَّحويّ خير استيفاء، وذلك وَفْقَ المنهج الآتي:

1- شرع بدايةً بمقدِّمة تاريخيَّة، جعلها مفتاحاً لبحثه؛ عرَّف فيها الاحتجاج، فقال: "يُراد بالاحتجاج هنا إثبات صحَّة قاعدة أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقليّ صحَّ سنده إلى عربيّ فصيح سليم السَّليقة"[2].

ثمّ التفت إلى الأسباب الدَّاعية للاحتجاج، فرأى في اللَّحن الباعث الأوَّل على ذلك نتيجة اختلاط العرب بالأعاجم إثر الفتوح، عارضاً للحوادث التَّاريخيَّة للَّحن عرضاً قام على جانب من التَّفصيل الواضح في المتن والحواشي على حدٍّ سواء، مُفيداً في ذلك من أمَّهات المصادر في تراثنا العربيّ، كـ: الخصائص لابن جني، والمُزهر للسُّيوطيّ، ومعجم الأدباء لياقوت، والأضداد لابن الأنباريّ، وعيون الأخبار لابن قُتيبة، والأغاني للأصفهانيّ... ومن الأمثلة التي عرض لها مُتوالية قوله: "ومرَّ عمر برجلين يرميان، فقال أحدهما للآخر: أسبتُ، فقال عمر: "سوء اللَّحن أشدُّ من سوء الرَّمي".

[1] سعيد الأفغانيّ/ 49-128.
[2] في أصول النَّحو/ 6.

فجعل إبدال الصَّاد سيناً من اللَّحن.

وتكـاد قصَّة بنت أبي الأسود تكون المَعْلَم المشهور في تاريخ النَّحو، فقد دخل عليها أبوها في وَقْـدَة الحَـرّ بالبصـرة، فقالت له: يا أبتِ، ما أشدُ الحرّ! رفعت أشدّ، فظنَّها تسأله وتستفهم منه: أيُّ زمان الحرّ أشدُّ؟

فقال لها: شهرا ناجر[1] ، فقالت: يا أبتِ، إنَّما أخبرتك، ولم أسألك.

ونـتقدَّم خطـوةً مـن الزَّمن، فيقصُّ علينا ابن قُتيبةَ أنَّ رجلاً دخل على زياد، فقال له: إنَّ أبينا هلـك، وإنَّ أخينـا غصبنا من ميراثنا من أبانا" فقال زياد: "ما ضيَّعتَ من نفسك أكثر ممَّا ضاع من مـالك"... وروى الجـاحظ أنَّ أوَّل لحن سُمع بالبادية: هذه عصاتي (بدل عصاي). وأوَّل لحن سُمع بالعراق: حَيِّ على الفلاح (بكسر الياء بدل فتحها).

ثمَّ شاع في العصر الأمويّ، حتَّى تطرَّق إلى البُلغاء من الخلفاء والأمراء كعبد الملك والحجَّاج، والنَّاس يومئذ تتعاير به، وكان ممَّا يُسقط الرَّجل في المُجتمع أن يلحنَ، حتَّى قال عبد الملك –وقد قيل له: أسرع إليك الشيب–: "شيَّبني ارتقاء المنابر مخافةَ اللَّحن. وكان يقول: إنَّ الرَّجل يسألني الحاجةَ، فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن، انصرفت نفسي عنها. وكان يرى اللَّحن في الكلام أقبح من التَّفتيق في الثَّوب النَّفيس"[2].

والأستاذ الأفغانيّ لم يعرض للأمثلة الكثيرة في اللَّحن عبثاً، بل كان ذلك محاولةً منه لتبيان "ما اخـتطَّ أهـل العربـيَّة مـن خطـط يُعالجون بها استفحال الدَّاء، وهل كانوا إلى الشدَّة حين شرطوا للاحـتجاج تلك الشُّروط التي أسقطت الاحتجاج بكثير من كلام العرب حتَّى في زمن الجاهليَّة؟"[3]. هذا ما ستظهره نقاط الدِّراسة بعدُ.

2-درس الأستاذ الأفغانيّ العلوم التي يُحتَجُّ لها، فرأى أنَّها تمثَّلت في جانبين هامَّين، هما: اللُّغة والنَّحو والصَّرف (غرض لفظيّ)، والمعاني والبيان والبديع (غرض معنويّ)[4].

3-إذا كانت اللُّغة والنَّحو والصَّرف والبلاغة ببيانها وبديعها ومعانيها هي العلومَ التي يُحتجُّ لها، فمن يُحتجُّ به لهذه العلوم السَّالفة الذِّكر؟

يجيب الأستاذ الأفغانيّ قائلاً: "إنَّه يُحتجُّ بقول من يُوثَق بفصاحته وسلامة عربيَّته"[5]. ثمَّ هو من حيث الزَّمن كلّ عربيّ جاهليّ وفصيح إسلاميّ حتَّى مُنتصف القرن الثَّاني الهجريّ. أمَّا إذا كان من الشُّـعراء، فـلا يُحـتجُّ بشـعره إلاّ إذا كان جاهليًّا محضاً، أو مُخضرماً عاش في الجاهليَّة وأدرك الإسـلام، أمَّا الإسلاميّ المحض فقد وقفنا الأفغانيّ على اختلاف العلماء في الاحتجاج بشعره، وقَرنَ

---

[1] هما شهرا رجب وصفر. (المعجم الوسيط: نجر).
[2] في أصول النحو/8-10.
[3] المرجع السابق/15.
[4] المرجع السابق/16-18.
[5] المرجع السابق/19.

ذلك برأي البغداديّ في خزانته، وقد أجاز البغداديّ الاحتجاج بشعر الإسلاميّ. أمَّا الشَّاعر إذا كان مُولَّداً –وأوّل المُولَّدين بشّار بن بُرْد– فلا يُحتجُّ بشعره بالاتّفاق إلاّ في المعاني[1].

وأمَّا من حيث المكان فرأى العلماء أنَّ الاحتجاج يجب أن يكون بكلام القبائل التي في قلب جزيرة العرب، كـ: قريش، وقيس، وتميم، وأسد، وهُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطَّائيِّين، وردُّوا كلام القبائل التي على السَّواحل أو في جوار الأعاجم، كـ: لَخْم، وجُذام، وقضاعة، وغسّان، وإياد، وتغلب، والنَّمِر، وبكر، وعبد القيس، وأزْد عُمَان، وأهل اليمن، وبني حَنيفة، واليمامة، وثقيف، والطَّائف، وحاضرة الحجاز[2].

وأمَّا أحوال هؤلاء العرب المُحتجّ بهم فخيرها ما كان أعمق في التَّبدِّي وألصق بعيشة البادية، وهم أهل الرِّعاية والصَّيد واللُّصوصية: قلوبهم قاسية، ونفوسهم قويَّة، عزيزو الجانب، شديدو الحميَّة، أخلاقهم جافَّة، لا يحتملون ضيماً أو ذلَّة[3].

إنَّ هذه الضَّوابط القاسية من حيث الزَّمانُ والمكان والأحوال هي التي دفعت العلماء كما يقول الأفغانيّ إلى إسقاط الاحتجاج بشعر شعراء معروفين من أمثال: أُميَّة بن أبي الصَّلت، وعَديّ بن زيد العِباديّ، بل الأعشى –وهو من هو– عند بعضهم، في حين أنَّ من العلماء من احتجَّ بقول الإمام الشَّافعيّ، وهو المُتوفَّى سنة 204هـ لتحقُّق الشُّروط السَّالفة الذِّكر فيه[4].

4-إذا كان الأفغانيّ عرض قبلُ لمن يُحتجُّ بعربيَّته وما شرط العلماء في ذلك زماناً ومكاناً وأحوالاً، فإنَّه أتبع ذلك بما يُحتجُّ به، وهو عنده –كما العلماء قبلُ– ثلاثة أقسام: القرآن الكريم، والحديث الشَّريف، وكلام العرب.

أ-أمَّا القرآن الكريم فهو النَّصّ الصَّحيح المُجمع على الاحتجاج به في اللُّغة والنَّحو والصَّرف وعلوم البلاغة، وكذا القول في قراءاته الواصلة إلينا بالسَّند الصَّحيح وطرقه المُختلفة في الأداء؛ ذلك أنَّها مرويَّة عن الصَّحابة وقُرَّاء التَّابعين، وهم جميعاً ممَّن يُحتجّ بكلامهم العاديّ، بَلْهَ قراءاتهم التي تحرَّوْا ضبطها كما سمعوها من رسول الله (ص)[5].

ثُمَّ التفت إلى القراءة الشَّاذَّة التي منع القُرَّاء تلاوتها في القراءة، فرأى أنَّ ذلك لا يمنع من الاحتجاج بها في اللُّغة والنَّحو؛ لأنَّها أقوى سنداً وأصحّ نقلاً من كلِّ ما احتجَّ به العلماء من الكلام العربيّ غير القرآن. وفي هذا المضمار يُبرز الأفغانيّ بقوَّة موقف النُّحاة الغريب من القراءات على اختلاف ضروبها؛ فهم أهملوا الاحتجاج بالقراءات لقواعد النَّحو، بل كان الواحد منهم يُطبّق القاعدة النَّحويَّة على القراءة، فإن وافقت القراءةُ القاعدةَ، فبها ونِعْمت، وإلاَّ أشار إلى علَّة القراءة وضعفها،

---

(1) المرجع السابق/ 19.
(2) المرجع السابق/ 21-22.
(3) المرجع السابق/ 24-25.
(4) المرجع السابق/ 25-26.
(5) المرجع السابق/ 28.

مع العلم أنه كان يجب على النُّحاة -والحالة هذه- أن يُصحِّحوا القاعدة النَّحويَّة على أساس تلك القراءة لا العكس، مُتناسين في ذلك أنَّ أقلَّ شروط القراءة لصحَّتها في عُرف القُرَّاء ثلاثة، وهي شروط قاسية على كلِّ حال:

1-صحَّة السَّند إلى رسول الله ﷺ.

2-موافقتها رسم المُصحف المُجمع عليه.

3-موافقتها وجهاً من وجوه العربيَّة.

وإذا كانت هذه الشُّروط القاسية ميزاناً ضابطاً للقراءة الصَّحيحة، فيجب أن نعلم أنَّ القراءة الشَّاذَّة لا تتفلَّت كثيراً من هذه الشروط؛ إذ يجب أن يتوفَّر فيها صحَّة السَّند وموافقة العربيَّة، أو أن يختلَّ التَّواتر من الشَّرط الأوَّل ليس إلاَّ، وهما شرطان كافيان لإبعاد القَدْح عن القراءة الشَّاذَّة، ولكنَّ النُّحاة لم يلتفتوا إلى هذا كلِّه، بل بَنَوا قواعدهم على كلام العرب، جامعين نُتَفاً شعريَّة ونثريَّة من هذه القبيلة وتلك، ومن أعرابيٍّ في الشَّمال وامرأة من الجنوب، ومن شعرٍ لا يُعرف قائله إلى جملة غير منسوبة، ثُمَّ يستدلُّ الأفغانيّ على هذا الاضطراب في نظم القواعد النَّحويَّة بقول الفخر الرَّازيّ في تفسيره: "إذا جوَّزنا إثبات اللُّغة بشعر مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى، وكثيراً ما ترى النَّحويِّين مُتحيِّرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول، فرحوا به، وأنا شديد التَّعجُّب منهم؛ فإنَّهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وَفْقها دليلاً على صحَّتها، فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلاً على صحَّتها كان أولى". كما استدلَّ بقول ابن حزمٍ في الفصل: "من النُّحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حُكماً لفظيًّا، ويتَّخذه مذهباً، ثمَّ تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم، فيأخذ في صرف الآية عن وجهها"[1].

ولم يكن الأفغانيّ بعدُ ليكتفي بذلك كلِّه، بل تابع بقوَّة الرَّجل العالم البصير بالعربيَّة وقواعدها، فعرض لجملة من الأمثلة الدَّامغة المُدلِّلة على تعصُّب النُّحاة وقصور استقرائهم وما نتج عنه من قواعد تحتاج إلى إعادة نظر أو تطوير أو تعديل، وحسبنا أن نعرض من هذه الأمثلة لمثال واحد مُطوَّل، يقفنا بشكل واضح على عبقريَّة الأفغانيّ الفذَّة في العرض والتَّحليل والنَّقد بجرأة لا تقوم على العشوائيَّة أو التَّخبُّط، بل على الأسس العلميَّة التي تدين المرء من فمه كما يُقال، فقال ما نصُّه: "زعم النُّحاة أنَّ العرب استغنت عن ماضي (يدع) ومصدره بماضي (ترك) ومصدره، فلم يرِدا في فصيح كلامها. وأتى بها ابن جنِّي شاهداً لضرب خاصٍّ من الكلام، فقال: "فإن كان الشَّيء شاذًّا في السَّماع مُطَّرداً في القياس، تحاميت ما تحامت العرب من ذلك، وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله، من ذلك امتناعك من (وذر) و (ودع) لأنَّهم لم يقولوهما، ولا غَرْوَ عليك أن تستعمل نظيرهما، نحو: وزن ووعد، لو لم تسمعهما. فأمَّا قول أبي الأسود:

---

[1] المرجع السَّابق /29-32. وانظر كذلك: حُجَّة القراءات لابن زنجلة /18-19 (مقدِّمة المُحقِّق)؛ وفيها يشير الأستاذ الأفغانيّ إلى أنَّه لم يكن بِدْعاً في هذا الذي ذهب إليه؛ ألا وهو الاحتجاج للنَّحو ومذاهبه وقواعده وشواهده بهذه القراءات المُتواترة، بل سبقه من العلماء الجهابذة ذوي الفكر الحرِّ المُستقلّ عددٌ استشهد بأقوال بعضهم.

ليتَ شعري عن خليلي ما الذي غالَـهُ فـي الحـبِّ حـتّى وَدَعَـهْ؟

فشاذٌ، وكذلك قراءة بعضهم: (ما وَدَعَكَ ربُّكَ وما قَلَى)".

وهم في أقوالهم هذه خارجون على أصولهم التي أصَّلوها هم أنفسهم، وإليكَ البيانَ:

أوّلاً- مـن المُـتَّفق عليه عند اللُّغويِّين والنُّحاة أنَّه لم يصل إلينا من كلام العرب إلاَّ القليل، ولو جاءنا وافراً، لجاء علم كثير، ومن المُتَّفق عليه عندهم أنَّ اللُّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح ممَّا في غير القرآن.

ثانـياً-بعـد هـذا نرى أنَّ ما ذهب إليه النُّحاة واللُّغويُّون غير صحيح؛ فقد استعمل الكلمة أبو الأسود في بيته السَّابق، ووردت في قول الشاعر:

وثَـمَّ وَدَعْـنا آلَ عمروٍ وعامرٍ فـرائسَ أطـرافِ المُـثقَّفَةِ السُّـمْرِ

والعلمـاء يُثبتون استعمال الكلمة بشاهد واحد، إذا لم تُخالف القياس، وكلمة (ودع) على ما مرَّ بـك مـن كلام ابن جنّي مُطَّردة في القياس، أمَّا قوله: "شاذَّة في الاستعمال" فيُحبطه اعتراف النُّحاة بضآلة ما انتهى إلينا من كلام العرب، وأنَّ أحكامهم عامَّةً مبنيَّة على الاستقراء النَّاقص، كما يحبطه أيضاً ورود كلمة (ودع) في شعر أبي الأسود وشعر شاعر آخر.

ثالـثاً-نأتي الآن إلى قراءة التَّخفيف في قوله تعالى: ﴿ما وَدَعَكَ ربُّكَ وما قَلَى﴾ فقد قرأها كذلك عـروة ابن الزُّبير وابنه هشام، وهما من هما، بل إنَّ الغريب في ذلك أنَّ ابن جنِّي نفسه نصَّ في كتابه المُحْتَسَب على أنَّها قراءة النَّبيِّ ﷺ.

وفـي العُباب للصَّغاني: وقد اختار النَّبيّ ﷺ أصل هذه اللُّغة فيما روى ابن عبَّاس أنَّه قرأ: "ما وَدَعَكَ" مُخفَّفةً، وكذلك قرأ عروة ومُقاتل وأبو حَيْوَةَ وابن أبي عبلة ويزيد النَّحويّ.

هـذا، وفي النِّهاية لابن الأثير... تحت مادَّة: (ودع) حديث عن النَّبيّ ﷺ فيه استعمال المصدر الذي زعموا أنَّه أُميت، وهو قوله: "لَيَنْتَهِيَنَّ قومٌ عن وَدْعِهم الجُمعات، أو ليُختمنَّ على قلوبهم".

والطَّـريف أنَّ بعـض المُحقِّقيـن ممَّـن تأخَّر زمانه عن أولئك صحَّح خطأهم، فأثبت صاحب المصـباح هـذه اللُّغـة الفصيحة في مُعجمه، واستنكر ادِّعاءهم الإماتة، فقال: "وَدَعْتُه أَدَعُهُ وَدْعاً: تركـته... وزعمـت الـنُّحاة أنَّ العرب أماتت ماضي يدع ومصدره واسم الفاعل، وقد قرأ مُجاهد وعروة ومقاتل وابن أبي عبلة ويزيد النَّحويّ: "ما وَدَعَك ربُّك" بالتَّخفيف. وفي الحديث: "لَيَنْتَهِيَنَّ قوم مـن وَدْعِهم الجمعات..." فقد رُويت هذه الكلمة عن أفصح العرب، ونُقلت من طريق القُرَّاء، فكيف يكون إماتة؟". ومثل ذلك تجده في معجم المُغْرِب للمُطَرِّزيّ.

وبذلـك تـرى تسرُّب الوَهْي إلى بعض أحكامهم؛ إذ كانت خطَّتهم ينقصها الإحكام في المنهج والكفايـة فـي الاسـتقراء معـاً، وكـان علـيهم قبل إرسالها استيعاب قراءات القرآن على الأقلّ

والاحتجاج بها"[1].

ب-الحديث الشّريف: هو أقوال النّبيّ ﷺ وأقوال الصّحابة التي تروي أفعاله وأحواله أو ما وقع فـي زمانه وكذا أقوال التّابعين[2]. ويرى الأفغانيّ بعد تعريفه الحديث أنّ المنهج الحقّ يقتضي بداهة تقديـم الحديث على سائر كلام العرب في باب الاحتجاج في اللّغة وقواعد الإعراب لفصاحته ﷺ بعد القرآن، ولكنّ علماء اللّغة والنّحو وقفوا من الحديث موقفين مُتباينين:

1-موقـف المانعيـن: ويُمثّله بقوّة أبو حيّان الأندلسيّ وأبو الحسن الضّائع والسّيوطيّ، واعتلّ هؤلاء المانعون للاحتجاج بالحديث، بأمرين:

أ-جـوُز الـرُواة النّقل بالمعنى، فأصبح للحديث غير رواية، ومن المُحال بعدُ أن تكون هذه الـرّوايات المُتباينة في اللّفظ للحديث الواحد لرسول الله ﷺ بل له رواية بعينها، أضحت على مرّ الزّمن غير معروفة نتيجة اختلاف الرّوايات فيما بعد.

ب-وقـع اللّحن كثيراً فيما روي من الحديث، ولا سيّما أنّ كثيراً من الرُّواة لم يكونوا عرباً بالطّبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النّحو.

2-موقـف المُجيزيـن: ويُمثّله علماء اللّغة الذين حشدوا في معاجمهم الأحاديث النّبويّة الكثيرة، كما يُمثّله من النّحاة: ابن فارس، وابن جنّي، وابن خروف، والسُّهَيْليّ، وابن بَرّيّ.

ثـمّ يقفـنا الأفغانـيّ -وقد ذكر من أمر الموقفين ما ذكر- على ردود المُجيزين على المانعين بقولهم:

أ-الرّواية بالمعنى احتمال عقليّ فحسب لا يقين بالوقوع، وعلى فرض وقوعه فالمُغيِّر لفظاً بلفظ في معناه عربيّ مطبوع، يُحتجّ بكلامه في اللّغة.

ب-وأمّـا اللّحن في الحديث فقليل جدًّا، لا يُبنى عليه حكم، و قد تنبّه إليه النّاس، وتحامَوه، ولم يحتجّ به أحد، ولا يصحّ أن يُمنع من أجله الاحتجاج بهذا الفيض الزّاخر من الحديث الصّحيح[3].

إذاً يرى الأستاذ الأفغانيّ من خلال ما تقدّم ضرورة الاحتجاج بالحديث الصّحيح، مُؤيِّداً في هـذا كلّه ما وصل إليه العالم الثّبت المُتروّي القاضي محمّد الخضر حسين[4] في الاحتجاج من نتائج مُرضية، يُمكن لنا تلخيصها بالنّقاط التّالية:

---

(1) المرجع السّابق/33-36.

(2) المرجع السّابق/46.

(3) المرجع السّابق/46-52.

(4) من أعضاء المجمعين العربيّين بدمشق والقاهرة، وممّن تولّوا مشيخة الأزهر، والقضاء ببيروت، وغيرهما من المناصب الجليلة. مات سنة 1377 هـــ/ 1958م، وله من الآثار: حياة اللّغة العربيّة، والخيال في الشّعر العربيّ، والدّعوة إلى الإصلاح... (الأعلام 6/ 113-114).

أ-من الأحاديث ما يجب الاحتجاج به في اللُّغة والقواعد، وهو على ستة أنواع:

1-ما يُروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته ﷺ، كقوله: "حَمِيَ الوَطيسُ"، وقوله: "مات حَتْفَ أنفه"....

2-ما يُروى من الأقوال التي كان يتعبَّد بها ﷺ، كألفاظ القُنوت والتَّحيَّات...

3-ما يُروى على أنَّه كان يُخاطب به كلَّ قوم من العرب بلغتهم.

4-الأحاديث التي وردت من طرق مُتعدِّدة، واتَّحدت ألفاظها.

5-الأحاديث التي دوَّنها من نشأ في بيئة عربيَّة خالصة، كالشَّافعيِّ وغيره.

6-الأحاديث التي رواها من لا يُجيزون الرِّواية بالمعنى، كابن سيرين وغيره.

ب-أحاديث لا يُحتجُّ بها، وهي التي لم تُدوَّن في الصَّدر الأوَّل، وإنَّما تُروى في بعض كتب المُتأخِّرين.

ج-الأحاديث التي هي مَحلّ خلاف في الاحتجاج بها، دُوِّنت في الصَّدر الأوَّل، وليست من الأنواع السِّتَّة السَّالفة الذكر، وهي نوعان:

1-الحديث الوارد على وجه واحد فالظَّاهر صحَّة الاحتجاج به.

2-الأحاديث التي اختلفت فيها الرِّواية... فنجيز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة، وأمَّا ما يجيء في رواية شاذَّة أو رواية طعن فيها المُحدِّث، فلا يُحتجُّ بها[1].

ج-كلام العرب: يشير الأستاذ الأفغانيّ في هذا الموطن إلى اقتصار العلماء على تدوين كلام القبائل الضَّاربين في وسط الجزيرة... ومن يُنعِم النظر في معاجم اللُّغة وكتب قواعدها، يجد كتب اللغويِّين أوفر حظًّا في الاستشهاد بالشِّعر والنَّثر على السَّواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة، ويجد النُّحاة يكادون يقتصرون على الشِّعر ليس إلاَّ، وقد حملوا منه على الضَّرورة الشِّعريَّة ما حملوا، مُدَّعين مخالفة أقيستهم وقواعدهم التي بنوها على استقراء ناقص جدًّا، فإذا أساس تلك القواعد غير متين من النَّاحية النظريَّة على الأقل[2]. ثمَّ يضرب في الحاشية الأمثلة الكثيرة التي تقفك على صنيع النُّحاة السَّالف الذِّكر، فمن ذلك قوله: "بل كان بعض قدماء النُّحاة لا يستشهد بشعر جرير والفرزدق والأخطل، ولا يتورَّع عن تلحينهم فيما لا ينطبق على قواعدهم؛ هذا عبد الله بن أبي إسحاق الحضرميّ -وهو مولى- يُلحِّن الفرزدق في قوله:

مُستقبلينَ شمالَ الشَّام تضربنا ... بحاصب من نديف القطن منثور

على عمائمنا تُلقى وأرحُلنا ... على زَوَاحفَ تُزجَى مُخُّها ريرِ

---

[1] في أصول النحو/55-58.

[2] المرجع السابق/59-60.

ويقـول له: "ألا قلـتَ: على زواحفَ تُزجيها مَحاسيرِ"، فيغضب الفرزدق قائلاً: والله لأهجُونَّك ببيت يكون شاهداً على ألسنة النَّحويِّين أبداً، ويهجوه بقوله:

فلـو كـانَ عـبد اللهِ مَولىً هجوتُهُ ولكـنَّ عـبد اللهِ مولـى مَوالـيا

فيسـتمر عـبد الله فـي تلحينه، ذاهباً إلى أنَّه ينبغي أن يقول: مولى موالٍ. ثمّ يخضع الفرزدق لسلطان النَّحو، فيتشوَّف إلى أن يُصلح ابن أبي اسحاق ما في شعره من خلل"[1].

5-ويختـم الأفغانـيّ بحـثه بذكر بعض قواعد العرب في الاحتجاج، وقد اقتبسها بتصرُّف من كـتاب الاقتراح للسيُّوطي[2]، ولكنَّه لا يجتزئ بذلك، بل يُعقِّب على بعض تلك القواعد تعقيب العالم البصـير الواسع الإطِّلاع الكثير المُدارسة والمُمارسة، وقد تجلَّى هذا في قوله: "هذا خلاصة ما أتى به السُّيوطيّ من قواعد في الاحتجاج، بعضه موضع نظر اليوم، وبعضه سليم لا خلاف فيه:

فأمَّـا الذي هو موضع نظر اليوم فكالقاعدة الثَّالثة[3] والسَّابعة[4]، لقد كان الأقدمون يُسجِّلون كلَّ مـا يسمعون حينئذ، ولو لُغيَّة رديئة أو لهجة ضعيفة، فكثرت الوجوه في المسألة الواحدة دون تمييز بين ما عليه أكثر العرب وما انفرد به بعضهم. والهدف اليوم التَّنظيم والتَّشذيب والأخذ بالوجه الواحد الأصحّ، فلا يُستعمل غيره إلاّ في الضَّرورات، وخيرٌ أن يُحفظ في المُطوَّلات للفائدة العلميَّة النَّظريَّة دون اسـتعمال. فلئن كان هدفهم قديماً الاستكثار من المعلومات والتَّباهي، إنَّ هدفنا اليوم تعميم اللُّغة الفصحى وتيسيرها في نظام مُنسَّق يُخفِّف ما قد يكون عالقاً بقواعدها من تطويل وتفريع وشذوذ على قلَّته.

وأمَّـا الـذي يجب أن يبقى مُنبِّهاً مُحكَّماً في امتحان كلّ قاعدة فإسقاط الاحتجاج بما يتطرَّق إليه الاحتمال، وما تأخَّر زمان صاحبه عن زمن الاحتجاج، ومجهول القائل"[5]

ويـبدو بعـدُ أنَّ دراسـة الأسـتاذ الأفغانيّ للاحتجاج بعمق دفعته إلى وضع جملة من القواعد الإضـافيَّة في الاحتجاج، يمكن أن يكون لها دورها في تطوير مفهوم الاحتجاج ودفعه خطوات إلى

---

(1) المرجع السَّابق/ 60.

(2) الاقتراح/ 58-73، وفي أصول النَّحو /62-65.

(3) مُطَّـرد في الاسـتعمال، شاذٌ في القياس، نحو قولهم: استحوذ، استنوق، استصوب، والقياس الإعلال: استحاذ. (في أصول النحو/ 62).

(4) كثيراً ما تروى الأبيات على أوجه مُختلفة، ويكون الشَّاهد في بعض دون بعض؛ رُوي قول الشَّاعر:

ولا أرض أبقلَ إبقالَها

على وجه ثانٍ:

ولا أرضَ أبقلت ابقالَها

بالـتَّذكير مـرَّةً، وبالتَّأنيث مع نقل حركة الهمزة إلى التَّاء مرَّة أخرى. فإنْ صحَّ أنَّ القائل بالتَّأنيث هو القائل بالتَّذكير، صحَّ الاستشـهاد به على الجواز من غير الضَّرورة، وإلاّ فقد كانت العرب يُنشد بعضهم شعر بعض، وكلٌّ يتكلَّم على سجيَّته التي فُطر عليها، ومن هنا تكثر الرِّوايات في بعض الأبيات (في أصول النحو/ 64).

(5) في أصول النَّحو /65-66.

الأمـام، ولا سـيَّما أنَّه رأى أنَّ صنيع النُّحاة المُتقدِّمين خامرته ثغرات واضحة، يمكن لنا أن نُجملها عنه بالنقاط التَّالية:

1-لم يصدُرِ النُّحاة في تنسيق قواعدهم عن خطَّة مُحكمة شاملة.

2-لم يدرسوا الرُّواة وأحوالهم، ومنهم الثِّقة، ومنهم غير ذلك.

3-لم يُحقِّقوا النُّصوص التي بَنَوا عليها أحكامهم: لا سنداً، ولا متناً.

4-تفـريطهم بقسم كبير من اللُّغة حين أهملوا الاحتجاج ببعض القراءات التي قُرئ بها القرآن، وكذا أهملوا الاحتجاج بالحديث النبويّ[1].

أمَّـا هذه القواعد الإضافيَّة فيمكن لنا أيضاً تلخيصها في جملة من النِّقاط التي تكشف النِّقاب عن عـبقريَّة هـذا العـالم في النَّحو، ونظراته الثَّاقبة فيه الدَّاعية إلى إعادة النَّظر في كثير من القواعد النَّحويَّة التي تحتاج إلى تشذيب أو تطوير أو حذف أو ما إلى ذلك:

1-لا يُحـتجُّ للقاعدة بكلام له روايتان مُتساويتان في القوَّة: إحداهما تُؤيِّدها، والأخرى لا علاقة لها بها؛ لاحتمال أن تكون الثَّانية هي التي قالها المُتكلِّم.

2-لا يُبـنى على شاهد قبل تحرِّيه والتَّوثُّق من ضبطه؛ إذ كثيراً ما ترد الشَّواهد في كتب النُّحاة مُحرَّفة، ويكون موضع التَّحريف هو موضع الاستشهاد على القاعدة.

3-لا يُكتفى بالكلام الأبتر؛ إذ كثيراً ما يكون داعية الخطأ في المبنى والمعنى.

4-ينبغـي الـتَّفريق بين ما يُرتكب للضَّرورة الشِّعريَّة وما يُؤتى به على السَّعة والاختيار، ففي جعل الضَّرورات الشِّعريَّة قانوناً عامَّاً للكلام نظمه ونثره الخطأ كلُّ الخطأ[2].

من خلال ما تقدَّم كلِّه نجد الأستاذ العلاَّمة الأفغانيّ وقفنا على دراسة مُحكمة مُنهجية للاحتجاج في اللُّغة العربيَّة، تخلَّلتها آراؤه الثَّاقبة، آراء العالم البصير الحاذق بالنَّحو وأصوله، داعياً إلى النَّظر بعيـن الإنصـاف لصـنيع النُّحاة المُتقدِّمين الذين بذلوا من الجهد المشكور عليه في استنباط القواعد وتبويبها ما بذلوا، ولكنَّهم حجَّروا واسعاً في بعض الأحيان حين لم يُعطوا القراءات القرآنيَّة والحديث الشَّريف حقَّهما كاملاً في الاحتجاج.

ومـن الواضح أنَّ الأستاذ الأفغانيّ لم يُطلق هذه الصَّيحة إلاَّ ليدفع بعلماء اليوم إلى استدراك ما فـات السَّلف، بحيث يخرجون بعد الدِّراسة الفاحصة بلباس للنَّحو جديد، خالٍ من الشَّوائب التي تُعكِّر صفوه، وقد تناثرت في مُصنَّفات الأقدمين هنا وهناك. والله المُوفِّق.

***

[1] المرجع السَّابق /70-46.
[2] المرجع السَّابق /66-70.

مسرد المراجع

•إتمـام الأعـلام (ذيل لكتاب الأعلام للزّركليّ): د. نـزار أباظـة، ومحمّد رياض المالح- ط1: دار صادر- بيروت 1999م.

•الأعلام: الزّركليّ- ط8: دار العلم للملايين- بيروت 1989م.

•أعـلام دمشـق في القرن الرّابع عشر الهجريّ: د. محمّـد عـبد اللّطيف صالح الفرفور- ط1: دار الملاّح، ودار حسّان، دمشق 1408هـ/ 1987م.

•الاقـتـراح في علم أصول النّحو: السّيوطيّ- تح: د. أحمـد محمّد قاسم -ط1: مطبعة السّعادة-القاهرة 1396هـ/ 1976م.

•حُجّة القراءات: ابن زنجلة- تح: سعيد الأفغانيّ- ط 5: مؤسّسة الرّسالة- بيروت 1422هـ/ 2001م.

•الذّكريات: علي الطّنطاويّ- ط2: دار المنارة- جدّة 1981م.

•سـعيد الأفغانيّ حامل لواء العربيّة وأستاذ أساتيذها: د. مازن المُبارك- ط1: دار القلم- دمشق 1423 هـ/2002م.

•عـبقريّات وأعلام: عبد الغني العطريّ- ط1: دار البشائر- دمشق 1417هـ/ 1996م.

•غُـرَر الشّـام فـي تـراجم آل الخطيـب الحُسَنيّة ومُعاصـريهم: عبد العزيز الخطيب الحُسني- ط: دار حسّـان-دمشـق 1417هـ/ 1996م. (تقديم أحمد المحاميد).

•فـي أصول النّحو: سعيد الأفغانيّ- ط: دار الفكر- دمشق 1983هـ/1963م.

•مُعجـم المُؤلّفين السّوريّين في القرن العشرين: عبد القادر عيّاش- ط1: دار الفكر- دمشق 1405هـ/ 1985.

•المُعجم الوسيط: علي النّجدي ناصف، وصحبه- ط: مكتـبة الـنّوري -دمشق- د. ت. (مصوّرة عن الطّبعة الثّالثة الصّادرة في القاهرة/ 1985م).

•موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين: سليمان سـليم البوّاب-ط1: دار المنارة -دمشق- بيروت 1999م-2000م.

المجلاّت

•مجلّـة الفيصل: الرّياض- ع: 246-1417هـ/ 1997م.

□□□

منهج الأستاذ سعيد الأفغاني

في تبسيط قواعد اللغة العربية

[في رحاب كتابه (الموجز في قواعد اللغة العربية)]

د.أيمن الشوا*

تمهيد:

مهما *اختلفت الدراسات التي تتناول العمل اللغوي، فإنها تلتقي عند نقطة مهمّة، هي أنهـا تفجّـر الثروات الكامنة في هذا العمل، وتبرز المضامين المختزنة فيه، وهذا مما يضفي على العمل اللغوي الغِنى الفكريَّ المتمثِّل بإضاءة النص وتوضيحه للقارئ.*

وإذا توجّه الحديثُ نحو قواعد اللغة العربية فإنه لا بدّ أن يجمعَ الحُسنَيَين:

أولاً: قيمة اللغة العربية وأهميتها بالنسبة للأمة العربية.

ثانـياً: جهـود العلماء الواسعة في التصنيف والتأليف للقواعد العربية، عبر العصور المختلفة. ومحاولات تيسير هذه القواعد.

أما أهمية اللغة بالنسبة للأمة فهي أكبر عامل وحدةٍ وشعور بين الناطقين بها، قديماً وحديثاً.

ويومَ أَذِنَ الله لنهضة العرب بالانبعاث قبل ستين سَنةً آمن الطليعةُ من جنودها أن أُولى مقوماتِ الأمة لغتها، فهي السلك الناظم لكلّ ما به حياتُها ورددوا مع الشاعر قوله:

لُغَـةٌ إذا وقعَـت علـى أسـماعنا ... كانـت لـنا بَـرْداً علـى الأكـباد

سـتظلّ رابطـةً تؤلـف بينـنا ... فهـي الـرجاء لـناطقٍ بالضّـادِ

وأما جهود العلماء ونحو قواعد اللغة العربية فقد ازدادت في هذا العصر كثيراً؛ ومرَدُّ ذلك إلى عواملَ متعددة، ذكر منها الأستاذ الأفغاني أبرزَها، فقال: كانت تصلنا ــ ونحن في بلاد الشام ــ في

* مدرس في جامعة دمشق

الثلاثين سنة الماضية، بينَ الفَينة والفينة، ضجّاتٌ مصطنَعةٌ، وأصواتٌ مريبة، تجتمع على التَّشكيك في صلاح اللغة العربية لحياتنا الحاضرة. وعلى الشكوى من صعوبتها، وكأنّ جهازاً مُسَيَّراً يبعث هذه الأصوات في كلّ قطر على ميعاد، وبقَدر معلوم يناسبه، ثم يرصد صداها بدقة، استعداداً لجولة ثانية، يُصلِحُ فيها من خططه ومظاهر دعايته على هَدْيِ ما رَصَدَ في الجولة السابقة.[1]

لقد ظُلم النحو العربي ظلماً ما بعده ظلم، حينما شاع القول إن النحو صعب لا يُفْهَم، ظُلِم من بعض ذوي القربى الذين توجّهوا بجهود مشتتة نحو ما يُسَمّى (تيسيرَ النحو) وكنتُ دائماً ممّن يؤمنون بأن النحو في جوهره وفي قضاياه الأساسية ليس صعباً الصعوبةَ التي تُشَاع عنه، ولكن شأنه شأن العلوم الأخرى بحاجة إلى دراسة جادة، وبحاجة إلى اعتناء وتهذيب.

وهذا البحث قد شغل أفكار كثيرين من أهل العلم فُرادَى وجماعات، وازداد الإقبال عليه في هذا العصر ازدياداً مثيراً. ففي المكتبة النحوية في غضون أربعين عاماً أَزيدُ من أربعين كتاباً اختار لها أصحابها تسميات تدل على توجُّهِهم نحو التيسير.

غاية كتاب الموجز في قواعد اللغة العربية

وراءَ هذا الكتاب غاياتٌ متعدّدة:

غاياتٌ ينشُدها طلاّبُ العلم، فقد أُلقي معظم أبحاث هذا الكتاب على طَلَبة كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، والجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية ــ وكانوا قد وجدوا فيها شوقاً لمتابعة أسرار اللغة العربية، تدبُّراً وتذوُّقاً، ليصلوا إلى سموّ بلاغتها، ورفدِ ثقافتهم بسحرِ هذه اللغة.

وغاياتٌ تنبّه كلّ ذي رُشْد في فكره وذوق في نفسه إلى أسلوب دراسة اللغة العربية، وما انحدرت إليه من الضّحالة والسّطحية، والضّعف، مع كل ما انتهى إليه طلابها من فساد الذوق وعُجْمَة اللسان، وفَهاهة البيان.

وغاياتٌ تفضح أساليب أعداء هذه الأمة الذين يحاولون التشكيك والشكوى من أن: الصعوبة التي يجدها الطلاب كامنةٌ في اللغة العربية نفسها، أو في نحوها وفي أحرفها وفي إعرابها كما ينادي بعضهم بإبعاد هذه الأمةَ عن ثقافتها العربية، وحجبها عن فهمها وتذوق أسرارها.

وغاياتٌ تناسب متطلبات هذا العصر، فلم يَعُدْ عرضُ القواعد في الجامعات دون مناقشة ما تستند إليه من شواهد مقبولاً؛ لأن الشواهد روحُ تلك القواعد تضفي عليها حياةً ومتعةً وأصالةً. وعلى هذه المادة في الجامعات أن تكون ثقافة شواهدَ أكثر مما هي ثقافةُ قواعد.

---

[1] من حاضر اللغة العربية للأستاذ سعيد الأفغاني: ص202.

الغرض من قواعد اللغة:

إنَّ الغـرضَ الأسمى من معرفة قواعد اللغة هو أن النحو والصرف يصونان اللسان عن الخطأ فـي الكـلام، ويعصِـمَان القلم عن الزَّلل في الكتابة، وعلوم البلاغة تهدي إلى تفهُّم إعجازِ القرآن، وتعين على تذوق الجمال في روائع الشعر وبدائع النثر.

وهـذه العلـوم العربـية المتكاملة من لغة ونحو وصرف واشتقاق وبيان ومعانٍ وبديع ــ على اخـتلاف فروعها وتعدُّد أنواعهاــ مستقاة من الكلام العربي الأصيل، ومردّها جميعاً إلى ما نطق به الفصحـاء مـن أهـل (الضّـاد) الذين يُستَشْهَدُ بكلامهم ويحتجّ بلسانهم، فإذا نطقنا باللفظ المفرد أو المركّـب، وصُغنا الأسلوب صياغةً خاصَّة، وجرينا في تأليفه على نظامٍ معيَّنٍ ــ فلا تعليلَ لذلك إلا محاكاةُ العرب، والنَّسج على مِنوالهم، ولا شيءَ غير هذا.

خَطْوةٌ لم تنجم:

غـيرُ خـافٍ علـى أحد أنَّ من أهداف تعليم النحو أن يمتلك المتعلِّم مقياس الصحة والخطأ في اللغـة. واسـتثمارُ هـذه الفكرة أمرٌ مهمّ جداً حتى تزيل من نفوس طلابنا الحَيْرةَ وأن نسير بهم في دراسة القواعد بخطو ثابت، وتذوّق وحسن فهم.

فـأن يـتلقّى طلابُ الأدب العربي كتبَ التراث النحوي كشروح الألفية، وشرح شذور الذهب، وشروح الشافية، في بداية تحصيلهم الجامعي، غيرُ مثمر ولم يحقّق النتائج التي كان يرجوها الأستاذ سـعيد الأفغانـي. وليسـت المشكلة في الكتاب، وإنما في الرصيد الفارغ الذي يمتلكه الطالب. يقول الأسـتاذ عـن هـذه الخطوة: "لم ينجح وضع المصادر القديمة التي أُلِفتْ لغير هذا الزمان في أيدي الطـلاب أولَ مـا يستقبلون تحصيلهم الجامعي، فلا (شرحُ شذور الذهب) ولا (شرحُ ابن عقيل على الألفية) ولا أمثالُهما قامت بما تُوُخّيَ منها؛ إذ كانت جميعاً إحدى حَلَقاتٍ سلسةٍ كان يتدرّج فيها طالب العلـم قـبل مئات السنين. وهي تذكّرنا بالمجالس النحوية والمناظراتِ اللغويّة التي عادت على أهل العلم بكنزٍ من الفوائد لا نظير لها.

أمَّـا الـيومَ فـيدرس الطالب الثانوي مادةَ القواعد العربية في كتب حديثة خفيفة!! يُراعى فيها تسلسل مخالفٌ للتسلسل القديم، وأساليبُ حديثةٌ متطورة لم يعهدها الناس من قبلُ."

كـلُّ هـذه الغايات كانت وراءَ جهود العلماء لتصنيف كتب القواعد بطرازٍ جديد غايتُه تقريبُ الـتراث الـنحوي لجمهور الطلبة، وأستاذنا الأفغاني واحدٌ من الغيورين على هذا التراث وأن يبقى أبـناؤه مشـدودين إلـيه بصلة رَحِم قوية، فأدرك مبتغاهم، وقد اضطر بعدَ أن درّس في هذه الكتب بعـض الوقـت أن يرفعها من أيديّ الطلبة في السنة الجامعية الأولى على الأقل، وأن ينخل مادتها ويُفـرِغها فـي أسلوبٍ حديث سهلٍ منسَّق، بحيث يستوعب الطالب مادة العلم ويتذوقها بعد أن كان

يشقى باشتغاله بحل عبارة المؤلف عن هضم المادة نفسها[1].

وبعد هذه المرحلة، التي هي مرحلة صقل لقواعد العربية، نسمو بالطالب درجةً عليا، فنطلعه على كتب القدماء ونشرح له بدقة ووضوح منهاج كل مؤلف، والمادة النحوية أو الصرفية التي يضمها الكتاب، كالمفصل للزمخشري واللمع لابن جني والإيضاح للفارسي وأسرار العربية لابن الأنباري والتسهيل لابن مالك والمُقَرِّب لابن عُصفور. كما نطلعه على التفكير النحوي وأصوله لدى علماء العربية، وما فرَّعوا في توجيهه من مسائل العربية ووجهات نظر أهل البصرة والكوفة وأهل الأندلس ونحو ذلك.

كما أراد المؤلِّف أن يعمّق ثقافة الطُّلاب في الدراسات العليا، فيبحث معهم بتفصيل ومنهجية الحديث عن معاني الأدوات والحروف وأسرارها في كلام العرب.

ثم الحديث عن الجملة العربية وما تُقدِّم من المعاني البلاغية في كلام العرب. وهذا منهاج متكامل يمتلكه طالب الأدب العربي الذي سَيُعَدُّ ليكون مدرِّسَ اللغة العربية ـ ويكون أهلاً للتشرف بخدمتها.

مَرَّتْ مناهج اللغة العربية منذ عهد الاستقلال بعدَّة تجارب، كان من جرّائها وَضْعُ عدد من المناهج تميَّز كل منها بخصائص معينة، لعلَّ من أبرزها تعزيزَ اللغة العربية والعملَ على تسهيل تعلّمها وقد استُحدثَ في تدريسها أمورٌ لم تكن في المناهج السابقة.

وهذا ما دفع الغيورين على اللغة العربية إلى توجيه الناس جميعاً إلى الاهتمام باللغة العربية، فقد ذكر السيد الرئيس حافظ الأسد: "لستم جميعاً مختصين بتدريس اللغة العربية مادةً من موادّ المنهاج الدراسي؛ ولكنكم جميعاً مسؤولون عن الحفاظ عليها وعلى قواعدها، فلا عُجمةَ، ولا ركاكةَ؛ بل تركيب سليم وفصاحة، مما اشتهرت به أمة العرب[2].

إن الحرص على سلامة اللغة يجب أن يبدأ من الصفوف الابتدائية، وأن يزداد مع ارتفاع مستوى التعليم.

تيسير في ترتيب الكتاب:

كتاب الموجز في قواعد اللغة العربية:

رُتِّبَتْ أبحاثهُ ترتيباً اعتمَدَ على تقسيم الكلام عند النُّحَاة: الأسماء، الأفعال، الحروف. مع بعض التغيير في الترتيب، فَجَعَلَ الأفعالَ أولاً، فالأسماء، ثم بحوثاً متفرِّقة:

وهذا الترتيب يذكّرنا بترتيب الزمخشري كتابه (المفصّل في صنعة العربية) الذي حَازَ شُهْرَةً

[1] انظر الموجز: ص3.

[2] من رسالة السيد الرئيس حافظ الأسد إلى جماهير المعلمين بمناسبة عيد المعلم العربي 13/3/1988.

كبيرةً وهو ـ عند أهل العلم ـ من الكتب التعليمية التي رُزِقَتْ ـ لأسبابٍ كثيرة ـ الشُيوعَ والذّيوع في زمانها وبعدَ زمانها، إلى عصرنا هذا.

وترتيب المفصّل كما ذكره الزمخشري أربعةُ أقسام: القسم الأول في الأسماء، والقسم الثاني في الأفعال، والقسم الثالث في الحروف، والقسم الرابع في المشترك من أحوالها...

وأما كتاب الموجز فهذا سردُ مباحثه بإيجاز:

1- مباحث الأفعال: الجامد والمتصرف- فعلا التعجب- أفعال المدح والذم، الصحيح والمعتل، المجـرّد والمزيد، همزة الوصل والقطع، استعمال المعجمات، الفعل المؤكد وغير المؤكد، الفعل المعلوم، والفعل المجهول... الخ الخ.

2- مباحث الأسماء: المعرفة والنكرة، المعارف السبع، المجرد والمزيد من الأسماء، المقصور والمنقوص والممدود، المذكر والمؤنث، الجموع وأحكامها... المرفوع من الأسماء... المنصوب من الأسماء... مواضع جرّ الاسم، التوابع..

3- بحوث متفرقة: أسماء الأفعال، أسماء الأصوات، حروف المعاني، إعراب الجمل، الإعلال، الإبدال، الوقف، كتابة الهمزة، كتابة الألف المتطرفة [1]

توجيهات وترجيحات:

إنّ خبرة الأستاذ الأفغاني بالتدريس لعلوم العربية، ودرايته بأصول النحو خاصّةً، هَيأتاه ليقدّم النحوَ العربيَّ بأسلوب سهل مشرق، أفرغ بقالب واضح متين، برزت فيه للأستاذ توجيهاتٌ نافعة وترجيحاتٌ قيّمة، فهو لم يتّسع في ذكر ما حفلَت به كتبُ النحو من الآراء والخلافات التي أثقلتها، ولـم يعرض للتفصيلات الجزئية و التفريعات المضنية، وإنما بسط القواعدَ الأساسية بسطاً فيه كلّ اليسر والسهولة، ولسان حاله يتمثّل فكرَ الإمام ابن حَزْمٍ الذي وضّح المقصودَ من النحو بقوله: وأمّا التعمّق في علم النحو ففضولٌ لا منفعة بها، بل هي مشغَلة عن الأوكد، ومقطعةٌ دون الأوجب والأهم... [2]

ولتقريب هذه الفكرة نعرض بعض الصور، منها:

أ. توجيه في إعراب الجمل:

للجمل في نصٍّ ما، ما للكلمات في الجملة؛ فهي أجزاء تؤلّفُ النص. وإعرابُها هو معرفة علاقاتها بعضها ببعض، العلاقةِ التي يحدّدها المعنى. وعلى المُعرِب أن يلتفتَ إلى الروابط اللفظية بين الجمل التفاتَه إلى العلاقات المعنوية، فمتى استوعَب المعنى وأجزاءَه استطاع أن يطبّق القواعدَ تطبيقاً سديداً يزيد المعنى وضوحاً، وتحديداً في ذهنه.

---

[1] جمع الأستاذ الأفغاني النحو والصرف وبعض أبحاث علم الإملاء لأهميتها لطلاب العلم.

[2] انظر رسائل ابن حزم: ص65.

وعليه ـ حين تقسيم الفقرة إلى جُمَلِها ـ ألاّ يحكمَ على ابتداء جملة إلاّ بعد استيفاء الجملة السابقة رُكنيها (المسندَ والمسندَ إليه)، وعندئذ ينظر في علاقاتها بما قبلها ليتبين إعرابَها بناءً على ذلك. ونلفت الانتباه إلى أنه كما يكون للجملة الواحدة إعرابٌ يكون لمجموع من الجمل إعرابٌ كذلك. وأوضحُ شاهد لتيسير هذا الفهم جملةُ مقول القول مثلاً، مجموعُهُ في محل نصب مفعول به لـ(قال)، لكن كل جملة فيه يجب أن يُنظَر إليها مستقلّةً، فجملته الأولى ابتدائية، لأنها أول ما تكلم به القائل، والتي بعدها بحسب علاقتها بها، وهكذا.[1]

ب ـ جواز وقوع الفاعل جملةً:

كثيرٌ من النُحاة لا يقولون بوقوع الجملة في محل فاعل، إلاّ إذا أُريدَ بها لفظُها، والمعنى لا يقرّهم على ذلك؛ ولم يأتوا بمسوّغ مقبول لهذا المنع، فقد قالوا: إن الفاعل في قوله تعالى:﴿وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم﴾ [إبراهيم 45] مصدر تبيّن، والتقدير تبيَّن لكم التبيُّن، وجملة (كيف فعلنا بهم) بَدَل من المصدر المقدر أو مفسِّر له، فوقعوا فيما هربوا منه.

والتأويل الواضح: تبيَّن لكم حالُ فِعلِنا بهم.[2]

ج ـ تقديم المفعول به على الفاعل:

يجب تقديم المفعول على الفاعل في حالات منها:

أن يكون الفاعل محصوراً بـ (إنما)، فيجب تقديمُ المفعولِ به، مثل (إنما كَسَر الزُجَاجَ خالدٌ).

قال الأستاذ: وأكثر النحاة على وجوب التقديم إذا كان الحصر بـ (إلاّ) أيضاً مثل: (ما كَسَرَ الزجاجَ إلا أخوك) وإنما لم يوجب بعضُهم ذلك لوجود شواهدَ شعرية عِدّة، لم يلتزم فيها التقديم في هذا الحال.

والأولون عدّوا ذلك من الضرورات الشعرية، وهوَّن الأمرَ عندَهُم عدمُ الالتباس فيها، والعملُ على مذهبهم لأنه أقيس وأجود.

وعبارةُ الأستاذ: "وهوَّن الأمرَ عندهم عدمُ الالتباس فيها" هو مراد الأمر في معرفة التقديم والتأخير الذي وُجِّهَت القاعدةُ النحوية من خلاله ومن خلال بعض الشواهد التي أجازها حُذّاقُ النحويين من البصريين والكسائي والفراء وابن الأنباري. كقول دعبل الخزاعي:

ولمّا أبى إلاّ جِماحاً فؤادُه ... ولم يَسْلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهْلِ

وقول الآخر:

تزوّدْتُ مِنْ ليلى بتكليمِ ساعَة ... فما زاد إلاّ ضِعْفَ ما بي كَلامُها

---

[1] الموجز: ص404.
[2] الموجز: ص396.

وقول زهير:

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلاّ وشيجُه وتُغْرَسُ إلاَّ في منابتها النَّخْلُ

وقد اجتمع في البيت تقديم المفعول (الخطي) على فاعله (وشيجه) وتقديم الجار والمجرور. وهو قوله (في منابتها) على نائب الفاعل وهو (النخل) مع أن الجار والمجرور محصور بإلا، ولما كان الجار والمجرور بمنزلة المفعول، وكان النائب عن الفاعل بمنزلة الفاعل صحَّ الاستدلالُ بهذا البيت على جواز تقديم المفعول المحصور بإلا على الفاعل[1]

د ـ أصل بحث الاشتغال:

قال الأستاذ:

جَرَتْ عَادةُ النُّحاة أن يذكُروا [في بحث المفعول به] المواضعَ التي يجب فيها رَفْعُ الاسم المشتَغَل عنه، والمواضعَ التي يرجَّح فيها رفعُه، ونحن لم نذكرها أعلاه [أي في متن البحث] لأنها حينئذٍ ليست من المفعول به في شيء، وإليك خلاصتَها:

أ ـ يجب رفع المشتغَل عنه:

1 ـ إذا وقع بعد (إذا) الفجائية؛ لأنها لا تدخل على الأفعال لا لفظاً ولا تقديراً، مثال: (قدِمْتُ فإذا الناسُ يضربُهُمُ الشُّرَطُ).

2 ـ إذا وقع بعد واو الحال، مثل (وقفتُ وزيدٌ يمسكُها ولَدي).

3 ـ إذا وقعت بعد أداة لا يعمل ما بعدها فيما قبلها مثل أدوات الشرط والتَّحضيض. والاستفهام وإنَّ وأخواتها، وما التعجبيّة وكم الخبريَّة، وما النافية، مثل:

أخوك إنْ تكرمْه يُطعْكَ.

كتابي هَلْ رأيْتَهُ؟

الدنيا كمْ أحبَّها المغرورون!

حَظُّك ما أحسنَه!

جارُك ما رأيته.

ب ـ يـرجَّحُ الرفع إذا لم يكن مُوجِبٌ ولا مرجّح للنصب، مثل: (أخوك أكرمتهُ) وذلك لأن الرفع لا يحتاج إلى تقدير فعلٍ محذوف يفسره المذكور كما هو الحال في النصب.[2]

هـ ـ البلاغة في حذف الفعل:

من تراكيب الإغراء والتحذير ما يُحذف منها الفعلُ وجوباً وذلك في مواضع، منها:

---

[1] الموجز: ص267، وانظر أوضح المسالك لابن هشام 1/362 ـ 364.

[2] الموجز: ص272 ـ 273.

إذا كان في التركيب الضميرُ: إياكَ وفروعُه، مثل:

إيّاكَ والمزالِقَ

إيّاكُمْ مِنَ الغشِّ

إيّاكنَّ والثّرثَرةَ

والأفعال المحذوفةَ هي: أُحذِّرُك، أُحذِّرُكُم، أُحذِّرُكُنَّ، وتجنبْن الثَّرثَرةَ.

وقد بيّن ما يجوز في وجوه الإعراب من نحو: إياكنَّ والثرثرة، فقال الأستاذ:

يجــوز أن نعطف (الثرثرة) على الضمير، أو نجعلَها مفعولاً معه، أو نقدّر: بَاعِدْنَ أنفسَكُنَّ مِن الثرثرة، والثرثرةَ من أنفسِكُنَّ.[1]

و ـ بين المصدر المؤول والجملة:

يعدّون جملة (أنَّ) وما دخلت عليه مما أُلحق بالمفرد، وذلك لتأويلها بمصدر مرفوع أو منصوب أو مجرور مثل:

شاع أنك مسافر: (أنك مسافر) في محل رفع فاعل (شاع) والتأويل: شَاعَ سفرُك.

ظننت أنه مسافر: تأويلها: ظَنَنْتُ سَفَرَه.

كافأته لأنه مُستَحِقٌّ: المصدر المؤول في محل جر بالحرف، كافأته لاستحقاقه.

ساءني خبرُ أنك مخفق، ساءني خبرُ إخفاقك.

كذلــك يؤولون ما بعد همزة التسوية بمصدر، يعطون الجملةَ إعرابَه مثل: سَوَاءٌ عندي أسافروا أم أقــاموا، فــيجعلون جملة (أسافروا) في محل رفع مبتدأ مؤخراً، والتأويل: سفرُهم وإقامتُهم سواءٌ عندي. وجملةُ (أم أقاموا) محلها الرفع لعطفها على جملة (أسافروا).

وهذا ينساق مع الأصل العام: كل جملة أُوِّلَتْ بمفردٍ فهي ذاتُ مَحَلٍّ.[2]

ز ـ خبر اسم الشرط:

إذا وقع اسمُ الشرط مبتدأً، جاز في خبره وجوهٌ:

أحدُهــا: الخبرُ جملةُ فعلِ الشَّرْطِ. والثاني: جملةُ الجواب، والثالث: هما مَعاً. وقد رَجّحَ الأستاذ الأول. قال:

جمهــورُ النحاة أكثرُهم يجعل جملةَ فعلِ الشرط هي الخبر، وبعضُهم يجعلُ الشَّرطَ وجزاءَه هو الخــبر، لكــن المعنى ـ وهو الحَكَمُ في كلِّ خلاف ـ ينصر ما أثبتناه لأنك إذا حولت صيغة الجملة الشــرطية (مَــنْ يســافرْ يبتهجْ) إلى جملةٍ اسميةٍ قلت: المسافر مبتهج، وما اسمُ الشرط هنا إلاّ اسمُ

(1) الموجز: ص272.

(2) الموجز: ص399.

موصول أُضيف إليه معنى الشرط ففك صلته بفعله لفظاً لا معنى.(1)

و- توجيه جواب الشرط المناسب:

مــن بلاغــة العربية حذفُ جواب الشَّرط. ومن أمثلة ذلك الشاهدُ الذي تناوله معظَمُ المفسرين والمعربيــن، وهو قوله ﴿وإنْ كانَ كَبُر عليكَ إعراضُهم، فإنِ استطعتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرض أو سلَّماً في السماءِ فتأتيَهُم بآيةٍ، ولو شاءَ اللهُ لجمعَهُمْ على الهُدَى﴾ [الأنعام: 35].

وقد استرعت بلاغتُها الأنظارَ، وفيها قد حُذِف جوابُ الشرط. قال الأستاذ:

وجــواب (فــإن اســتطعت) المحذوف هو: (لم يؤمنوا). لا (فافعل). كما يقدِّرُه كثيرٌ من النحاة والمؤلفين، غفلةً عن المعنى المناسب.(2)

مــن المعربين الذين حدّدوا هذا الجواب أبو زكريا الفرَّاء. قال فافعل. بذلك جاء التفسير. و ذلك معنــاه، وإنمــا تفعله العرب في كل موضع يُعرَفُ فيه معنى الجواب، ألا ترى أنك تقول للرجل: إنِ استطعْتَ أن تتصدَّق، إنْ رأيتَ أن تقومَ معَنا، تترك الجواب؛ لمعرفتك به...

وأخــذ هذا الرأي العكبري أيضاً، والزجاج فقال: إن استطعت هذا فافعل،... لأنه قد يحذف ما في الكلام دليلٌ عليه، ومثلُ ذلك قولك: إنْ رأيتَ أن تمضيَ معنا إلى فلانٍ، ولا تذكر: فافعل.(3)

ولــم يــتعرَّض لبيانِ بلاغة الحذف الذي كان في غاية الحُسْنِ، لأنه قد انضمَّ لوجودِ الشرطين وهما:

أ ــ أن يكون معلوماً.

ب ــ أن يكون فعل الشرط ماضياً.

طولُ الكلام، وهو مما يحسن معه الحذف.

تعزيز البحث بالشواهد والأمثلة:

عــرف الأســتاذ أنَّ غنَى الدَّرس النَّحْويّ لا يتحقّق من خلال عرضه نظرياً فحسب ــ وخاصةً فــي مجــال الــنحو ــ وإنما غناه بالشواهد والأمثلة التي تُنير البحثَ وتُوسِّعُ أُفُقَ الطالب ومداركَه، وأيقَــنَ أنَّ القلوبَ والأفكارَ جُبِلَتْ على التأثُّر بالأمثلة وثبوتِ المعاني فيها بواسطتها، قراءةً في فَهْمٍ، وحفظاً في وَعْيٍ، فأبدى أصولاً راسخةً حولَ الشواهد وقواعدِ الاحتجاج بها. صَدَّر بها كتابه لما فيها مــن توجيهات دقيقة في مسالك النحو العربي وما بُني عليها من قواعد، وقيمتها في الاحتجاج، وهي ــ كما ذُكِرَتْ في الكتاب:(4)

---

(1) الموجز: ص89. وانظر المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية لابن هشام، تحقيق الدكتور مازن المبارك. ط3.

(2) الموجز: ص280.

(3) انظر معاني القرآن 131/1، معاني القرآن للأخفش 280/1، الكشاف 397/1.

(4) الموجز: 25 ــ 8.

1ـ ليست القواعدُ إلاَّ قوانين مستَنبَطة من طائفةٍ من كلام العَرَب الذين لم تَفْسُدْ سلائقُهم.

2ـ أعلى الكلام العربي من حيثُ صِحَّةُ الاحتجاج به:القرآنُ الكريم بجميع قراءاته الصحيحة السَّنَد إلى العرب المحتَجِّ بهم. ثمّ ما صَحَّ أنه كلام رسول الله ﷺ نفسه أو أحد الرّواة من الصحابة. ثم نثْر العرب وشعرُها في جاهليتها بشرط الاطمئنان إلى أنهم قالوه باللفظ المروي، ويلي ذلك كلامُ الإسلاميين الذين لم يُشَوِّهْ لغتَهُمُ الاختلاطُ.

3ـ جعلوا منتصف المئة الثانية للهجرةَ حدّاً للذين يَصِحُّ الاستشهادُ بشعرهم، من الحَضَريين؛ فإبراهيم بنُ هرْمَةَ آخرُ منْ يَصِح الاستشهاد بشعرهم، وبشارُ بن برد أوَّلُ الشعراء المحدثين الذين لا يُحتَجّ بشعرهم على متن اللغة وقواعدها. وعلى هذا يؤتى بشعر المتأخرين من فحول الشعراء للاستئناس والتمثيل لا للاحتجاج.

أما في البداية فقد امتد الاستشهاد بكلام العرب المنقطعين فيها حتى منتصفِ المئة الرابعة للهجرة.

4ـ لا يحتج بكلامٍ مجهولِ القائل:

زعم بعض النحاة أنه يجوز اجتماع (كي) و(أن) على فعلٍ واحد، واحتجوا لذلك بقول القائل:

أردْتَ لكَيما أن تطيرَ بقربتي فتتركَها شَنّاً ببيداءَ بلْقَعِ

وزعم آخر أن لام التوكيد تدخل في خبر (لكنَّ) كما تدخل في خبر (إنَّ) واستشهد لزعمه بقول القائل:

ولكنَّني مِنْ حُبِّها لَعَمِيدُ

وكلا القولين ساقط لا يُبنى عليه قاعدة، فالشاهد الأول مجهول القائل، والشاهد الثاني لا يُعرَفُ له أول ولا قائل. وما بني عليهما ساقط.

5ـ لا يحتج بما له روايتان إحداهما مؤيدة للقاعدة تُزْعم، والثانية لا علاقة لها بها، لاحتمال أن الشاعر قال الثانية. والدليل متى تَطَرَّقَ إليه الاحتمالُ سَقَطَ به الاستدلالُ:

ادّعى بعضهم أنَّ (الأرض) تُذَكَّر وتؤنَّث، واستشهد للتذكير بقول عامر بن جُوَيْن الطائي في إحدى الروايتين:

فلا مُزنةٌ وَدَقَتْ ودْقَها

ولا أرض أبْقَلَ إبقالَها

والرواية الثانية: ولا أرض أبْقَلت ابقالَها

فإن لم يكن لتذكير (الأرض) غير هذا الشاهد فلا يحتج به، لأن الأكثر أن الشاعر قال (أبقلت) اللغة المشهورة المَجمع عليها.

6ـ ترد الشواهد في كتب النحاة محرَّفَةً أحياناً، ويكون موضعُ التحريف هو موضع الاستشهاد على قاعدة تُزْعَم؛ ولو حُرِّرَ الشاهد ما كان للقاعدة مؤيِّد:

عرفت أن الشاهد على اجتماع (كي) و(أن) مجهول القائل وبذلك حبطت القاعدة، لكن بعضهم احتج بقول جميل العذري وهو ممن يحتج به:

فقالت أكلَّ الناسِ أصبحتَ مانِحاً   لسانَك كيما أن تَغُرَّ وتخدَعا

وبرجوعنا إلى الديوان نطلع على الرواية الصحيحة وهي:

....لسانَك هذا كي تَغُرَّ وتخدَعا

فالرواية التي احتجوا بها محرَّفة في موضع الاستشهاد نفسه، وإذاً لا صحةَ للقاعدة المزعومة، فالواجب تحرير الشاهد والتوثق من ضبطه في مظانه السليمة قبل البناء عليه.

7- كما يفيد جداً الرجوعُ إلى الشاهد في ديوان صاحبه إنْ كان شعراً، يفيد الرجوع إلى مصادره الأولى إنْ كان نثراً لمعرفة ما قبله وما بعده، فكثيراً ما يكون الشاهدُ الأبتَر داعيةَ الخطأ في المعنى والمبنى:

زعم بعضهم جواز مطابقة الفعل لفاعله المتأخر في الإفراد والتثنية والجمع فأجاز قول: (جاؤوا الطلابُ) واحتجَّ بحديثٍ في موطأ مالك: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة النهار...".

ولا غبارَ على الاحتجاجِ بالحديث البتةَ، ولكننا حين رجعنا إلى (موطأ مالك) وجدنا للحديث أوَّلاً وهو: "إن لله ملائكةً يتعاقبون فيكم: ملائكة في الليل وملائكة في النهار..." وإذاً لا شاهد صحيحاً على قاعدتهم المزعومة.

8- ينبغي التفريق بين ما يُرتَكَب للضرورة الشعرية وما يُؤتَى به على السَّعة والاختيار، فإذا اطمأنت النفس إلى بناء القواعد على الصنف الثاني ففي جعل الضرورة الشعرية قانوناً عاماً للكلام نثره ونظمه الخطأ كل الخطأ: ادعى بعضهم جواز الرفع بـ(لم) مستشهداً بقول قيس بن زهير:

ألم يأتيك والأنباءُ تنمي   بما لاقَتْ لَبُونُ بني زِيادِ

فإذا فرضنا أن الشاعر قال (يأتيك) ولم يقل مثلاً (يبلغك)، يكون قد ارتكب ضرورةً شعريةً قبيحة، ولا يجوز البتَّةَ أن تُبنَى قاعدةٌ على الضَّرورات.

9- المعوَّل في امتحان أوجه الإعراب والترجيح بين أقوال النحاة على المعنى قبل كل شيء، فهو الذي يجب أن يكون الحَكَمَ في كلِّ مناقشة وموازنة وترجيح، وإذا دار الأمر بين مقتضيات المعنى ومقتضيات الصناعة النحوية التُزِمَت الأُولى دونَ الثانية:

في تعليق إذا والظروف الشرطية قولان: قول الجمهور أن تعلَّق بفعل الشرط، وقول غيرهم بتعليقها بجواب الشرط؛ (إذا حضَرْتَ أكرمْكَ) فالجمهور يجعل الظرف متعلقاً بـ (حضَرْت) وغيرهم يعلقه بـ (أكرم)، والمعنى ينص على أن الإكرام يقع عند الحضور، لا أن الحضور يقع عند الإكرام، وإذا فقول الجمهور لا يؤيده المعنى، والصحيحُ تعليقُه بجوابِ الشرط.

10ـ يُفضَّل في كلّ مقام فيه إعرابان، الإعرابُ الذي لا يحتاج إلى تقدير محذوف: في جملة المدح (نعم الرجلُ خالدٌ) يجعل البصريون (خالد) خبراً لمبتدأ محذوف وجوباً تقديره (هو) أو (الممدوح) فيكون التركيب جملتين، جملة (نعم الرجل) وجملة (هو خالد).

أما الكوفيون فيجعلون (خالد) مبتدأ مؤخراً وجملة (نعم الرجل) خبراً مقدماً من غير تقدير محذوف. وهذا القول صواب لإغنائنا عن تقدير محذوف أولاً، ولأن العَرَب تقول (خالدٌ نعم الرجل) ثانياً.

11ـ إذا ألجأت أحكام الصناعة إلى تقدير محذوف، قُبل هذا التقدير بشرطين:

1ـ ألاَّ يلجئ إلى إخلالٍ بالمعنى.

2ـ وأن يسوغ التلفظ به دون ركّة أو خروج على الأسلوب العربي المشهور: يجعلون لهمزة الاستفهام تمام الصدارة حتّى على حروف العطف، فلا نقول: وأذهبْتَ؟ كما نقول (وهل ذهبْتَ؟)، وإنما نقول (أوَ ذهبْتَ؟) لكن الزمخشري زعم في مثل قوله تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيفَ كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبلِهم...﴾ أن الفاء عاطفة في صدر جملتها وأن الهمزة داخلة على جملة محذوفة وأن التقدير: أقعدوا فلم يسيروا.

والطبع السليم يَجِدُ ركّةً في هذا التقدير وبعداً عن البلاغة، ووجوبَ إهمال هذا المذهب لسخفه[1].

فهم المعنى لتوجيه الإعراب:

إن المتتبع لمنهج الأستاذ في محاضراته وفي كتبه لاسيما (الموجز) لَيدرِكُ منه أمرين:

أولهما: استمداد الأستاذ الأفغاني من نبع النحو العربي في كتبه الأصول، لاسيما "المفصَّل" للزمخشري بترتيبه المعهود.

ثانيهما: صياغة قواعد النحو صياغةً واضحةً جداً، تسهِّل للطالب مأخذه وتقرّب أمره.

وغاية هذه الصياغة مبنيَّةٌ على فَهْمِ المعنى، ومن خلاله يتمُّ توجيه الإعراب، وقد أدرك المؤلف أن وراءَ كلِّ تغيير إعرابي معنىً يناسبه، ودلالةً توضحه، أبلغُ الكلام ما تنوَّعتْ وجوهُ إفادته. من هنا نبّه؛ وهو يُحدثنا عن نصب المضارع بعدَ واو المعيّة المفيدة معنى (مع) مثل: (لا تَشربْ وتضحك) فأنت لا تنهاه عن الشرب وحدَه، ولا عن الضَّحك وحدَه، وإنما تنهاه عن أن يضحك وهو يشرب؛ نبّه إلى أمرٍ مهمٍّ فقال: "شاع بين المتعلمين وبعضِ النحاة استواءُ الحركات الثلاث المشهور (لا تأكل السمَك وتَشرب اللبن)، وهذا ليس بسديد، والحقّ أن لكُلٍّ من الحركات معنى؛ فإذا نصبت (تشربَ) فأنت تنهاه عن أن يقرن العملين في وقت واحد، وإذا جزمت الفعلين كان النهي منصَبّاً على كل منهما مقترنين ومفترقين، وإذا رفعت اقتصر النهي على أكل السمك، وأخبرت أنّه

[1] الموجز: ص9.

يشربُ اللبن"[1].

ومـــن الالـــتفات إلى الغرض المعنوي ــ وهو ما حَرَصَ عليه الأستاذ الأفغاني ــ ما نجده في توجيه الآية الكريمة: ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا ــ والصابئون ــ والنصارى مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وعَمِل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [المائدة: 69].

يذكـــر الـــنحويون أن العطـــف على اسم (إنَّ) قبل مجيء الخبر يوجب نصب المعطوف، ولا يجوّزون الرفع، إذ لا وجه له عندهم، فإنه إن كان معطوفاً على الضمير المرفوع المستكنّ في الخبر يلـــزم علـــيه تقديمُ المعطوف، ولا قائل به، وإن كان معطوفاً على محلّ اسم إنَّ ــ وأصلُه مبتدأ ــ صار مبتدأ مثلَه حُكْمَاً واعتباراً، وعَمِلَ في الخبر، وترتّب على هذا توارُدُ عاملين إلى معمول واحد، أحدُهما ما أصلُه المبتدأ حقيقةً، والثاني المعطوفُ الذي اكتسب هذا الاسم اعتباراً وتقديراً.

ويُحسَـــن قبل إبداء الرأي السديد للأستاذ أن نلقي ضوءاً على ما ذكره المعربون في هذه الآية، وكيف يُخَرَّجُ وجهُ الرفع في ﴿الصابئون﴾.

قال ابن هشام في المغني، أجيب عن الآية بأمرين:

أحدهمـــا: أن خبر إنَّ محذوف، أي مأجورون أو آمنون أو فرحون. والصابئون مبتدأ، وما بعده الخبر، ويُضْعِفُه أنه حُذِفَ من الأول لدلالة الثاني، وإنما الكثير العكس.

الثاني: أن الخبر المذكور لإنَّ، وخبر ﴿الصابئون﴾ محذوف، أي" كذلك، ويُضْعِفُه تقديمُ الجملة المعطوفة على بعض الجمل المعطوف عليها[2].

ولم يتطوّع ابن هشام في إبراز المعنى الذي عليه هذه المغايرة في رفع ﴿الصابئون﴾ أما الأستاذ الأفغاني فكان له توجيه معنوي خالص، وهو أن هذه الآية قرّرت أن الإيمانَ والعملَ الصالح يُذهبان الحـــزْنَ والخوف عن صاحبهما أياً كان دينُه في الماضي، وإنما رُفِعَت ﴿الصابئون﴾ وحدها، وجُعِلَتْ مع خبرها المقدر جملةً معترضةً ﴿والصابئون كذلك﴾ لأن الصابئين وهم لا كتابَ سماوي لهم، دونَ بقـــيَّةِ الأصـــناف (اليهود، النصارى والذين آمنوا) في المرتبة، فإذا كان الصابئون يَنْجُون إذا آمنوا وعملوا صالحاً، فالباقون وهم ذوو كُتُب منزلة وماضٍ في الإيمان أولى بالنجاة لا محالة[3].

وهذا التوجيه مستمدٌ من آراء حذّاق البلاغيين والمفسِّرينَ كالجُرجَانيّ والزَّمَخشريّ.

ومن الشواهد البارزة التي لا تُفهَمُ في صناعة الإعراب إلاّ بتوضيح المعنى ما ذكره في توجيه قوله تعالى: ﴿لو كان فيما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [سورة الأنبياء:22].

فمـــن المعروف لدى النحويين أنَّ بحث الاستثناء من أوسع أبحاث النحو العربي، لكثرة جزئياته وتـــنوّع تقسيماته وتداخل بعض أدواته ببعض. مثال ذلك (إلاّ) التي هي أم الباب فترد أداة حصر لا

---

(1) الموجز: ص79.
(2) الموجز: مغني اللبيب: ص389.
(3) الموجز: 243.

عمل لها، وتُحَمَلُ أحياناً قليلةً على (غير) وجوباً، فيوصف بها وبما بعدها، وذلك حين يُفسدُ المعنى على الاستثناء، مثل ﴿لو كانَ فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: 22].

قال الأستاذ: إن المعنى لو كان في السماء والأرض إله غيرُ الله لفَسَدتا، فالقَصدُ نفي كلِّ إله غير الله، وبهذا رادَفَتْ (إلا) كلمة (غير) التي يُوصف بها غالباً. ولو كانت للاستثناء. لكان المعنى: لو كان فيهما آلهة ليس الله معها لفسدتا، ولكنهما لم تفسُدا لوجود الله معها. وهو كما ترى معنى باطل، غيرُ مقصود البتةَ.

وتُعرب (إلاّ الله) معاً صفةً لـ(آلهة) كما يُوصف بالجار والمجرور معاً في قولنا: (هذا رجلٌ على فرس)[1].

وأصالةُ هذا الفهم من المعنى هو ما أدركه سيبويه، إذ خَصّص لهذه المسألة باباً، عنوانه: هذا باب ما يكون فيه إلاّ وما بعده وصفاً بمنزلة مثل وغير، وذلك قولك لو كان معنا رَجُلٌ إلاّ زيدٌ لغُلبنا، والدليل على أنه وصف أنك لو قلت: لو كان معنا إلا زيدٌ لهلكنا، وأنت تريد الاستثناء لكنت قد أحَلْتَ(21)... وعبارة (قد أحَلْتَ) هي غايةُ مقصود سيبويه من فهم المعنى.

تجنُّبُ الإسرافِ في التقديرات:

يرى الأستاذ الأفغاني أن إبعادَ بعض التقديرات المتكلفة جزء من تيسير النحو. فلا يُعطى تركيب بلاغي فوق ما يحتمل ولا ينبغي استهجانُ عقل المتعلم وتعريضُه لمعلومة يشعرُ معها بالاستخفاف بقدراته الفكرية. وقد يُدخِلُ الضَّيْمَ على اللغة نفسها.

من أمثلة ذلك حديثُه عن (ليس) وعملها في تركيب الكلام. والمعروفُ أن هذا الفعلَ يدخل على الجملة الاسمية. وله عمل، وقد يدخل على الجملة الفعلية التي فعلها مضارع، فهل يبقى له عَمَلٌ ويوجَّهُ التوجيهَ السابق؟

قال الأستاذ: بل توغل أحياناً في الجمود، فتصبحُ مثل حرف النَّفي، كقول البحتري:

لَيس يُدرى أصُنْعُ إنسٍ لجنٍّ ... سكنوه أم صُنْعُ جِنٍّ لإنس

فهي هنا بمنزلة (لا). وما ذهب إليه هو الرأي السديد الميسِّرُ، لكنَّ بعضهم يتكلَّف فيقدّر لهما ضميرَ شأن محذوفاً، زاعماً أن الأصل: ليس الشأن يدري أصنع...الخ[2]

وبمثل هذا التوجيه نعرب (ليس) حرفاً نافياً في قول الشافعي:

ورزقُكَ ليس ينقُصه التَّأنّي ... وليس يزيدُ في الرزق العَناءُ

وقول المعريّ:

(1) الموجز: 314.
(2) الكتاب 3/331.

ولـو أنّـي حُبِيتُ الخُلْـدَ فـرْداً ... لَمَـا أحبَبْـتُ بـالخُلْدِ انفـرادا
فـلا هَطَلَـتْ علـيَّ ولا بأرضـي ... سَـحَائِبُ لـيس تنـتظمُ الـبِلادا

ومـا ذهـبَ إليـه الأستاذ هو توجيه أخذ به ابن السَّراج (316هـ) وتابعه الفارسي في كتابه الحلبيَّات، وابـن شُـقَير، وجماعةٌ حين توجَّهوا لبيان المعنى والتخفّف من التكلّف، خلافاً لمن أنكر ذلك.

قال ابن السَّراج: أنا أُفتي بفعليَّة (ليس) تقليداً منذ زمنٍ طويل، ثم ظهر لي حرفيتُها(23).

وشاهد آخر نرى توجيهاً ميسّراً فيه للأستاذ حين نظر إلى تراكيب الاستثناء التي ضُمِّنَت: خلا، عـدا، حاشـا. فالـنحويون يجعلـون هذه الأدوات أفعالاً ماضية جامدة، والاسمَ بعدَهن مفعولاً به، ويقـدّرون الفـاعل مشـتقاً من الحكم قبلَهن، ويجعلون (ما) مصدريةً، فيكون التقدير في نحو: يقرأ الطـلاب مـا عدا اثنين منهم: عدا القُرَّاءُ اثنين منهم، أو عَدَت القراءة اثنين منهم، والجملة كلها حال من المستثنى منه، كأنهم قالوا: يقرأ الطلاب خالين من اثنين منهم.

والمعربُ ــ لا شكّ ــ يلمس جانباً من الصعوبة في هذا التقدير الذي لم يخطر في بال العربي، فخير من هذا أن نجعل هذه الأفعال حين جَمَدَت شِبْهَ الأدوات لا فاعلَ لها ولا مفعول، يجب النصب بهـا مع (ما) لأنها لا تزاد إلا مع ما أصله الفعل، ويجوز الجرّ والنصب حين حذف (ما) فيكون ما بعدها مجروراً لفظاً في محل نصب على الاستثناء لأنها أحرف جر شبيهة بالزائد.

ويقال الكلام نفسه في: (ليس) و(لا يكون) في هذا الباب أعني باب الاستثناء، إذ نعتبر التركيب تركيباً استثنائياً رادفت فيه الأداتان (إلا) فنصب ما بعدهما على الاستثناء وجوباً. وبذلك استغنتا عن اسم وخبر لاستعمالهما استعمال الحرف[1].

وأخيراً:

فهـذا كـتاب الموجـز في قواعد اللغة العربية، وُضع وضعاً تعليمياً من قبل واحد من أعلام العربـية النابهيـن، ليفي فيه بحاجة الطلاب إلى علم النحو والصرف، نرجو أن يستفيد منه القائمون علـى تعليم العربية، فيقتفون أثره في وضع مناهج النحو موضع البساطة والوضوح وكثرة الشواهد والأمـثلة، واستعانة بفصيح كلام العرب والبيان القرآني للوصول إلى تحقيق الهدف من تعليم النحو العربي وترغيب دارسيه بنقله من كونه علماً تغلب عليه النظرة العقلية ــ حتى أمسى منطقاً تجريدياً فـي بعض الكتب ــ إلى كونه علماً يلبي حاجة الدارسين إلى فهم أعمق ووسيلة أيسر لتعرّف أسرار العربية وتذوق نصوصها، وجعلها أداةً للتعبير الصحيح عن متطلبات حياتنا العقلية والمادية.

والكـتابُ ثمـرة خبرة طويلة، قضاها الأستاذ مشرفاً على مناهج التربية والتعليم وتطبيقها في علـوم اللغـة العربـية، فـي عدد من الأقطار العربية، دمشق وبيروت ومصر والعراق وغيرها.

---

[1] الموجز: 315 ــ 316.

نُظاهـرها معـرفةً حقَّـة بأحدث أساليب التربية، وطرق التدريس ويرعاها إيمان صادق بأن اللغة العربـية ليست وسيلة للتفاهم بين العرب فقط، بل هي الرباط الروحي الوثيق الذي يربط بينهم على مـر العصـور، والماعون الطاهر الذي صبَّت فيه عصارة أفكارهم وتجاربهم، والسّجل الخالد الذي حفـظ أمجـاد العروبة في ماضيها وحاضرها، ورسم الطريق إلى غدها المشرق، ومستقبلها الزاهر البسـام، وكلُّ جهد يبذل في تيسير هذه اللغة، وتمكينها من مسايرة النهضة العربية، إنما هو لَبِنَة من أرسخ اللبنات في صرح القومية العربية الشامخ.

لقـد أدى الأسـتاذ الأفغاني للدين والوطن والعربية حقاً كان أداؤه ــ فيما يرى ــ عليه لزاماً، وإنسـاؤه أو نسيانه عقوقاً ونكراناً. ولقد امتاز الأستاذ سعيد الأفغاني بأنه جمع بين التأليف والتعليم، وكان دأبه الاستقامة والجدّ في مسالك حياته كلها.

***

المصادر والمراجع

1 ــ الأشـباه والنظائر: السيوطي، ط/ حيدر آباد. د. ت.

2 ــ أوضـح المسالك: ابن هشام. دار إحياء التراث العربي 1968م.

3 ــ رسـائل ابـن حـزم: دار الآفاق، بيروت ط2، 1983.

4 ــ المباحـث المرضيّة المتعلقة بـ(من) الشرطية: الدكـتور مـازن المـبارك. ط/ دار ابـن كثير 1990م.

5 ــ معانـي القرآن: الفراء. تح: محمد علي النجار، القاهرة، عالم الكتب، ط3، 1983.

6 ــ معانـي القرآن: الأخفش: تح: فائز فارس، ط3، دار البشير، الكويت، 1981.

7 ــ مغنـي اللبيب: ابن هشام. تح: د. مازن المبارك وعلي حمد الله، ط3 دار الفكر 1973م.

8 ــ مـن حاضر اللغة العربية: سعيد الأفغاني: دار الفكر 1978م.

9 ــ الموجز في قواعد اللغة العربية: سعيد الأفغاني. ط3 دار الفكر 1981.

□□□

كُلُّ المَمالِك

في رثاء سعيد الأفغاني

شعر: د.علي العتوم*

كُـلُّ الْمَمَـالِكِ وَالأَنَـامِ تَبِـيدُ ... طُـرّاً وَيَـبقَى الْوَاحِـدُ الْمَعْـبُودُ
أيْـنَ الأُلَـى عَمَـرُوا الْبِلادَ وَعُمِّرُوا ... بَـادُوا كَـأَنْ لَـمْ يَعْمُـرُوا وَيَسـودوا
هَـذِي مَـنَازِلُهُمْ وَتِلْـكَ دِيَـارُهُمْ ... قَـدْ أَصْـبَحَتْ خِـرَبَاً حَوَتْهَـا الْبِـيدُ
وَلَقَـدْ رَمَتْنِـي الحادِثـاتُ بِسَـهْمِهَا ... سَـنْيَمِ أَصَـابَ اللُّـبَّ فَهْـوَ سَـدِيدُ
مِـنْ يَـوْمِ أَنْ وَقَـعَ النَّبافـي مَسْمَعي ... إذْ قِـيلَ قَـدْ فَـاظَ الإِمـامُ سـعيدُ
أُسْـتَاذِيَ الْمِفْضَـالُ فِـي الشَّـامِ الَّتِي ... هِـيَ للعلـوم مـنارةٌ وبـريدُ
وَلَنَحْـنُ فِـي الأَيْـكِ الأَغَـنِّ بَلابِـلٌ ... تَشْـدُو لِفَجْـرٍ باسـمٍ وَنَشِـيدُ
وَنَـرُودُ للّغـة الشَّـريفَةِ مَـنْهَلاً ... مَـا إنْ لَـهُ فِـي الْعَالمِيـن نَدِيـدُ
أُسـتاذَنَا يَـا مِـدْرَهَ الـنَّحْوِ الَّـذِي ... هُـو للشَّـريعةِ آلَـةٌ وحُـدودُ
كـم طَالِـبٍ قَـدْ أَمَّ سـاحَكَ فَانْثَـنى ... مِـن فَـيضِ عِلمِـكَ يَـرتَوي وَيُفِـيدُ
جـاؤُوكَ شَـتَّى مِـن بقـاعٍ عِـدَّةٍ ... فَـأَواهُمُ بحـرٌ لديـكَ مَدِيـدُ
وسـلكتَ فـيهِمْ مسـلكاً متمـيِّزاً ... بيـن الأسـاتذِ أنـتَ فـيه فَـريدُ

* شاعر أردني. والأبيات مختارة من قصيدة طويلة.

والجِدَّ سَمْتُكَ في المواقفِ كلِّها ... والقصدُ نهجُكَ والمسارُ رشيدُ
مُثُلٌ حملتَ لواءَها بعزيمةٍ ... عنكَ احتَمَلْنَاهَا وأنتَ تَقودُ
نبكيكَ يا أستاذَنا بمدامعٍ ... حَرّى عليكَ بها القلوبُ تَجودُ
لِلَّهِ مَا أقسى الفراقَ وأنتَ في ... أرضِ الحجازِ عن الشآمِ بعيدُ
تقضي وتَخْطَفُكَ المَنونُ وكلُّنَا ... آسٍ على رَيْبِ المَنونِ عَميدُ
يَا أيُّهَا الأستاذُ حسبُك رِفْعةً ... يُسدَى لكَ التَّكْريمُ والتَّمجيدُ
أنْ كُنتَ عن خُدَعِ الدُّنَا مُتَجافياً ... إذْ كُلُّ مَا فيها لديكَ زَهيدُ
أنعاكَ لِلعَرَبِيَّةِ الثَّكْلَى الَّتي ... قَدْ غابَ عَنْهَا فَحْلُهَا الصِّنْديدُ
يَا عَالِمَاً مِنْ سيبويهِ خِلالُه ... ويَزِيِنُه بِزَمَانِهِ التَّجديدُ
كَمْ مِنْ يدٍ أسْدَيْتَهَا لِلِسانِنا ... شَهِدَتْ بِهَا لَكَ فِي النَّدِيِّ جُهُودُ
يَا رَاحِلاً عَنَّاً وتَارِكَ حسرةٍ ... بقلوبِنَا هلْ تَرْجِعَنَّ عهودُ
ولَطَالَمَا كُنْتَ الشَّبَاةَ لكلِّ مَن ... يَسْعَى لِهَدْمِ تُراثِنَا ويَكيدُ

□□□

أخبار التراث

أمينة التحرير

تكريم:

بتاريخ 2003/9/7 أقام اتحاد الكتاب العرب في مكتبة الأسد الوطنية **حفل تكريم للدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية** بدمشق، ومنحه درع الاتحاد وبراءة **تقدير اعترافاً بعطاءاته الكثيرة، وتقديراً لجهوده المبذولة** في خدمة اللغة العربية وتراثها، **وفي ميادين التربية والتعليم** والإدارة.

كان أول المتحدثين عن مناقب الدكتور الفحام وأعماله عريف الحفل **الأديب حسن حميد، فذكر** في كلمات تفيض محبة وتقديراً إسهامات المحتفى به في المشهد **الثقافي والتربوي، وأشار إلى** خصاله الأخلاقية التي تعتبر مدرسة في المكرمات.

وألقى الدكتور علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب **راعي الحفل كلمة قال فيها:**

((لقد كان أستاذنا الدكتور شاكر الفحام شجرة وارفة الظل تنحني لكثرة ما تنوء بحمله من طيب الثمر. كان أنموذج الرجل النشيط المتواضع الذي يرفعه علمه وموقعه وسلوكه إلى درجة أستاذية لا يعكر صفوها الادعاء أو الغرور)) .

بعد ذلك توالت كلمات وشهادات الأساتذة، الدكتور إحسان النص، الدكتور محمود الربداوي، الدكتور علي أبو زيد، محمود الأرناؤوط. عبروا فيها عن مشاعرهم تجاه زميل عزيز وأستاذ كبير نذر حياته للعلم والعمل وخدمة الوطن.

وقد ألقى الدكتور شاكر كلمة قصيرة شكر فيها اتحاد الكتاب على مبادرته، وجميع الذين شاركوا في تكريمه: متحدثين وحضوراً.

•••

مؤتمر:

عقد مجمع اللغة العربية بدمشق مؤتمره الثاني بتاريخ 10/20/ إلى 2003/10/23 وجاء تحت عنوان (اللغة العربية في مواجهة المخاطر)، وضم المحاور التالية:

1-المخاطر من الداخل والخارج ووسائل مجابهتها:

أ-انتشار العامية في مختلف وسائل الإعلام في الداخل والخارج.

ب-استبدال اللغات الأجنبية باللغة العربية في اللافتات وأسماء المحال، والعلامات التجارية للمنتجات.

ج-تفشي اللحن والأخطاء اللغوية في الكثير مما يكتب ويذاع.

د-سوء أساليب تعليم اللغة العربية.

هـ- اقتصار المدارس والجامعات والمعاهد العليا في بعض الأقطار العربية على تدريس المواد العلمية باللغات الأجنبية.

و-محاولات إفساد اللغة العربية ومناهضتها، والدعوات المشبوهة للإعراض عن اللغة العربية الفصيحة، واستبدال العامية بها.

ز-العولمة وهيمنة ثقافة الأقوياء على الثقافات الأخرى ولغاتها.

2-دور مجامع اللغة العربية في حماية العربية:

أ-وضع المصطلحات وتوحيدها.

ب-تيسير علوم العربية ووسائل تعليمها.

ج-نشر كتب التراث.

د-إلقاء المحاضرات ونشر المقالات، وبث الأحاديث الإذاعية والتلفزية، وتصحيح الأخطاء الشائعة، وتقويم أساليب الترجمة

3-اللغة العربية وآفاق المستقبل:

أ-تعريب الحاسوب لتيسير التعامل معه.

ب-الاستعانة بالحاسوب لتعليم اللغة العربية وعلومها لغير الناطقين بها، وللترجمة الآلية من العربية إلى اللغات الأجنبية وبالعكس.

ج-عالمية اللغة العربية، ومكانتها بين لغات العالم الواسعة الانتشار، وإمكاناتها في استيعاب العلوم الحديثة، وقدرتها على توليد المصطلحات العلمية العربية.

وقد أغنت هذه المحاور البحوث التي قدمها نخبة من علماء اللغة العربية، نذكر منهم: د.إحسان النص د. ناصر الدين الأسد، د. عبد الكريم الأشتر، د. عبد الله الصالح العثيمين، د. عبد الإله

نبهان، د. عبد الكريم خليفة، د. محمود الريداوي، د. عبد الرحمن حاج صالح، أ. محمود فاخوري، د. الصالح بلعيد، د. محمود السيد، أ.محمود الأرناؤوط.

وقد أقيم على هامش الندوة حفل تذكاري بمناسبة انقضاء خمسين سنة على وفاة مؤسس المجمع الأستاذ محمد كرد علي.

وفي نهاية المؤتمر توصل الباحثون إلى توصيات عديدة نقتطف منها ما يلي:

1-مناشدة الدول العربية إصدار تشريعات ملزمة لحماية اللغة العربية من خطر استعمال اللهجات العامية واللغات الأجنبية في الإعلام والإعلان والإشهار، وترتيب عقوبات على المخالفين.

2-دعوة الدول العربية إلى رسم سياسة لغوية واضحة تتفق مع النصوص الواردة في دساتيرها التي تنص على أن اللغة العربية لغتها الرسمية. مما يرتب عليها تعميم استخدامها في مختلف ميادين مناشطها، فتكون لغة التعليم بجميع مراحله وأنواعه، ولغة الإدارة والقضاء والاقتصاد والإعلام وسائر وجوه الحياة الأخرى.

3-دعوة الدول العربية، وخاصة وزارات التعليم فيها، إلى إيلاء تعليم اللغة العربية في مدارسها العناية الفائقة، وتحسين طرائق تدريسها قراءة وكتابة.

4-دعوة مجامع اللغة العربية ووزارات التربية في الدول العربية إلى وضع الدراسات المتعلقة بتطوير مناهج تدريس اللغة العربية، ولا سيما الصرف والنحو والإملاء.

5-مناشدة الدول العربية، التي شرعت في تعريب تدريس المواد العلمية في معاهدها وجامعاتها، استكماله وتوفير مستلزماته، كيما يكون التعريب عامل تقدم علمي لها وسبيلاً لاستيعاب الطلاب استيعاباً صحيحاً، مع تحويل البحث العلمي إلى اللغة العربية تحقيقاً لتوطين العلم وفتح السبيل إلى الكشف والإبداع في العلم.

6-مناشدة الدول العربية التي لم تشرع في تعريب التدريس العلمي في مرحلة التعليم العالي، مباشرته دون تأخير مع توفير متطلباته الأساسية، من المدرس الكفي، والكتاب المؤلف بالعربية أو المترجم إليها، والمصطلح العلمي الصحيح.

7-دعوة جامعة الدول العربية والدول العربية جميعها إلى المساعدة على نشر اللغة العربية السليمة في مواطن الاغتراب وبلدان الشعوب الإسلامية المتعطشة إليها. وتعزيز استعمالها في هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية، وذلك بتقديم العون البشري والمادي والفني لها. مع دعوة ممثلي الأقطار العربية إلى الالتزام باللغة العربية.

8-دعوة مجامع اللغة العربية إلى الاهتمام بإعداد المعجم التاريخي للغة العربية الذي يرصد اللغة من أقدم عصورها حتى اليوم.

9-توفير الآليات الضرورية لتحقيق الزيادة المطلوبة في المحتوى العربي للشبكة العالمية

(الانترنت)، عن طريق التحول نحو الرقمية وإصدار التشريعات الحافزة لقيام صناعات في المحتوى العربي للشبكة وتعليم المعلوماتية والاتصالات بالعربية.

10-السعي لإنشاء مرصد عربي للمصطلحات.

11-تشجيع مراكز الترجمة والتعريب، وربطها بشبكة اتصالات تساعد على تواصل الأفراد والجمعيات والهيئات.

***

عقد مؤتمر (الاجتهاد في قضايا البيئة والعمران)، في جامعة اليرموك بمدينة اربد الأردنية بالتعاون بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة /إيسيسكو/، ورابطة الجامعات الإسلامية، وقد قدم ستون باحثاً أكاديمياً وعالماً متخصصاً مجموعة من البحوث، تناولت الاجتهاد في قضايا البيئة في ضوء المستجدات العالمية، وقضايا الصحة من منظور إسلامي، وموقف الإسلام من قضايا العمران.

سعى المؤتمر إلى إبراز الرؤية الحضارية الإسلامية تجاه القضايا المعاصرة في مجال البيئة والصحة والعمران، مع إحياء الاجتهاد الإسلامي المنضبط في مناقشة هذه القضايا العالمية، وعرضها بما يخدم مصلحة الفرد والمجتمع. وصولاً إلى صياغة منظور إسلامي حضاري ينبع من المرجعيات الإسلامية المتمثلة في الكتاب والسنة والتراث الفقهي.

وهدف المؤتمر إلى تعميق الوعي بإسهام الثقافة الإسلامية في الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض. وانتهى إلى تأصيل وجهة نظر إسلامية علمية واضحة المعالم تبين رؤية الإسلام إلى هذه القضايا.

وأكد المؤتمر على أهمية حماية البيئة الإنسانية بمختلف عناصرها من جميع صور العدوان الذي يستهدفها. ودعا إلى تفعيل دور المجامع الفقهية ومجالس الإفتاء ومراكز البحث العلمي للمشاركة في حل المشكلات المعاصرة المتعلقة بقضايا البيئة والصحة والعمران.

وأوصى بإحياء فلسفة التراث الإسلامي والفنون الإسلامية في العمران والبناء، مع الإفادة من التقنية.

***

ندوة:

- نظمت جامعة المعتمد بن عباد الصيفية في مدينة أصيلة المغربية، ندوة دولية حول (أوروبا وأمريكا والإسلام).
- عقد في سراييفو ندوة تربوية حول موضوع (إعادة صياغة التعليم الديني في البوسنة والهرسك على ضوء المتغيرات المحلية والدولية).

***

أسبوع تربوي:

في إطار التعاون المشترك لتحقيق الأهداف التي تجمع بين المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة /إيسيسكو/، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم /أليكسو/، أقامت المنظمتان أسبوعاً تربوياً في مدينة الرباط احتفاء بالرباط عاصمة للثقافة العربية عام 2003.

وتضمن الأسبوع التربوي أنشطة تربوية منها:

-ورشة عمل إقليمية للمسؤولين عن التخطيط التربوي والتقويم.

-مائدة مستديرة حول تربية القيم من وجهة نظر إسلامية.

-ملتقى حول تكنولوجيا الإعلام والتواصل، وتوظيفها في تدريس التربية الإسلامية.

***

إصدارات

كتب:

- صدرت ثلاث دراسات جديدة بالعربية والإنكليزية والفرنسية في ثلاثة كتب للدكتور عبد العزيز التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، هي:

(التعليم العربي: الواقع والمستقبل)، (الخطاب الإسلامي بين الأصالة والمعاصرة)، (الجاليات والمؤسسات الإسلامية ودورها في إبراز صورة الإسلام).

- أصدرت المنظمة الإسلامية عدداً من الكتب، نذكر منها:

كتاب (فنون العمارة الإسلامية وخصائصها في مناهج التدريس) تأليف د. عفيف البهنسي.

كتاب (القيم الإسلامية في المناهج الدراسية) تأليف د. خالد الصمدي.

كتاب (فن العمارة الإسلامية في البلقان والبوسنة والهرسك) تأليف كمال سوكيتش.

وكتاباً بالفرنسية بعنوان (الإسلام كما عرفته دين الرحمة والسلام) تأليف نصري سلهب.

وكتاباً بالإنكليزية بعنوان (قدسية فلسطين لدى المسلمين) تأليف حسن الكرمي.

دوريات:

- عن وزارة التربية والتعليم في المملكة العربية السعودية، صدر عدد جديد من مجلة المعرفة التي يرأس تحريرها الأستاذ (زياد بن عبد الله الدريس). وقد أفرد هذا العدد الشيري ملفاً لموضوع (ثقافة الحوار وثقافة العنف)، ونذكر من محتوياته البحوث التالية:

- العلاقة مع الآخر في الإسلام: مبنية على التعارف لا التعارك، التعايش لا التصارع/ أحمد

الدغشي.

– قيم الإسلام: الحوار، الانفتاح على العالم، محمد السماك.

– لماذا يلجأ الشباب إلى الرفض والتمرد والعنف؟/ الحارث حسن.

– الحوار: الوسيلة الأرقى لترسيخ ثقافة التسامح/ عبد الملك مرتاض.

– لماذا تعلم الأوروبيون من أرسطو، وأهمل العرب أبا حيان التوحيدي/ سوسن الأبطح.

* **عن مركز الوثائق التاريخية بمملكة البحرين**، صدر عدد من مجلة الوثيقة ضم مجموعة من البحوث والدراسات، منها:

– أثر العرب الفكري في الجانب الشرقي للخليج العربي حتى أواخر القرن الرابع الهجري.

–شبه الجزيرة العربية في الخرائط المحفوظة بالأكاديمية الروسية.

–الردة في بعض مناطق الجزيرة العربية، وموقف البحرين منها.

□□□